كـفُّ مريـــم

روايـــــة

سعيد سالم

كلمة الغلاف الخلفى للناشـــر:
رواية " كف مريم
تأليف: سعيد سالم

فكرة عن الكتاب:

سعيد سالم من أبرز كتاب القصة والرواية في مصر والعالم العربي حاصل على جائزة الدولة التشجيعية في الأدب عام 1995 عن مجموعته القصصية "الموظفون" الصادرة عن مطبوعات اتحاد الكتاب العرب في دمشق عام 1991، وعلى جائزة إحسان عبد القدوس الأولى في الرواية لعام 1990 عن رواية "الأزمنة" التي صدرت فيما بعد عن دار الهلال عام 1992، وأخيرا على جائزة اتحاد كتاب مصر لعام 2001 عن روايته العاشرة "كف مريم".

يقوم بنشر إنتاجه القصصي الغزير في مختلف المجلات والجرائد المصرية والعربية منذ ثلاثين عاما.

يصف نجيب محفوظ روايته " بوابة مورو" بأنها من آيات البشري ببعث الحياة الثقافية في مصر، ويصفه "يوسف إدريس" بأنه دخل عالم الأدب دخول العاصفة وأنه صاحب مدرسة خاصة في الكتابة، كما كتب عن أعماله أهم كبار النقاد في مصر والعالم العربي مثل الدكتور على الراعي والدكتور سيد حامد النساج والدكتور صلاح فضل والدكتور عبد العزيز الدسوقي والدكتور مصطفي هداره.

يبلغ رصيده الإبداعي 23 كتابا منهم 14 رواية و 9 مجموعات قصصية، كما كتب العشرات من المسلسلات الدرامية الإذاعية وبعض الأعمال المسرحية والتليفزيونية والسينمائية.

فكرة عن رواية "كف مريم".

تتعرض هذه الرواية بحرفية شديدة وتلقائية صادقة لمضمون شديد الحساسية يضطرب به عالمنا اليوم وهو العلاقة بين المسلمين والمسيحيين، وذلك من خلال قصة حب رومانسية عنيفة بين سيدة مسيحية "مريم " قتل الإرهابيون شقيقها ورجل مسلم "حليم" يعمل في مجال الآثار ويشغف بالبحث في عوالم الأسرار العلوية.

مريم تكبر حليم بأربعة أعوام وتعرف الحب من خلاله لأول مرة في حياتها، وحليم في الخمسين يحب للمرة الثانية بعد زواجه من حبيبته الأولى "عايدة".

مريم عقلانية قد قلبها من فولاذ وهي ذات كبرياء صخري متضخم وجمال رومانسي حزين له سحر يجذب الرجال. وهي كائنة صموتة لا تكاد تتكلم وإنما تترجم مواقفها الحياتية بنظرات عينيها الذهبيتين المترعتين بالغموض، الموحيتين بالمنح والمنع. ويجمع سهم كيوبيد الذهبي بين القلبين بعد بعاد قدري دام ربع قرن من الزمان.

تبدو الرواية مثيرة منذ صفحاتها الأولى بحيث يستحيل على القارئ أن يتركها قبل أن يصل إلى نهايتها.. هي رواية تحفل بالفكر ومناقشة العديد من القضايا الملتهبة المعاصرة مثلما تحفل بالفن من

خلال أسلوبها الشيق ولغتها الموسيقية الخلابة. ترى ماذا سيفعل كوبيد ببطليه؟ هذا سؤال تجيب عنه الرواية.

الناشـــر

كف مريم

مقدمة

آه.. كم أرهقني وأسعدني وآلمني هذان العاشقان: حليم ومريم، حتى فرغت لتوى من قصتهما الرهيبة التي بدأت أحداثها الوردية المعطرة صباح يوم مشرق من أيام عام 1992.. وإني لأعجب غاية العجب من جنون هذا السعيد الحالم الذي استطاع أن ينتهي من تسجيل روايتهما في عشرين يوما لم تزد.

كيوبيد 1994

(1)
وفيق جرجس

1962

هذه الليلة بعمري كله. تحقق حلمي وأملي ففزت بمريم من بين المتقاتلين عليها. لم أكن أنتظر أن تختارني دون من يصغرني سنا أو من يفوقني ثراء. لا بد أن لها معيارا خفيا تقيس به صلاحية من تختاره ليشاركها الحياة. أية معجزة أرضية تلك التي تجعلني أتصور أنني سأقضي الليلة معها على فراش واحد، وأنني سوف احتوى هذا الجمال المخيف بين ذراعي وأعتصر رحيقه وأرتشف من عسله ملكا خالصا لي وحدي حتى الموت.

إن ما يثيرني لحد الفزع أحيانا أنها لم تبادلني سوى كلمات قليل خلال مرات تعارفنا ولقاءاتنا المعدودة قبل الزفاف، فغالبا ما كانت تكتفي بالتعبير بعينيها وإيماءات رأسها عما تريد. لقد شعرت يوما أنني أمام أشعة عينيها النفاذة مجرد خلية مجهرية تخضع لفحص ميكروسكوبي ثاقب.. كل هذا في كفة وقبولها لي دونا عن غيري في كفة أخرى.

ما أروعها من امرأة حباني بها الرب بعد صبر عظيم. إنني لم أفرح منذ طفولتي بشيء مثل فرحتي اليوم بمريم. أحبها. أعشقها. أشتهيها بشدة. أحترمها وأثق بها وأتيه عجبا بشخصيتها التي بهرتني منذ التقيت بها لأول مرة في الكنيسة. إني أكاد أقدسها.
ها هي الآن بين يدي. مريم الجميلة الصامتة الخجول.. تطرق حياء ودلالا فتكاد أنوثتها تفقدني الصواب وتسلبني الاتزان، وأنا الذي لم اقترف الخطيئة مع امرأة ولو مرة واحدة رغم تجاوزي الثلاثين بعامين.. وكيف أزني وأبى القسيس لا يزال يتعهدني بالوعظ منذ كنت صبيا وحتى اليوم "قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زني بها في قلبه، فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فأقلعها وألقها عنك لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم، وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم".
هكذا تحالفت مع الحرمان واستمرأته رغم قسوته وشدة بطشه.. ولأن الإنجيل وممارسة الرياضة وكثرة الصوم والصلاة لم يستطيعوا قهره في جسدي واستئصاله من مشاعري وأعصابي وطاقتي الشابة المشتعلة، فإنه لم يكن أمامي إلا أن أستسلم للحرمان وأتلذذ بعذابه وسطوته انتظارا لليوم الموعود.
وها هو اليوم يجئ بمعجزة وقد نفد صبري عن آخره، واستحال استمراء الحرمان والتلذذ القهري بعذابه إلى قوة عمياء جامحة، اندفعت في ليلة العمر الهادئة تبطش به وتلتهمه وتفتك دون رحمة أو روية.. وإذا بمريم تصرخ فزعة وتتملص مني وفي عينيها رعب لم أشهده من قبل في حدقتي مخلوق! لم أشعر بنفسي وقد ازداد توحشي ونشبت أنيابي ومخالبي فيما تمكنت منه من جسدها المرمري وأنا أخور كذئب مسعور تسيل من فمه دماء فريسته الجريحة.
أطلقت صرخة مدوية واندفعت إلى باب الغرفة تفتحه منطلقة في أرجاء الفندق الكبير.. حافية القدمين في ثوب الزفاف وقد تمزق معظمه وتناثرت عليه بقع لست أدري من دمها أم من دمي.. تجري في الطرقات وأجرى من خلفها دون وعي بالزمان أو المكان وما يشغلهما من جماد وبشر.. لم أدرك معنى الذهول الذي كان مرتسما على وجوه النزلاء – فقد كنت فاقد الإدراك – حتى وصلت إلى باب الفندق المؤدى إلى الطريق العام.
كلما تمكنت من ثوبها وكدت أمسك بها نزعت نفسها مني بقوة خرافية ليزداد تمزق الثوب ويتعرى لحمها الأبيض الشهي وقد تلون بلون الدم فيزداد صرعي ويتصاعد جنوني وكأنني في كابوس مثير.
لم يكن في اندفاعي من خلفها شيء من الإحساس بالفضيحة أو العار أمام النزلاء الذين شهدوا حفل زفافنا منذ ساعتين.. كما لم يكن في هذا الاندفاع مجرد رغبة في كبح جماحها والسيطرة عليها لإعادتها إلى غرفتنا بالفندق، وإنما كنت أريدها في التو واللحظة كما لو كان ملاك الموت سيخطفها مني بعد دقيقة، ولو تمكنت منها لما ترددت لحظة واحدة ولو على قارعة الطريق. هذه نتيجة تربيتك المباركة يا أبي المبارك.
في عرض الشارع كدت أتمكن من الإمساك بها وقد ارتبك مرور العربات التي توقف معظمها فجأة في جو عاصف مطير تحاشيا للاصطدام بها أو بي أو ببعضها البعض لزلاقة الطريق.. لكنها تمكنت من الهرب مندفعة إلى رصيف البحر قافزة من فوقه بسرعة فائقة.. وتفرج الخلق جميعا على عروس جميلة تندفع إلى شاطئ البحر الثائر ليلة زفافها يطاردها وحش بشري مجنون كاسر.. وقبل أن تلقى بنفسها بين الأمواج المتلاطمة سقطت على الرمال منهارة فاقدة الوعي.. وحملتها عائدا بها إلى الفندق غير واع بما يحيط بي من موجودات كونية.
استدعيت طبيب الفندق وطلبت أن يحقنها بمهدئ.. ارتجف جسدها عدة مرات متقطعة ثم غابت بعد ذلك في نوم عميق.. وكنت قد فقدت السيطرة على أنفاسي المتهدجة وروحي الخائرة، أما جسدي فلم أقو على إطفاء نيرانه الملتهبة رغم كل ما حدث.

ما أن خرج الطبيب حتى اندفعت في قلب الحريق لا لأطفئه بل لأحترق فيه وأتلظى في نعيمه وأكتوى بجمره حتى الموت.. أدخل المحرقة وأخرج منها أكثر التهابا فأعود إليها من جديد متعبدا في محرابها، مصهورا متفانيا في عشقها حتى الرمق الأخير.

ولما أفاقت مريم لم تسارع بستر جسدها في فزع واحتقار كما توقعت أو كما كان يجب أن يكون، وإنما رمقتني بنظرة مبهمة لم أفهم مغزاها حتى الآن، ثم شرعت في ارتداء ملابسها على مهل ولم تنطق حرفا واحدا.

***

عقب تلك الليلة وفيما يزيد على عام كامل عاشت مريم حالة من الاستسلام القدري العجيب لواقعها دون إبداء أي تذمر. كان إحساسي بالذنب تجاهها أصيلا طاغيا، تجذر في أعماقي رغم أنها لم تفاتحني مرة واحدة فيما حدث. بذلت لها كل ما بوسعي من عطاء، وكنت على اعتقاد راسخ بأنها تستحق ذلك..

1964

لم تمض أشهر قليلة – بعد أن أنجبت لي " بشارة " – حتى هبت على في عنف رياح صمت ثانية مازلت أجهل مصدرها حتى الآن. كانت تصاب بنوبات تشنجية خفيفة تعقبها حالة من الإغماء المؤقت كلما دعينا إلى حفل زفاف لحظة انصراف العروس مع زوجها.. لكنها كان تلح في كل مناسبة على زيارة العروس خلال شهر العسل وتذهب وحدها محملة بأفخم الهدايا والعطور والملابس للزوجين.

وأحيانا أجد جسدها يتحول إلى قطعة من الثلج ويزداد صمتها وانكماشها على نفسها – متحفزة كنمرة – ويكثر زهدها في الطعام، ثم تعود جمرة مشتعلة من جديد، لكنها تحرمني من الاستمتاع بنارها المقدسة. استمرت على هذه الحال قرابة أسابيع ثلاثة، كانت قد وصلت في نهايتها إلى ذروة الغضب العصبية لأتفه الأسباب حتى خشيت عليها من انهيار عصبي محتمل.

اصطحبتها إلى أكثر من عاصمة أوربية وأغدقت عليها من الهدايا والملابس والمجوهرات ما تشتهيه ملكة عسى أن تعود إلى حالتها الطبيعية التي ارتضتها لنفسها وارتضيتها أنا لي ولها كحالة ساكنة مستقرة، راضية من عطاء القدر بحياة تكاد تخلو من الحماس والقلق والانزعاج.. لكنها ظلت معي على برودتها وصمتها وزهدها.

1992

عموما فقد شكرت الرب على مرور الحياة ورضيت بما تمنحه لي مريم من قليل وما أمنحه لها من كثير، وكان من الضروري أن أدرب النفس على قتل شعوري بالمرارة من تلك الحياة الشبيهة بالموت، والتي أمضت مريم ما يقرب من ثلثها بالولايات المتحدة الأمريكية على فترات متقاربة أحيانا ومتباعدة أحيانا أخرى، كمبعوثة مرة، ومعارة مرة، ولحسابها الخاص مرة.. ولم يخطر ببالي يوما أن أمنعها من السفر، كما لم يخطر ببالها هي الأخرى أن تفكر في دعوتي لمصاحبتها ولو مرة واحدة.

***

ولكن ... يبدو أن هناك عاصفة ثالثة من الصمت سوف تجتاز حياتي هذه الأيام، وبعد مرور ثلاثين عاما على زواجنا.. وإن صحت نبوءتي فالله وحده هو الذي يعلم متى وكيف ستهدأ تلك العاصفة أو تنتهي إلى ما تنتهي إليه.. أما بواعثها ودوافعها فسوف تظل في صدر مريم حتى يوم البعث.

نظرات عينيها الشاردة الغامضة لا تختلف عن تلك النظرات التي عهدتها في العاصفتين السابقتين حين يصحبها زهد في الطعام أشبه بزهد النساك، فقليل من الماء وكسرة من الخبز وقطعة من الجبن قد تكفيها زادا طول النهار.

إذن فهناك ما تخفيه عني من أمر جلل طرأ فجأة على حياتها المتحوصلة في داخلها منذ تزوجتها – وهي في الثالثة والعشرين من عمرها – وكالمعتاد سوف تضيفه إلى مخزون أسرارها المجهولة المتراكمة في أغوار صدرها عبر السنين.

إن يقيني مطلق أنها لا تفكر لحظة في خيانتي أو الإضرار بإسمي وشرفي،لكنها لا تستطيع أن تتنفس إلا إذا التزمت الإخفاء والحرص والتكتم والصمت والحذر، لست أدري لماذا؟.. إنه طبعها الذي عهدته فيها منذ هبت العاصفة الأولى في ليلة العمر الكالحة.

***

(2)
سهل عامر

1962

لم يكن من العدل أن أصدر حكما جازما على مريم بالكبرياء والعنجهية المستترة مثلما حكم عليها معظم الزملاء وبصفة خاصة سمير زخاري الذي كان ينفر منها بشدة، رغم أنها لم تكن زميلة مباشرة له، ربما كانت مسكينة تعان من الانطوائية والتقوقع حول ذاتها، وتعجز عن التفاعل مع الواقع الخارجي، وإن نجحت في التعامل السطحي معه بشكل أو بآخر. كان جمالها ذا طابع فريد متميز يفضى على شخصها هالة من الحزن الشجي تشع من عينيها الساهمتين ووجنتيها الحمراوين وفمها الذي تجمع شفتاه بين الاكتناز والرقة وبين حمرة الورد وطزاجة الفاكهة، فتبدو كقديسة من عالم الملكوت تجذب من يقترب من فلكها المكهرب بسحر غامض دونه شتي المخاوف والمحاذير.

لهذا لم أصدق إطلاقا ما أشاعته إحدى الزميلات من أن الدكتور عبد الجليل صيام رئيس قسم الآثار يكثر من استدعائها إلى مكتبه، وأنها تظل جالسة عنده بالساعات أحيانا، ضاربا عرض الحائط بمسئولياته الجسيمة. ولقد صدق البعض الشائعة حين كانت مريم تنفرد عن بقية زملاء القسم بتقدير الامتياز في مادة الآثار بصفة دائمة. أما أنا فلم أصدق عن مريم أية شائعة، لست أدري لماذا، حتى بعد أن أقسم لي زميل آخر لها أنه رآها بعينيه قرب نهاية العام الدراسي الأخير تدخل مسكن الدكتور الصيفي الذي يمضي فيه شهرا من كل عام مختليا بأسطوانات الموسيقى الكلاسيك وزجاجات الويسكي بعيدا عن الكتب والأبحاث.

كنت أتألم لحالها وأقول إن للجمال الفادح ضريبة فادحة، وإن غيرة النساء من بعضهن كفيلة بإشعال جحيم من النيران بين قبيلة كاملة من الرجال.. حتى فوجئت بها يوما تطرق بابي في جرأة صامتة يستحيل تفسيرها للوهلة الأولى، فإن العام الدراسي 61/ 62 هو العام الأخير لنا في الجامعة وكلنا مشغول بمستقبله غارق في مذكراته وأحلامه وتطلعاته للمستقبل.

-اسمع يا سهل. أنا لا أعرف إلا أقصر الطرق.

وكأنني بصدد تاجرة تعقد معي صفقة عاجلة لبيع لحم بشرى، أفاجأ بها تواصل الحديث قائلة:

-يخيل إلى أني أحبك.

أهو كبر زائد متضخم بحاجة إلى من يذله ويقهره حتى تثوب إلى رشدها، أم أنه مرض نفسي يمكن أن تشفي منه بالعلاج؟!.. أم أنها جرأة تصل إلى درجة الشذوذ عن بنات قومها من فتيات الجامعة اللاتي تتمتع أكثرهن فجورا بحد أدني من الحياء يمنعها من ذلك؟

-أنا في الحقيقة لست أجد ما أقوله.. المسألة..

ارتبكت وتلعثمت فقاطعتني بنبرة استفزازية:

-المسألة هي اختلاف الديانة .. أليس كذلك؟

أي اختلاف هذا وأي تطابق أيتها المجنونة المثيرة لأعتي شياطين الرغبة!.. أجئت متفضلة على بمنحة لست أدركها لأنك تتخيلين أنك تحبينني، ثم تحسمين كل مشاكل الكون في خيالك المتورم بحيث لا يبقى إلا اختلاف الأديان؟!

-لم أقصد ذلك، ورغم اعتزازي بإسلامي فالحب لا دين له ولا وطن، إنما نحن مازلنا طلبة والطريق أمامنا حافل بالمجاهيل.. كما أن..

لم تدعنى أواصل الكلام، كنت أود أن أنبهها إلى أنها إنسانة محظوظة، فمن هم مثلي من المغامرين لا يتركون فرصة كهذه دون التهامها حتى الرمق الأخير.. البيت خال إلا منى وهو بيتى.. ومساحة حريتي واسعة للغاية، فأبى تاجر ميسور الحال يغدق على المال الوفير ولا يزورني إلا بعد أن يخطرني، ونجاحي الدائم يعفيه من أن يحمل همي، ولو أغلقت الباب علينا بالمفتاح لكانت النهاية المحتومة!

أردت أن أوضح لها خطورة ما تفعل وتقول ثم أصرفها بمعروف، لكنها قاطعتنى بعصبية مكبوتة:

-لا تكمل.. أنت أعجز من أن تحب من هي مثلي!
لم تسعفني ثمرة ما قرأت من كتب عن شخصية المرأة كي أفهم وأفسر وأحلل ما حدث من مريم. رغم ذلك فقد تعاملت معها باحترام كنت على ثقة من أنها تستحقه.
لقد استقر في ضميري في تلك اللحظات اللامعقولة أن مريم ليست في كامل وعيها لسبب أو لآخر، وأن هناك دوافع خفية غامضة أقوى بكثير من قدراتها الذهنية والوجدانية هي التي وضعتها في هذا الموضع العبثي.. وكان أغلب ظني أنها سوف تندم ندما شديدا حين تفيق إلى نفسها وتستعيد تصور ما حدث.
وكأننا كنا على اتفاق شفاهي وتحريري موثق بقسم كل منا بدينه ألا يذيع ذلك السر.. فما حاول أحدنا أن يشير للآخر ولو بنظرة موحية إلى ما حدث في تلك الليلة.. التقينا في أول محاضرة وكان جليا في نظراتها عرفانها بالجميل، لكنها لم تقل شيئا.
1964
أما مفاجأتها الثانية فقد نزلت على رأسي كالصاعقة. كان قد مضى على تخرجنا ما يزيد عن عام حيث استمرت إقامتي في نفس المنزل بعد استلامي العمل.
فتحت الباب لأجدها واقفة أمامي كتمثال لربة الجمال. ابتلعت دهشتي وقد تسمرت في مكاني أبادلها الصمت بصمت أقوى. لم تتكلم. دعوتها للدخول. جلست في انكسار شديد وقد تبدد كبرياؤها القديم فلم يعد له أثر.
لم تلبث أن انفجرت في بكاء يحرق القلب. تألمت بشدة لحالها وقد تضاعفت دهشتي وتأكد حسن ظني القديم بأنها ضعيفة تعسة بحاجة إلى فيض إنساني من الرحمة والتعاطف والمودة.
ربت على كتفها مغالبا هواجسي الشيطانية التي اشتعلت في جسدي لحظة تساقط دموعها الغزيرة على وجنتيها الباهتتين. جلست بجوارها أسألها في حنان:
- ما بك يا مريم؟
كنت أعرف أنها عينت كمعيدة بالكلية وأنها تزوجت بعد تخرجنا بعدة أسابيع، وأنها مرشحة للسفر في بعثة إلى أمريكا، لكني لم أكن أعرف أنها قد أصبحت أما لطفل لا يتجاوز عمره أشهرا قليلة.
-لم أعد أستطيع الصبر.
-على أي شيء؟
-على نفسي!

***

فكرت بعمق قبل أن أقول لها، وقد تخلصت من ذهولي الشديد لوقع المفاجأة على:
- أنا أعيد لك كرامتك المفقودة ولحظات السعادة المشتهاة!
-كيف؟
-الطب كفيل بالقسط الأول، وأنا كفيل بالباقي حال موافقتك.

***

عادت مريم عذراء من جديد وتواعدنا على اللقاء في اليوم التالي. ظللت طوال الليل أجتر وقائع اليوم في ذهول.. خاصة ما حدث في عيادة الطبيب الصديق.
يحيرني ذلك الكيان الإنساني الهزيل المخيف المسمى بالمرأة. إنها لم تغفر لوفيق اغتصابه المتكرر لها وهي في غيوبة المخدر، نسيت الفضيحة العارمة بكل أبعادها ولم تذكر إلا تلك الواقعة إذ استعصت على نسيانها تماما ، ولست أرى غرابة في ذلك فهو فعل يكاد يستعصى على الغفران، أما الغريب حقا فكان مواجهتها للمأساة بالصمت التام لأكثر من عام، ظلت تبكي فيه عذريتها التي سرقت منها دون أن تدري، وهي التي ظلت تصونها وترعاها انتظارا لليوم الموعود.. هذا ما قالته لي بنبرات جامدة كالموت.

قالت إنها لم تخض تجربة التحول من فتاة إلى سيدة رغم أنها أنجبت "بشارة".. لم تعش تلك اللحظات القدسية الحافلة بالرهبة والرغبة والنشوة، والتي تعيش كل فتاة على الحلم بها حتى تتحقق. لهذا كانت تزور صديقاتها المتزوجات حديثا فتسألهن بحرقة عن تفاصيل الليلة الأولى: ماذا حدث، وكيف كان شعورك، وهل كان رقيقا حنونا معك أم كان فظا غليظا؟!

.. توقف بها الزمن عند تلك اللحظة فانفصل الماضي عن الحاضر وأصبحت على وشك الجنون، لاستحالة قدرتها على استرداد ذلك الزمن المفقود.. أغلى أيام العمر.

- وهل أجبرك أحد على الزواج منه؟
- بل أنا الذي اخترته بكامل إرادتي وطبقا لمواصفاتي.
- فما السبب إذن في نفورك المفاجئ؟
- لن تصدقني مهما أقسمت لك بأني رأيت الشيطان متجسدا في وجهه وصوته وجسده ليلة الزفاف.. حينها أدركت بعد فوات الأوان أنني ارتكبت غلطة العمر وطمعت في تصحيحها على الفور.
- كيف وأنت تعلمين باستحالة الطلاق؟
- لعلمي بأني طمعت في المستحيل فقد اندفعت إلى البحر لأنهي حياتي بيدي.

لم أكن أتصور ألا يختلف مستوى تفكير معيدة جامعية عن تفكير قروية ساذجة فيما يتعلق بذلك الغشاء الجلدى الرقيق، وما يمثله عندهن من معان أعمق وأعقد بكثير مما أعرفه من أبعاد تاريخية ونفسانية وجسمانية وعاطفية فضلا عن فكرة الشرف.

كانت تزأر بالحديث في وحشية بالغة ودون توقف.. كائن آخر غير مريم التي عرفتها وعرفها الجميع.. وكلما أعادت ذكر الواقعة في سياق الحديث بدا التقزز الشديد على ملامحها، بل إنها تقيأت أكثر من مرة وهي تصف لحظة اكتشافها لما حدث، ومواجهتها لوفيق بعينيها دون كلمات وهو يلهث أمامها في تخاذل سعيد خائب، وجاءت في الموعد المحدد فاستقبلتها مهللا:

-أهلا.. آنسة مريم.

تفجرت ينابيع السعادة من عينيها لدي سماعها لقولي فألقت بنفسها على صدري. رحت أربت في حنان على ظهرها وأتحسس شعرها الكستنائي برقة دهشت لها من نفسي. أمسكت بيديها أقبل أظافرها وأطراف أناملها ورقبتها وباطن كفيها وظهرهما في طمأنينة صامتة، ورأيتها تذوب بين يدي كقطرة ندى، ثم تستحيل إلى نسمة ربيع هائمة تفوح برائحة الزهر، وكانت عيناها تنطقان بآيات السعادة والذهول في آن واحد، وكأنها لم تكن تتصور إن في الحياة متعة تعدلها تلك المتعة ونشوة كهذه التي تتفجر من أعماق القلب فيرتعش لها الجسد وينتفض وقد بعثت فيه الحياة لأول مرة.

عاشت معي مريم اللحظات التي تمنتها من عمرها واستردت مفقوداتها الغالية من الحياة، وكان امتنانها فوق قدرتها على التحمل حتى أنها انحنت لتقبل قدمي قبل أن تتركني أسيرا لسحرها الطاغي على موعد بلقاء في اليوم التالي.

***

بعد مرور ثلاثة أسابيع على علاقتنا استقبلتها يوما كعادتي مرددا العبارة التي تسعدها:

- أهلا مدام مريم.

انطلقت الضحكات من أعماقها في تحرر مطلق وهي تقبلني. كان وجهها زهرة حمراء تتفتح عشقا وحنانا. جاءت بحقيبة أفرغت محتوياتها من ملابس منزلية. ارتدت بعضا منها واستلقت في طمأنينة على مقعد وثير.. ثم انهارت باكية.. تعجبت لتحولها المفاجئ فسألتها:

- ما الذي حدث؟
- إني حزينة لما يحدث.
- لكنك تحبينني.
- لهذا أنا حزينة.

- **كيف؟**
- **أولا لأنك لا تحبني وإنما ترضيني وتستمتع بي، وثانيا لأن ما نفعله محرم.**

أطرقت برأسي عاجزا عن النطق بكلمة تليق بالموقف، حين فاجأتنى بقولها:

- **إني أكرهك كما لم أكره إنسانا من قبل.**

منذ أن عرفت هذه المرأة وأنا رهين مفاجآتها وتقلباتها الجنونية العارمة التي تختفي تحت وجه ملائكي حزين، وتستتر وراء عينين شاردتين ولسان لا يفصح إلا عن القليل. صرخت فيها قائلا:

- **ما هو المطلوب مني على وجه التحديد؟**

قالت في استسلام قدري عجيب.. وكانت نبراتها كسيرة:

- **لا شيء!**

ولم تلبث أن ارتدت ملابسها وانصرفت ولم أرها مرة أخرى.

***

(3)
جولييت مقار

1962

لست أدري هل أحمل نفسي وزر ما حدث أم ألقى به على القدر والمكتوب؟.. إن شعورا بالذنب قد تملكني منذ تلك الليلة الكابوسية السوداء، والتي أشكر ربي على أني لم أشهد وقائعها بعيني، إذ حدث ذلك كله عقب مغادرتي الفندق مع المدعوين مباشرة.

لم أكن أصدق أذني وأنا أستمع لمريم تقسم لي بكل المقدسات:

- **صدقيني يا أمي لقد كان أسود الوجه محمر العينين أشعث الشعر طويل الأنياب والحوافز، وكانت نظراته الجائعة المفترسة تزلزل كياني وتصيبني بالرعب والاشمئزاز والتبول اللاإرادي.**
- **أنا لا أستطيع أن أصدق أنك تتكلمين عن الدكتور وفيق هذا الرجل المتدين المثالي.**
- **بل إنه هو كما رأيته ليلة الزفاف رأي العين.**

***

حين تزوجت من عبد الشهيد كنت طفلة في الثانية عشرة من عمري. علمتني أمي أن أطيع زوجي في كل ما يطلبه مني لأن طاعة الزوج من طاعة الرب. كل ما أذكر عن تلك الليلة أنها انتهت بآلام شديدة جعلتني أرجوه ألا يقترب مني، لكنه عاملني برقة شديدة حتى استمالني إليه. كنت في البداية استجيب له كي أرضيه فقط، لكني لم أعرف لذة هذه العلاقة قبل مرور سنوات عديدة، حتى أنني أصبحت أسعى إليها بعد ذلك أكثر منه.

بعد أن أنجبت دانيال ومريم أصيب عبد الشهيد في حادث بالعمل أفقده تلك القدرة الإلهية المقدسة على سريان الحياة بين رجل وامرأة. استسلمت للمقادير وحاولت قدر استطاعتي أن أخفف عنه المصاب، لكنه منذ ليلة الحادث كف عن تدليل مريم وتحول إلى إنسان صامت لا يتكلم إلا في أقصى الضرورات.. أما رقته التي بدأ بها حياته معي فظلت تلازمه حتى فارقني إلى الرفيق الأعلى تاركا لي قرة عيني مريم ودانيال كأجمل ما تكون الذكرى وأعطرها.

***

ما أذهلني حقا هو التحول بين يوم وليلة من الرضا والقبول فجأة إلى السخط والاشمئزاز والخوف والتقزز والكراهية. حقا إن وفيق تنقصه الوسامة لكنه مقبول بوجه العموم، ورغم كل شيء فقد كان بوسعها أن ترفضه – كما سبق أن رفضت كثيرين غيره – دون معارضة مني.. لقد أمليت عليه شروطها كاملة فقبلها على الفور، قلت له:

- **لن أشترى لابنتي مقعدا واحدا.**

فأجاب بكل الرضا:

- **أثاث كل المنزل بكامله على نفقتى من أجل عينيها**

قالت له:

- **أريد عربة تحت يدي منذ الأسبوع الأول للزواج.**
- **غدا أسلمك مفاتيحها قبل أن نتزوج.**

قلت له بقدرة فائقة على المبالغة تصل إلى درجة الكذب السافر:

- **ابنتي عاشت مرفهة لا تطبخ ولا تكنس ولا تغسل.**
- **هذه الأصابع الحريرية لم تخلق للمعاناة وأنا كفيل بتدليلها أكثر مما تتصورين.**

قالت له:

- **سأستمر في عملي حتى أحال إلى التقاعد فأنا أعشق العمل.**
- **ولست أمانع فى ذلك**
- **وإن لم تعجبني الشقة فعليك بإيجاد شقة بديلة.**
- **الشقة جديرة بك مثلما أنك جديرة بها..انها قصر مصغر يطل على اجمل بقعة بشاطىء الاسكندرية**

وأخيرا قلت له وأنا على ثقة مما أقول:

- إن ابنتي تستحق كل خير فهي خام لا تعرف شيئا عن عالم الرجال رغم بقائها بالجامعة أربعة أعوام وسوف تكون عجينة طيعة بين يديك، فهنيئا لك يا دكتور وألف مبروك.

لقد اختارته مريم بكامل إرادتها.أكان يجدر بي أن ألفت نظرها إلى فارق السن بينهما؟.. وكيف ألفت نظرها إلى شيء لم ألتفت إليه أصلا، فالسنوات التسع عندي لم تكن لتشكل أية خطورة على مستقبل العلاقة بين امرأة وزوجها، بل إن هذا الفارق مستحب عند غالبية الناس، لأسباب أكدتها الفطرة والتجربة قبل أن تؤكدها أسباب النفس والجسم وفن المعاشرة.

أكان قبولها التام لوفيق بمثابة إغلاق ملف مجهول لقصة حب فاشلة أخفتها عني مريم وهي التي اعتادت الصمت والتكتم منذ طفولتها إلى اليوم، حتى على والدها الذي كان لا يكف عن تدليلها ومداعبتها وإجابتها إلى كل طلباتها؟ دانيال هو الوحيد الذي يتكلم معي ويحكي عن كل شيء حتى عن بعض الأفكار اللادينية الغربية التي كنت أرفضها بشدة.. إن مريم تحكي لي فقط ما تريد أن تصرح به، ولكني دائما ما أرى في عينيها الكثير مما تخفيه، وأنا أمها وصديقاتها الوحيدة في الدنيا كما يحلو لها دائما أن تقول.

متى تتكلمين يا مريم يا حبيبتي وتنفضين ما بصدرك؟!

***

(4)
حليم صادق

1990

رغم عشقي للبحر والنوارس والورد والرقص والكتب والغناء، ماتت أمي فجأة.. في ذلك الصباح كانت تدعو لي بالفلاح أما في المساء فكانوا يهيلون التراب على جسدها بلا رحمة لتختفي تحت الأرض إلى يوم الدين.

في لحظة ذهب السكر وجاء الصحو. راحت النشوة وحضرت الإفاقة، فعلمت أنها لو نشرت وأخبرتني بحقيقة الموت لما انتفعت بعيش ولا لذت بنوم. الآن ينكشف لحبيبتي ما لم يكن مكشوفا لها في الحياة التي جاءت بي إليها ثم فارقتني عنها ، وفي المرتين لم يكن لي خيار.

اليوم أطلقت أمي من السجن فأيقنت أن أنسى بها وطمأنينتي تحت جناحها وشغفي بروحها وغفلتي بالظن في بقائها كان جحيما من الشقاء فجره الفراق الحتمى.. يقول لها ملائكة الرحمة هنيئا طبت حية وطبت ميتة، ويفرشون لها فراشا من الجنة وقنديلا منها تستضئ بنوره حتى يوم البعث. عليك رحمة الله يا أمي فإنك لا تعلمين مبلغ حزني ، لعلمي بحزنك على غياب "بسمة" عنك في تلك اللحظات. إنها هناك.. محيطات وبحار وجبال وأنهار تباعد بينكما، مثلما أن بسمة لا تعلم هي الأخرى قدر مرارتي لعلمي بلوعتها حين يصلها النبأ في تلك القارة التي استقر بها زوجها الغنى، وكأن مصر قد خلت من كسرة خبز وقطعة جبن وكوب من الماء وكسوة من قماش وسقف للنوم.

***

لم تمض أيام قلائل حتى لحق بها أبي وكأنه مصر على تعقبها من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت.. ولأني لم أستوعب سرعة المفاجأة الثانية أو ربما لأني استوعبتها – والله أعلم – فإنني بدأت أزهد الفرحة بكل أهلي وأحبائي وحتى بميراثي من أبى، وكذا بسمعي وبصري وعضوي التناسلي الذي ظللت منشغلا به عمرا طويلا.

أوكلنا – أنا وبسمة – شقيقنا الأكبر "نزيه" بوثيقة رسمية ليتولى شئوننا المالية كاملة فاستولى على الميراث وباع بعض الممتلكات وأدعى أنه ينشئ مشروعا ضخما في إحدى البلاد العربية التي كان يعمل بها مدرسا تخرج على يديه ثلاثة أجيال من أبناء العرب العظماء، وأنه سينتقل بنا جميعا من حياة الإنسان العادي إلى حياة أخرى لم نحلم بها.. وهكذا هاجرت بسمة ولم أرها حتى اليوم، وبكيفية أخرى غاب نزيه ولم أره حتى اليوم، لكنه يختلف عن بسمة في أنه لم يفكر في مكاتبتي مرة أو في إرسال نفحة عابرة من نعيم الحياة الأخرى التي يرفل في خيرها الآن.. تلك الحياة التي قال إننا لم نحلم بها من قبل، ولقد صدق فعلا حتى أنه لم يفكر في رد مستحقاتي الأصلية من الميراث، وكنت أتعجب في سرى من فعلته الشنعاء فيمنعني الكبر من مطالبته بحقي وأترفع في إباء عن ذلك فكيف أتسول حقي من أخي؟

كنت أبعث بخواطري تلك إلى بسمة التي لم تكن تهتم مثلي بالمال، ولكنها كانت تبعث إليه برسائل قاسية جارحة تتهمه فيها بالبخل والطمع والاعتداء على حقوق الغير ولو كانوا إخوة.. غير أن هذا كله لم يحرك فيه ساكنا.. ومازلت حتى هذه اللحظة غير قادر على فهم الأسباب التي تدفع نزيه إلى اتخاذ مثل هذا الموقف وانتهاج مثل هذا السلوك.

عندما تكرر المشهد الترابي أمام عيني للمرة الثانية خلال أيام قليلة شعرت بغربة حقيقية في الحياة رغم حبي لزوجتي وأبنائي وإحساسي بأنهم يضفون عليها إحساسا عميقا بالأمان.. اليوم بات هذا الأمان مهددا فما يدريني أن يكون الدور على زوجتي للردم عليها في حفرة مشابهة بعد أيام أو ساعات قليلة؟.. لقد بات واضحا أمامي أن أى شيء في هذه الحياة غير قابل للثبات والبقاء مهما كان عنصره شريفا كريما، فهو عرضة للزوال بين يوم وليلة لسبب أو بلا سبب، ومما ضاعف من سيطرة إحساسي بتلك الغربة في حياتي، إحساس خفي بأني مغترب في وطني أيضا – وأكثر الناس غربة هم الغرباء في أوطانهم – لأن الغربة خارج

الوطن ميسور أمر القضاء عليها بالعودة وليكن ما يكون، أما الغربة داخل الوطن فهي تشعرني بأنه لا جدوى من مخالطة الناس والثقة بهم أو الاعتماد عليهم.

هكذا تملكني شعور جارف بالحنين إلى قوة مجهولة أقوى بكثير من قوة حب امرأتي وأولادي لي أو حبي لهم، قوة آنس إليها وتحتويني بحنانها الطاغي فأودعها سري ونجواي وتكون سكني الآمن أمانا أبديا لا خوف فيه. لكن ما زاد طينتي بلة هو طبيعة عملي ومصدر رزقي الوحيد، الذي أصابني بملل من نوع غريب تمتزج فيه الرتابة بالخوف من الحياة والموت معا. فحديثي اليومي المعاد للسواح عن تلك التوابيت وعن أصحابها الذين ماتوا من آلاف السنين.. فلاسفة وفنانون ومفكرون وعلماء راحوا في سبات نوم الزمن العميق منذ عهد سحيق، لا تبرر لقمة العيش محاولة بعثه كل يوم من جديد لمجموعة من خلق الله القادمين من آخر الدنيا ليعبروا فوق كلماتي إلى بلادهم مرة أخرى متحدثين بفخر عن حضارتهم القديمة والحديثة والتي لست أرى من مظاهرها الآن سوى البلطجة السياسية والاستعمار بأنواعه وسفك الدماء والسيطرة والعنف والعنصرية والتبجح والاستعلاء على مساكين الشرق.

والحق أني كنت في بداية الأمر منبهرا بوظيفتي وكان فكر الغرب وفلسفته وعلمه وفنه طاغيا على كياني حتى أن أبي كان يتعثر أحيانا في كتب اشتريتها ورصصتها فجأة في أي مكان.ثم تكرر الأمر في بيتي فامتلأت مكتبتي وغرفة نومي ومساحات أخرى من الصالة وغرفة الطعام بتلك الكلمات المرصوصة التي كنت ألتهمها بنهم مزمن منذ صباي وحتى عهد قريب.

ولقد فوجئت فيما بعد بنتائج غير سارة لذلك الانبهار الذي لم يقف عند حد. أولها أنني بلغت السابعة والأربعين دون أن أتمكن من تحقيق أمان مادي لمستقبل ابني وابنتي كما يقول ويفعل كل الناس. لم أحترف أو أمتهن عملا من أي نوع آخر كان كفيلا بسد تلك الثغرة الهامة، أقربه العمل مع أخي الهارب، أو حصولي – كحد أدنى – على حقي منه بأية وسيلة، كما لم أسافر في إعارة لإحدى البلاد العربية مثلما فعل الكثيرون من زملائي فعادوا مرتاحين من تلك المشكلة الأزلية: الاحتياج المادي!

فهل ألوم اليوم أبي على غرسه بذور القناعة والرضا في نفسي منذ طفولتي وحثي على ألا أعمل إلا في المجال الذي أحبه لأن الدنيا ليست كلها نقودا؟!

أما النتيجة الثانية التي لم أكن أشعر بها أبدا فهي اكتشافي التدريجي لجهلي الشديد بروح الحضارة الشرقية وتراثها الروحاني الهائل الذي أخذ يستولى على بشدة وكأنني وقعت فجأة على وسيلة معرفية جبارة للاستشفاء من انبهاري القديم بانبهار أكثر وأورع وأجمل.

قادتني المصادفة إلى كتاب عن العشق الإلهي فشدني إلى كتب عن التصوف، ووجدت نفسي أسبح في بحور العشق ومقامات الحب والوصل. حدث هذا كله بينما أمارس حياتي الرتيبة دون أدنى تغيير سواء في البيت أو المتحف.. أما قلبي فقد اكتشفت أنه كان صحراء جرداء مظلمة متعطشة إلى النور السماوي والحب الإلهي. كان جفافي الروحاني بحاجة إلى ماء مقدس يبلل روحي ويرطبها بذلك الندى المعطر الذي لا يعرفه إلا من كتب الله لهم السعادة الحقة في الدنيا والآخرة.

وهكذا تصورت أنني غريب بين خلقي فحلمت بالأنس في فناء المحبة الربانية. وأمسيت مجهولا عندهم فلا جاه ولا مال ولا حسب ولا نسب ولا سلطة ولا ثروة إلا في الوصل بجلال الله. وقلت بعد اجتيازي كل تلك الدروب وتعثري في كل هذا التراث وتأملي لكل ما حدث أن خلاصي الحقيقي في القرب من الله.

ومن الغريب أنني لجأت في تلك الأيام للقراءة كثيرا في كتب الجن بدافع مازال غامضا على حتى الآن، وأحمد الله أنني تحررت من هذا الأمر بعد إذ اكتفيت بالمعرفة اليقينية أن هناك كائنات أخرى غير مرئية خلقها الله تعيش بيننا ولا نراها، منها الطيب والخبيث ومنها المؤمن والكافر وكفى الله المؤمنين القتال.

ظللت لعامين متتاليين أقلب في أحوالي كما لو كنت متفرغا للفرجة على ذاتي، وكان بحثي عن وسيلة للقرب من الله هو بحث عن عالم يسوده العدل والجمال دون أن أزهد في دنيا

الأسباب كما فعل المتصوفة فمازلت أحب الدنيا وأرغب في معايشتها وملذاتها، ولا يخطر ببالي تحت أية حجة أن أتنصل من مسئولياتي بها.

ولقد آلمني خلال تلك الرحلة النورانية أن أرى أعضائي تتخاذل ووساوسي تزداد ولساني يتكاسل عن الكلام فأكاد ألمس بقلبي سر الأسرار وهو أن ما تلذذت به في حياتي فيما انصرم من عمري حين أتأمله اليوم ما هو إلا سراب، ويكاد يكون لا شيء بالمرة. وكيف بالله أتوق إلى العودة إليه ساعيا بنفسي إلى الألم بدلا من اللذة وإلى النقصان بدلا من الكمال؟!

أيقنت أنني في صحوة من العمر ينبغي التشبث بها دون خوف أو وجل، واللعنة على سيزيف وصخرته التي فلقوا بها أدمغتنا، فالقرآن يقول بعبثية الحياة من قبل أن يولد هؤلاء الفلاسفة المتحذلقون الذين نمجدهم ونسير في ركابهم.. من الذي قال: " لقد خلقنا الإنسان في كبد"؟ ومن الذي قال: " أعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما "؟!

إني أعيش أيام استنارة أقف فيها وأدرك وأتدرب على عناد نفسي وعلى الخضوع لصولة بديع السماوات والأرض وإرادته فأبرأ من حولي وقوتي – وهما الوهميان الهزيلان – إلى حوله وقوته وهو الحق القوى العزيز.

إني أنظر اليوم إلى " عايدة" وأسائل نفسي أين ذهب جمالها؟ لو كانت تملكه حقا لظل باقيا على وجهها وجسدها وتحت أجفانها وبريق عينيها. إن جمالها كان وديعة ربانية زمانية تحوى الحب والحنان واللذة والشهوة والرحمة والمودة، لكن زمن الإيداع قد ولي وبدأ صاحب الوديعة في استرداد حقه منها.. وبدأت عايدة في الفتور وفي زهد ما لم تك تزهد فيه يوما.. ورغم ذلك فإني مازلت أحبها، وأحب جمال الجميل صاحب الوديعة فيها، فمالي أخاف القرب منه ومالي أخجل من الإقدام عليه وهو الغفور الرحيم؟!

***

(5)
مريم عبد الشهيد

1992

البراكين الكامنة في صدري تبدأ فجأة في الانفجار بركانا يلي الآخر، مزلزلة أرضي وكياني. كيف أنتبه الآن فقط إلى أنني لم أحتفظ بصداقة حقيقية عميقة مع واحدة من بنات جنسي حتى الآن؟..

لا من أيام الطفولة أو الصبا، ولا من أيام الجامعة ولا بعدها!.. وبصفة خاصة بعد ليلة زفافي اللعينة.لقد حاولت – بلا حماس – مع بعض زميلاتي في العمل وجاراتي في السكن ولكني لم أوفق فآثرت الابتعاد والوحدة، والحق أنني لم أكن أشعر حينذاك بأنني خسرت شيئا هاما أو أنني أفتقد شيئا احتاج إليه. لم أشعر بالرغبة في تبادل الثرثرة معهن حول ما يتحدثن عنه من أمور تافهة عن الرجال والملابس والمأكولات والمجوهرات والمحلات والفضائح الزوجية وحرية المسلمين في الطلاق والزواج.

كن ينفرن من صمتي ويظنن بي الكبر والاستعلاء، أما الحقيقة فهي أني كنت عاجزة عن المشاركة أو غير راضية فيما يزيد عن حدها الأدنى.

ربما كانت الدكتورة نادية عبد السلام هي الاستثناء الأوحد في حياتي، والذي لم يدم رغم ذلك طويلا، كانت دميمة الوجه سوداء ذات شعر أجعد وجسد لا معالم لتشكيله، وكانت نظرات عينيها توحي بحزن عميق، لكني كنت أرى نورا صافيا يشع من هذا الحزن يسلب الروح وكأنه منبعث من ملك.. أما صوتها الحنون فكان يجذبني إليها فيتعلم لساني النطق وأتكلم.. حتى علمت بالنبأ الحزين:

- **نادية أشهرت إسلامها.**
- **ماذا؟ غير معقول.. لماذا؟**
- **لا أحد يعرف السبب.**
- **لا بد أنها جنت أو أحبت مسلما غرر بها.**
- **ومن ذا الذي يغرر بهذه العانس القبيحة الغبراء؟!**

اختفت فجأة من البيت والمستشفي والنادي فلم أعثر لها على أثر حتى توهمت أنها غادرت المدينة إلى غير رجعة، ولما فوجئت بها يوما في حديقة النادي تتهادى بزيها الإسلامي الفضفاض فكرت أن ألف حجابها حول عنقها وأظل أضغط عليه حتى أخلص منها ولكني لمت نفسي على ذلك الوازع الشيطاني واكتفيت بالغيظ منها والحقد عليها.

أقبلت على بابتسامة ساذجة ووجه بشوش، وما أن اقتربت مني حتى مدت يدها لمصافحتي فلم تنل مني غير نظرة احتقار وتركت يدها ممدودة في الهواء وواصلت سيري والندم يمزقني على ما فعلته بها دون وعي مني ودون رغبة صادقة في ذلك.

يا إلهي! هل أموت قبل أن يكون لي صديقة واحدة في هذه الحياة الدنيا أتكلم معها وتستمع إلى ونضحك أو نبكي معا على أي شيء؟! إن شهادة الدكتوراه المعلقة على الحائط لا تستطيع أن تكلمني أو تحبني!.. ليتني أتوصل يوما إلى الإحساس بالحب، ولو للحظات خاطفة.

1962

بثبات وقفت أمام باب شقة سهل عامر التي يعيش فيها وحده، خيل إلى إنني أحببته فجئت إليه مباشرة. لم أكن أبادله الحديث كثيرا كزميل بينما كانت البنات تتنافس على صحبته فهو من أوائل الدفعة كل عام وهو الثري الوسيم اللبق الذي يحبه الجميع، أو هكذا يظهرون له.. أما أنا فقد أردته لنفسي. لم أتردد لحظة في الضغط على الجرس ضغطتين متتاليتين. حين فتح الباب ووجدني واقفة أمامه في صمت كاد يسقط مغشيا عليه.

- **من؟.. مريم؟!**
- **هكذا أظن.**

تبخرت شجاعته الاجتماعية وضاعت لباقته وهو يتلعثم قائلا:

- خير.. كيف عرفت عنواني؟.. أهناك شيء في الـ..

قاطعته لأرحم نفسي وأرحمه.

- ألن أدخل؟
- تفضلي.. تفضلي.

سارع إلى إحدى الغرف وعاد مرتديا روبا فاخرا.

- أنا لا أصدق عيني.
- لماذا؟

أشار بيديه إشارات مرتبكة وارتسم التوتر على عضلات وجهه وكان القلق ينسكب في غزارة من عينيه الحائرتين، لكنه لم يستطع الكلام.

- اسمع يا سهل. أنا لا أعرف إلا أقصر الطرق.
- أعرف هذا فكل شيء عندك مختصر إلا جمالك.. لكن ما الخبر؟

أبهرتني بلاغة إطرائه الموحية بالكثير.

- يخيل إلى أني أحبك.

رغم أنه قد بدأ يتماسك إلا أنه ابتلع ريقه ثم ابتسم، ثم انفجر ضاحكا. لم يكن أمامي بديل عن مشاركته الضحك حتى لا أكون في موقف أدنى.

- هذا شرف لا أستحقه.
- بل تستحقه لو كنت تبادلني الحب.
- أنت تتكلمين عن الحب بصرامة الكلام عن معادلة رياضية.
- هل تحبني يا سهل؟
- حتى لو كنت أحبك فإن..
- هه؟!.. ماذا؟!!
- أكمل.. حتى لو كنت تحبني.. إيه؟!
- أنا في الحقيقة لست أجد ما أقوله.. المسألة..

قاطعته بغضب لا مبرر له:

- المسألة هي اختلاف الدين، أليس كذلك؟
- لم أقصد ذلك، ورغم اعتزازي بالإسلام فالحب لا دين له ولا وطن، وإنما نحن مازلنا طلبة..

قاطعته مرة ثانية ولكن بهدوء:

- لا تكمل.. أنت أعجز من أن تحب مثلي من النساء.

ولست أعرف لماذا كنت قاسية عليه متعجرفة معه بذلك الرد السخيف؟!

1962 – 1960

عشقني كل الرجال الذين التقيت بهم على وجه التقريب، لست أدرك كنه ذلك اللغز الكائن في تأثير نظراتي- التي لا أفهم مغزاها – عليهم. ذلك اللغز الذي يزيغ من أبصارهم ويسيل من لعابهم ويحولهم أمامي إلى أقزام ضعيفة، ولكني لم أبال بأحدهم.

لقد تلقيت الدرس الثاني على يد الدكتور عبد الجليل صيام حين قبل يدي بحرقة شديدة في مكتبه وقد انحنى بقامته المديدة وجسده الطويل العريض الشبيه بأبطال كمال الأجسام، متوسلا إلى في ذلة ما دونها ذلة أن أسمح له باحتضاني وتقبيلي!

تلك اللحظة أزالت هيبتي من عالم الرجال ونسفت مهابتهم في ضميرى. تبددت أوهام تلك الأساطير المبهرة عنهم والتي كانت تصورها لنا مراهقتنا ونحن مقبلات على ربيع العمر، في صور تسلب عقولنا وتستولي على قلوبنا وتثير احترامنا لهم وخوفنا منهم وحبنا لهم.

تبددت تلك الأوهام عندما فقدت احترامي لأستاذ وعالم كبير يضع على مكتبه مصحفا ضخما ويعلق على الحائط المقابل لمقعده لوحة عليها آية قرآنية شهيرة، ويحاول التغرير بفتاة في عمر ابنته أو أخته الصغرى، فأي الرجال جدير بالاحترام بعد ذلك؟!

لقد استمتعت بإذلال هذا الرجل بغير أن ينال مني شيئا، ورغم ذلك كنت أحصل على درجة الامتياز في كل عام. لكنه أفصح في العام النهائي عن نيته المبيتة عندما أيقن أنه لن يراني بعد ذلك إلى الأبد.. إذ أقسم لي إنه قادر على سحق حلمي بالعمل كمعيدة بالقسم بأن يسقطني في مادة واحدة على الأقل، وما أسهل هذا عليه..
هل كل الرجال هكذا؟.. ومن أين لي أن أدري؟!
في تلك الليلة ذهبت إلى مسكنه الصيفي في الموعد الذي ضربه والذي سوف أظل أذكره مدى حياتي وكان الثامنة من مساء يوم خميس.
في الطريق إليه فكرت مرة أن ألقى بنفسي تحت عربة مسرعة، ثم فكرت مرة أخرى في شراء سكين أخفيه في حقيبتي لأتخلص من حياته وأبقى على حياتي الشريفة البائسة بعد أن مرغ وفيق آدميتها في ترابه الدنس. فكرت أن أطعن سهل في قلب عبد الجليل مثلما طعنني زوجي في روحي.
السؤال الذي كان يطن في أذني حتى كاد أن يصمني: هل يفعل هذا الأستاذ مع الفتيات المسلمات ما يفعله معي أم أنه يستضعفني ويستغلني مستهينا بحولي وقوتى وكرامتي مكررا ما فعله بي وفيق ولكن بتنويعة جديدة فاجرة على نفس اللحن الحزين.
ما أن أبحت له بعضا من نفسي مع أقصى درجات التحرز والتحفظ، وأحط سبل الإذلال والإهانة، حتى خر ساجدا بين قدمي لاهثا كذئب جائع سقطت يمامة بين مخالبه. وحين أراد أن يتجاوز الحد الذي سمحت له به صفعته بأقصى ما لدي من قوة على وجهه فتراجع معتذرا وهو ينهنه كطفل غبي مذعور لا يعرف كيف يسيطر على نفسه.
هكذا أصبحت كما أردت: المعيدة الثانية بالقسم بعد الدكتورة مدينة المعيدة الأولى التي سبقتني بعام واحد.
1992
ها أنت يا حليم تأتي إلىّ اليوم لتفجر مأساتي الحقيقة المستترة خلف كل عذابات حياتي والتي لم استشعر بشاعتها إلا بعد أن رأيتك، وهي أنني سوف أموت حتما قبل أن أحب رجلا ويحبني!

***

(6)
حليم صادق

1992

ضربت بأغلى عامين من عمري- أمضيتها مجاهدا بروحي في القرب من مولاي- عرض الحائط، حين دفعني جرف الهوى الجامح، فألقيت بروحي في نهر مريم غير عابئ بما كان من أمري وما قد يكون.. ولم يبق لي من رحيق العامين الماضين ورصيدهما سوى التمسك بالصلاة.

هاتفني في برقة خاطفة بينما أقف على محطة التاسعة والأربعين. تناسيته في البداية فلم يغفل عني "وأنا الذي غفلت عن مولاي". تجاهلته فصار يباغتني قبل الشروق وبعد الغروب وآناء الليل حتى انتبهت إلى إلحاحه.. عندما اقتربت من نهاية المحطة كان يراودني في صحوى ومنامي وذهابي وإيابي وقيامي وقعودي وجلوسي ووقوفي وركوعي وسجودي إلى الله فيقول لي: مريم.. مريم.. مريم!

ظننته جاءني بالخلاص بعد طول ارتقاب، فإذا به يجيء بتساؤلات جديدة حول الجبال الرواسي والشمس التي تغرب في الغرب والقلب الذي يعشق حتى الرمق الأخير، والصديق الوفي، والزمن الذي يفوت ولا يعود، والذاكرة التي تنمو ثم تذبل جارفة معها أشلاء الأحباء والخصوم.

حدثني عن قنطرة صغيرة أعبر عليها من الرغبة إلى الراحة، وقال إني لم أكن من قبل شيئا مذكورا، وإنني سوف لا أدري بعد العبور ماذا سيكون من أمري وإلى أين سيكون اتجاهي. سألته المشورة فطالبني بالجهاد والمكابدة وبشرني بالسعادة الأبدية وقال لي:

-آن الأوان كي تتوقف وتفكر وتتأمل على أعتاب الراحة فربما كنت من الناجين.

***

كان اليوم كالأمس كالغد.. موظفون أراهم ولا أبصرهم، أقبع في غرفتي أجتر التكرار في رضا أحيانا وفي ثورة حبيسة أحيانا أخرى.. غير أن سماء نافذتي زرقاء تطل على مراكب صيد ونوارس تحلق في الأفق ورجال يسعون وموج يهيم في رحلة أزلية أبدية.. وحين يسود الصمت فلا صوت إلا وشوشات الموج وهسيس أغصان شجرة عتيقة تقع تحت نافذتي، ووصوصات عصافير تتناوب في رضاي وثورتي بين الفرحة والشجن.. أرى الأمس في اليوم في الغد فلا أبالي بزمني. أصلي بحرقة إلى الله لائذا بما تبقى لي من عطر العامين الماضيين الروحاني الجميل.. واقرأ الفاتحة على أرواح الموتى القابعين في جوار المتحف.. رهبان وقسس وكهان ونحاتون وفلاسفة ومتصوفون وعلماء فلك ورياضة كانوا ينيرون الدنيا يوما بفنونهم وعلومهم وآدابهم.. رفات عمره ثلاثة وعشرون قرنا من الزمان الغابر لا يجاورني فحسب وإنما يغمرني ويحويني وأحبه.

من بين الرفات وأمام السور الذي يفصل بين حديقة المبني وشارع البحر، لمحتها بين مجموعة من السياح ترتدي ثوبا في لون المصيص المصري. تشير بيدها في حركة رشيقة واثقة إلى أحد المقابر الملاصقة للمبني. توقفت قليلا عن الحديث واستندت في تلقائية بإحدى ساقيها على السور وراحت تعبث بهدوء في شعرها. وحين اقتربت من أسفل نافذتي العالية رأيته بعيني قلبي يرفرف من فوقها حاملا تحت جناحيه الرقيقين كنانتين حريريتين مليئتين بسهام من ذهب ورصاص. ثم حام قليلا فوق المقابر وحط فوق النافذة فصار في مواجهتي. فنظرت إليه في ذهول فأنا لست أعرف كيف أخاطب الملائكة ولا أفهم لغة الطيور. أدرك ما بي من هول فنفحني سهما ذهبيا ونظرة حنون، وغاب في زمنه السحيق.

الوجه المصري الخمري الذي لا ينسى. العينان العسليتان الذهبيتان .الشعر الكستنائي المتماوج.. ونفس الابتسامة الغائصة في لجة من الأسرار. الدكتورة مريم عبد الشهيد التي تكبرني الآن بما يقرب من أربعة أعوام.. شبيهة شقيقتي الحبيبة بسمة.. ومعيدتي التي درست لي الآثار لعامين متتالين قبل تخرجي في عام 1964.

لكن ما الذي جاء بها إلى هذا المكان وقد حسبت أنها أصبحت أستاذة في السلك الجامعي وأنها شغلت به منصبا مرموقا وقد تجاوزت الآن الخمسين.

كان العناق الأزلي بين الأمواج عبقا برائحة التاريخ، وكانت حديقة الموت تدعوني للتحقق من تلك المفاجأة. مازلت يا مريم مليكة على عرش الجمال الفرعوني الفريد. الزمن ألعوبة بين يديك وحدك والكل رفع له راية الاستسلام.. هي مريم ولا أحد سواها. تمشي في خيلاء أوزة برية. أسمع وقع خطواتها بقلب هش تتهادى على نغمات عود شجية بين المرمر المصري والرخام اليوناني وتماثيل الموتى وتوابيتهم.. أسافر إلى الدانوب وأعود إلى النيل في حلم خاطف. أجلس في مقهى شعبي أدخن المعسل. تتجه بنظراتها نحوى لنلتقي بعد فراق قدري بين طالب ومعيدته تجاوز من الزمان ربع قرن وبضع سنوات.

- بعد آخر عودة لي من أمريكا انتدبتني وزارة الثقافة للعمل كمرشدة سياحية بناء على طلبي، وأنت ماذا تفعل هنا؟

تعجبت كيف ارتضت لنفسها بهذه الوظيفة غير اللائقة بمقامها وعلمها ما لم يكن هناك دافع جوهري لذلك.

- أنا مدير المتحف.
- ياه.. بعد كل هذا العمر نلتقي لنعمل معا في مبنى واحد؟!
- المبنى واحد لكني أعمل مع الأموات وأنت تعملين مع الأحياء.
- لست أدري أينا ينبغي أن يحسد الآخر.. عموما فأنا قادمة لتوى من الكنيسة ولقد طلبت من الرب الخلاص للأحياء والأموات معا.
- ولماذا تركت الجامعة؟
- خلافات عديدة مع الرؤساء والزملاء.
- لماذا؟.. التنافس على الترقية أم البعثات؟
- وهناك أسباب أخرى.

كنت أوجزها لزملائي في القسم بالفتنة الغامضة، كل العيون تشتهيها في تكتم صاخب عنيف، ولولا صمتها الوقور ونظرتها الحزينة الحانية لأثارت القتال عليها بين جنس الرجال بلا تفرقة بين طلبة أو أساتذة أو سعاة.

كان سر قوتها الطاغية يكمن في عينيها، به تصمت فتتكلمان، وتهمس فتوحيان، وتومئ فتبتسمان، وتفكر فتشردان.. أما فمها الجميل فكان دائما مغلقا على لسانها كخرساء منذ مولدها.

كنت أتحاشي النظر إلى عينيها بقدر كراهيتي لكل ما هو غامض، ورغم ذلك لم أشعر تجاهها يوما برفض أو كراهية، كما لم أقع في كمين فتنتها الخفي الذي وقع فيه العديد من زملائي الطلبة وزملائها من المعيدين، وإنما كان يداخلني قدر من الإعجاب بشخصها على وجه العموم. وكنت واثقا أنها تستشعر بدقة متناهية ما يجول في خواطرنا جميعا تجاهها كأنثى ذات جمال متفرد في طبعه، وأنها كانت تخفي سعادتها الفائقة به في براعة ودهاء، وكأنما إعجاب الرجال بها – دون أن تمنح أحدهم أملا في اقتحام عالمها الصموت الغامض – هو الحافز الأوحد لبقائها على قيد الحياة.

ويوما قال لي زميلي سمير زخاري إنها تخفي غرورا قاتلا خلف ابتسامتها الحيية وتواضعها الشديد وعينيها الأسيانتين، فاتهمته بالحقد لانقطاع أمله في مجرد الاقتراب من عالم الجمال الذي يحف بكيانها ليبهر الجميع، وقلت له ساخرا:

- قصر ذيل يا أذعر.. مع أنكما من قبيلة واحدة.

ولم يكن هناك ما يدعو للاستفاضة من جانبي في الحديث عنها إذ كانت نظرتي الغالبة، هي نظرة التلميذ إلى معيدته، على عكس نظرتي الصريحة الودود تجاه معيدتنا الأخرى "مدينه محمود" التي يتسم سلوكها دوما بالوضوح والصدق وشدة الحياء.

***

رغم دهشتها للمفاجأة القدرية التي جمعتنا فقد أقلت – كعادتها التي لم يغيرها الزمن – من الحديث وأتقنت الاستماع والحوار بعينيها دون كلمات . أما الذي أدهشني بحق فهو أنها تذكرتني مثلما تذكرتها تماما دون لحظة تفكر أو تأمل أو استرجاع للزمن، وكأننا لم نفترق إلا منذ أيام قلائل.

لخصت لي عمرها الفائت في ابنها " بشارة " الذي تزوج وأنجب واستقر في القاهرة وقتيا، تمهيدا لهجرته النهائية إلى أمريكا.. وفي زوجها الدكتور وفيق، ذلك الطبيب الذي وهب حياته للخوف من المستقبل. امتدحت في خصاله كثيرا. قالت إنها تناديه قائلة يا "بابا"، فالشعور عنده بالرحمة الأبوية قوى، وهو لا يحرمها من شيء تطلبه، لكنه دائم الخوف أن تفارقه يوما لسبب من الأسباب وتبقى بأمريكا إلى الأبد، الأمر الذي يجعله يضاعف من تدليلها ومعاملتها معاملة الأب العطوف لصغرى بناته.

ثم قالت إنها ترتاح لهذا الأسلوب في الحياة لأنها لا تستطيع أن تحتمل منغصات العيش مع شاب تنقصه خبرة فن التعامل مع امرأة ذات مواصفات خاصة مثلها.

لم أسمع رنة غرور أو كبرياء في حديثها ولكنها كانت تتكلم عن أمر عادي جدا يخصها.. ثم قالت إنها في النهاية لم يبق أمامها من معالم الرحلة إلا الوظيفة التي تكرهها وتتمنى أن تتخلص منها، والكنيسة التي لا تزورها إلا قليلا والنشاط الاجتماعي المحدد الآخذ في الفتور، والزيارات التي لا تنقطع للأم – صديقتها الوحيدة في الحياة – وزيارات أخرى للابن صارت تتباعد بمرور السنوات.

لست أدري لماذا لم أصدق توصيفها الخامل لحياتها فأنا أعرف أنها شعلة من الحركة والطموح، ولكن لماذا تكذب إن صدق حدسى؟! لقد انتابتني رغبة عنيفة في أن أفرغ لها في هذا اللقاء الخاطف كل ما بجعبة حياتى من أفراح وأتراح رغم أنها لم تبد اهتماما مماثلا بالسؤال عن حياتي. كانت تتحدث وتستمع وتشعر وتفكر بعينيها المشعتين بقوة كالسحر تعبث بالزمن فأعجز عن قراءتها بالتقويم المسيحي أو الهجري أو العبري أو القبطي.

قرأت على كفها تعويذة فرعونية لجلب الحظ وتمنيت النجاة من قدرة عينيها على استنطاقي للبوح بما أريد وما لا أريد، وقرأت على صفحة الهالة الجميلة الداكنة تحت عينيها أن هناك بئرا عميقا يحوي أسرارا لا يباح بها قابعا خلف هاتين العينين الذهبيتين.

أعادني حياؤها الصامت المتقن إلى تلك الأيام الساحرة من العمر حين لم أكن أدري أن بلوغ قمم السعادة والمتعة والفرح لا بد أن يفضي في النهاية إلى الخوف من فواتها، وأن كل لذة مآلها الزوال، فالموت لها ولنا بالمرصاد.

- كنت أظن أنك لن تتذكريني بسهولة.
- مثلك لا ينسى يا حليم.
- لماذا؟
- لا أعرف.

كلمات مقتضية يستحيل إيجازها بأكثر مما أوجزتها مريم فلم تزد عليها. مجرد كلمات أفرزتها اللحظة. لكنها تطن في أذني بإلحاح عجيب قبل أن أتمكن من النوم.

قال لي الهاتف أنك في الطريق إلى الخمسين يا هذا.. والنبض قد بدأ في الخفوت والحرارة أخذت في الانخفاض، أما المشاعر فتجمدت وأصبح الحب الأوحد والموت قرينين مترادفين لا ينجح في الفصل بينهما شعور بالذنب أو اجتهاد في إصلاح ما أفسدته الأيام أو محاولة يائسة لاستنهاض خفقة قلب قديمة أو لقاء حب مسروق أو قبلة مراهقة خاطفة أو حتى تسلق نخلة واحتضان عناقيدها الفتية والعبث بثمارها مع الأنداد.

إني أدعى السعادة بأسرتي مثلما تدعى أسرتي السعادة بكوني ربها البار العطوف بالزوجة والأولاد.. يحيط بنا الحب والتفاهم ويضمنا ويحوينا.

رغم ذلك فقد ظللت أنتظر طلوع صباح اليوم التالي طيلة الليل بشوق ما ظننت أبدا أنني سوف أكابد حلو مرارته في العمر مرة ثانية.

وفي بحر الأحلام سألتني عروس البحر عن عشقي للرقص والشعر والصحبة والكأس والسهر، فخلعت عني نفسي لأغرق بإرادتي حتى أستنشق نسمة من عبير الحياة مرة أخري من جديد قبل أن تولى بلا عودة.

قالت لي العروس:

-أنت تريد أن تبدأ من حيث كان ينبغي أن تستعد في أمان للانتهاء.

كانت تقترب من السور في ثوب بلون النجيل وبصحبتها بعض من عمال البناء، ترتدي نظارة شمسية وتضع على شعرها منديلا أسود ذا حواش مطرزة. طال تأملي لها من النافذة واجتاحني شعور غريب وأيقنت أنني كنت أخشى ألا تحضر مثلما كنت أخشى أن أزوها في مكتبها، وحين توارت عن أنظاري ألم بي حزن عجيب، اقترن بطيف بسمة وقول زوجها" ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها".. وكان الجو غائما ودموعي تنهال في المطار الكئيب من قلبي وعيني ومن أنفي وفمي قبل أن تهاجر بسمة إلى أبعد قارات الدنيا.. ارتعشت قدماي وكنت واثقا أنني لن أراها مرة ثانية.

ولما عادت مريم سألتها عبر التليفون:

- **لماذا انصرفت مبكرا من الموقع؟**
- **كان لدي عمل بعمود السواري.**
- **كنت أفكر في دعوتك لتناول الشاي بمكتبي.**
- **صعب.**
- **لماذا؟**
- **ربما لظروف العمل أو أسلوب تفكير الموظفين.. لا أعرف ماذا أقول.**

كانت بسمة مقلة هي الأخرى في كلماتها، حتى الابتسامتان متشابهتان إلى حد كبير، وكأنما نفخ مفتاح الحياة في فم كل منهما في نفس اللحظة.

لكني لن أري بسمة ولن أنعم حتى بصمتها مرة أخرى.. ولماذا جاءت مريم بصمتها هي الأخرى لتجلس في الطابق الأرضي من نفس المبني لعامين أو ثلاثة من حياتي أو ربما لسبعة أعوام حتى تحال إلى التقاعد؟!

قال لي الهاتف: " إن حياتك بحاجة ماسة إلى من تعرف كيف تجلس على عرش قلبك وتتمطى في قلبه وتنام قريرة العين.. ويومها سوف تحظى بنعمة القلق الجميل"

***

(7)
عايدة فؤاد

1992

منذ وفاة أم حليم وأبيه في أسبوع واحد وغياب أخته وأخيه نهائيا عنه، بدأ يتحول إلى إنسان آخر غير ذلك الذي كنت أعرفه حتى عامين من قبل.

في تدرج سريع وجدته يستبدل بالخمر والموسيقى الكلاسيك والروايات والروايات العالمية وكتب الفلسفة، الذهاب إلى المسجد في أوقات الصلاة وغيرها، وقراءة مجلدات ضخمية للغزالي وابن عربي وجلال الدين الرومي وابن الفارض والتوحيدى والحلاج.

في بداية الأمر أدركني شعور بالخوف ممتزج بفرحة خفية لاتجاه زوجي إلى الله وانعكاس سكينته على وجهه وصوته وسلوكه معي ومع الأولاد. لقد أصبح أكثر وداعة وطيبة وحنانا، لكني كنت أراه في بعض الأوقات منقبض النفس رغم ما قد يبدو من انشراح صدره بسر خفي لا بد أنه توصل إليه ، لا بعقله الشديد الوعي ، وإنما بروحه الشديدة الشفافية.

اطمأن قلبي ولم تعد تهاجمني نوبات الغيرة القاتلة التي كانت تتعاقب على بين الحين والآخر كلما اشتممت رائحة علاقة نسائية جديدة تعبر حياته.. إن أكثر حبي لحليم هو فهم لطبيعته الشديدة النقاء، فهو لا يحب الكذب ولا يعرفه ولا يستطيع – حتى لو أراد – ممارسته في أي مجال يتسع لحركة حياته الاجتماعية أو في بيته الذي يحب كل ركن فيه وكل كائن يتحرك بين أرجائه، ولو كان صرصورا صغيرا.

كل امرأة عرفها غيرى عرفتها و توصلت إلى معرفة كيف التقى بها، وإلى أي حد وصلت العلاقة الخفية بينهما. إن حليم لم يخنى ولن يخونني ولو مرة واحدة مع أي من هؤلاء النساء. بل إني أجزم أنه لن يفكر في ذلك أبدا، غير أنه إنسان ملول شديد الضجر والقلق، يبحث في مثل تلك العلاقات العابرة عن أشياء غامضة يخفيها عني ربما لأنه لا يعرفها تماما، يتمنى من قلبه أن يصرح لي بها لولا خشيته أن أسيء فهمه فيجرح كرامتي. كنت أقدر فيه صدقه الشديد مع نفسه حين يخطئ. يقول لي في مثل تلك الأحوال إنه غير راض عن نفسه ويترك لي أن أستنتج ما أشاء. هو يخفي عني إذن لكنه لا يكذب على. هو يعرف غيري أحيانا لكنه لا يخونني أبدا، لأنه لا يستطيع ملامسة جسد امرأة لا يحبها وتحبه.

لقد امتنع منذ عامين تماما عن تلك العلاقات، بل إن مجاله الاجتماعي كاد يكون منحصرا في صداقات المسجد، وكلها جديدة. أما في العمل فإنه بطبعه لا يميل إلى الصراع من أجل منصب أو ترقية ولهذا لم يتقدم بخطوات سريعة نحو الدرجات القيادية العليا.

جاءني يوم وهو في غاية الدهشة والألم، يشكو بمرارة وحزن من أعز زملائه العاملين معه في الإدارة الثقافية التي يتبعها المتحف.لقد تأكد من دس الزميل وكذبه وخسته لأجل الحصول على ترقية يستحقها حليم ولا يعبأ بها ولا يسأل عنها فهكذا طبعه الغريب في تلك المسائل، والحوار معه حولها لا يفيد.

الذي فاجأني في الأمر أنه أنهار أمامي فجأة في البكاء كطفل صغير. وددت لو أسارع بوضع رأسه على صدري واحتضنه وأربت على ظهره حتى يهدأ، ولكني لم أكن في سرعة الفعل على مستوى قوة الشعور، حين سارع بوضع ظهر كفيه فوق المائدة مواصلا البكاء مم أثار ذهولي فقلت له:

- حليم صادق يبكي لأجل ترقية؟!.. هذه أكذوبة كبرى.
- أنا أبكي على أمي.. كراهية هذا الزميل ذكرتني بحبها فافتقدتها.
- رحمها الله، لم تنل إلا القليل من اهتمامك في حياتها.
- كانت طباعنا على النقيض وكنت أتخيل أحيانا رغم شدة حبي لها أنها إنسانة بلا قلب.
- لأنك رومانسي حالم وأمك لم تكن تزيد شيئا عن أية امرأة واقعية طحنتها تجارب الحياة.. وحبها لك كان عظيما ولكنك لم تعشه معها.
- لم أنتبه لذلك من قبل.

- وهل هناك رجل بحاجة إلى تنبيه من أحد كي يحب أمه أكثر ويهتم بها أكثر؟!

لم أجد وسيلة أخلصه بها من حالته سوى انتزاعه عنوة والانطلاق بالعربة إلى البحر.. هناك فاجأته بتصرف من تصرفاتي التي يعشقها بينما يصفها بالجنون وهو سعيد بها غاية السعادة.. إذ خلعت ملابسي وهو يحملق في ذاهلا حتى يكتشف من تحتها "المايوه".. وإذا بي أجرى إلى البحر ملقية بنفسي في مياهه الصافية، وضحكاتي تجلجل في الفضاء، ثم عدت مسرعة إليه أجره جرا بملابسه كاملة حتى كاد يتوسل إلى أن أدع له فرصة يخلع فيها ملابسه الخارجية أو حذاءه على الأقل، لأنه لم يستعد نهائيا لهذه المفاجأة.. لكني لم أعبأ به.. وبعد دقائق كان يحتضنني بين الأمواج الهادئة وهو يقهقه بسعادة من القلب ، وهو الذي كان يبكي بحرقة منذ قليل.. قال لي محاولا أن تتماسك أنفاسه:

- إني مازلت أعجب للتوافق الغريب الذي ظل يجمع حياة أبي بأمي مع أنهما كانا نقيضين في كل شيء.
- لا تعجب فعندي التفسير القاطع.
- ما هو؟
- التكامل بين الأب الحالم المطمئن بالتوكل على الله والأم الواقعية ابنة الحياة الدنيا، هو الذي أوجد هذا التوافق.
- يا لك من فلتة عبقرية في عالم النفوس البشرية.

وعدنا إلى البيت وقد تركنا على الشاطئ هما ثقيلا وفردة حذاء مفقودة ولحظات من الفرح الإنساني الذائب في وجد الوجود.

***

(8)
مريم عبد الشهيد

1992

ما أن رأيته حتى تذكرته على الفور.. حليم صادق، الطالب الوحيد الذي لم يتأثر يوما بموجاتي الجاذبة الطاردة التي تحيطني بهالة مكهربة من الرهبة والرغبة، تصعق كل من يجرؤ على الاقتراب. ما من طالب تحاورت معه إلا وقرأت في عينيه اهتزازا في ثقته بنفسه أمامي بصورة أو بأخرى. كان بعضهم يتصور أو يريدني أن أتصور أنه يعاملني معاملة الملائكة، وهو يعلم أنه غير صادق مع نفسه أو معي، لكنه لا يعرف البديل.. وكان البعض الآخر يتحاشاني إيثارا للسلامة من خطر غامض ليس له وجود إلا في ذهنه الضعيف.

أما الأساتذة فكانوا – بلا استثناء – يضمرون نحوي نفورا داخليا تستره ابتسامات المجاملة وتحيات الصباح. والحق أنني لم أكن أبادلهم في قراراتي نفس الشعور وإنما كنت محايدة تماما، بل إنني لم أكن أشعر في بعض الأحيان بوجودهم في القسم، فيما عدا الدكتور ميخائيل الذي كان لي بمثابة الأب الروحي، والذي كان يذكرني على الدوام بأبي الراحل حتى لحق به فجأة هو الآخر فلم يبق لي صديق.

لا أستطيع أن أنكر أن شيئا ما قد اهتز بداخلي حين رأيت حليم صادق للوهلة الأولى. وفي لمح البصر عبرت سنواتي الثلاث والخمسون أمام عيني.. الابنة الوحيدة المدللة التي تطلب فتجاب وتبتسم فيقهقه القمر، وتبكي فيخسف، وتنام فيسكن الليل، وتصحو فتشرق الشمس. الطالبة الوحيدة في قسم الآثار وقد أنشئ لأول مرة بكلية الآداب. أجمل جميلات الجامعة بغير اشتراك في مسابقة أو دخول في مناقشة معلنة أو خفية، ثم كانت مواصفاتي لشريك العمر محددة تحديدا قاطعا: أن يكون شكله مقبولا ومركزه الاجتماعي مرموقا وحالته المادية ميسرة تماما، ولا بد أن يكبرني في السن بعدة سنوات.. ذلك أنني أحب أن أبقى مدللة حتى نهاية العمر.

حين بلغت الثالثة والعشرين – أي عقب تخرجي مباشرة – انطبقت المواصفات على الدكتور وفيق جرجس الأستاذ المساعد بكلية الطب وكان عمره اثنين وثلاثين عاما ولديه عيادة خاصة.

يعيش معي منذ ثلث قرن من الزمان كزوج وأب، لكني لم أستطع كما لم أرغب في اكتساب صداقته، كما كان من المستحيل أن أحبه بعد ليلة الزفاف، فضلا عن انه كثير الكلام فيما لا يجدي ولا يفيد.

الحب حالة لم أعرفها في حياتي حتى اليوم لا مع رجل ولا مع امرأة، ومن الطبيعي أنه لم يتبق لي من العمر وقت لأعرفها وأتذوق ما يقال عن حلاوتها ومرارتها وعذوبتها.

وبقدر كراهيتي للأسئلة التي تحوم حول ذاتي كنت أترقب الأسئلة من حليم، وأضغط على نفسي فأجيب.. أحاول للمرة الأولى وربما الأخيرة في حياتي أن أغير من نفسي قبل فوات الوقت.

- **لماذا تركت الجامعة؟**
- **سألتني وأجبتك من قبل.**
- **لم أقنع بالإجابة. لا بد أن هناك سببا آخر.**
- **.....!!**
- **هل لي أن أعرفه؟**
- **قد أصارحك به يوما.**

1988

لن أنسى ما حييت ولن تنتزع قوة على الأرض غصته من قلبي: دانيال.. أخي الوحيد. قتله المجرمون الملتحون داخل صيدليته ونهبوا خزانته تحت راية الإسلام. كيف أذهب إلى جامعة تنتمي إلى هؤلاء القوم فأحاضرهم فيها وأبذل لهم العلم والمعرفة؟.. بعد ذلك مباشرة

كانت المكافأة أن تخطوني في ترقيتي للأستاذية ووضعوا بيني وبينها سدا قانونيا منيعا لسنوات عديدة، وكان هذا التخطي للمرة الثالثة.

قرأت الفرحة العارمة والشماتة الطاغية في عيون زملائي الأساتذة، وتساءلت أي وطن هذا الذي لا أستطيع الحصول فيه علي حقي دون أن أريق ماء وجهي أو أبذل آدميتي أو أترك الذئاب الجائعة تمرغ رءوسها القذرة في صدري؟.. دلني أيها الرب ماذا أفعل حتى لا أهزم أمام هؤلاء الظالمين، أو دعني أتصرف حسبما أشاء.

حطمت السد وخرقت القانون الذي وضعوه في نصف ساعة على فراش " حسن شحته" الكلب الذي كان القرار بيده. تحملت ضغط كرشه الثقيل يسحق كياني ويفتته في الظلام، ثم جريت إلى الحمام كي أتقيأ ولكن دون أن تسقط من عيني دمعة واحدة.

لم تغلق جفوني طوال الليل. كانت أشواك صدره العريض المشعر تشك صدري كإبر حادة ساخنة لدرجة الاحمرار وكان جسده المربع كجسد خنزير نتن الرائحة يقبع فوق جسدي ويمزقه بشراسة من لم يضاجع امرأة متحضرة في حياته.. كان لعابه يسيل على وجهي وأنفاسه الكريهة اللاهثة تتلاحق في تتابع محموم. لكن ما آلمني حقا وسوف يظل يؤلمني مدى الحياة هو أنني في اللحظات الأخيرة انصهرت في نيرانه بعنف تجاوز عنفه وأنا أنعته بأبشع السباب تنفسيا ضعيفا عن شعوري بالإذلال والمهانة والظلم والقهر.

في صباح اليوم التالي حصلت على الأستاذية مصحوبة بقرار بالموافقة على سفري في بعثة جديدة إلى أمريكا للمرة الرابعة.

***

أيها الرجل الغريب.. ابتعد عني ودعني أعيش بقية أيام عمري في سلام.

***

(9)
جولييت مقار

1988

يا حبيبي.. كنت تقول لي إن الأقباط وقفوا مع إخوانهم المسلمين ضد الغزاة المسيحيين على مدى التاريخ.. وأيام سعد زغلول كان الأقباط يقفون مع المسلمين يدا واحد ضد المحتلين الإنجليز المسيحيين.. ترى ألهذا قتلوك يا ولدي؟.. لا لن يكون صبري على فراقك أعظم من شكري لإعطائي الرب إياك.. وماذا بيدي أن أصنع وقد استرد مني وديعته؟

يا دانيال.. ألم تكن أنت الذي تستشهد بآياتهم القرآنية القائلة: "لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصاري "، لتدلل على أن النصاري ليسوا مشركين من آيات قرآنهم نفسه؟!.. ترى ألهذا قتلوك لأنهم رأوا فيك مشركا؟!

يا بركة الرب أسكني قبره. للمسيح أودعته. ترك العالم ليربح المسيح أعظم نصيب. عزائي في الفردوس يا بني وليس في شيء آخر. لا تخف من ظلمة القبر فالمسيح سوف ينيرها لك فأنت شهيد الغدر والتخلف. إني مازلت أري وجهك الحبيب على وجه كل شاب قبطي أراه عابرا الطريق، وتلك مرارة لم أذقها قبل اغتيالك الخسيس، ولم أعرف لها معنى،فقد كان الشاب في عيني – من قبل – شابا لا يعنيني إلى أية دار عبادة يتجه أو إلى أي دين ينتمي.

في أسيوط وأنا طفلة رأيت صبيا مسلما يصيح بأبي في تلقائية:

- أشمل.

فغير أبي اتجاهه إلى اليسار امتثالا لدعابة الصبي. ولما سألته عن القصة أخبرني أنها ليست دعابة، فاليمين للمسلم والشمال للنصراني.. بل إن من حق المسلم إن ينزله عن حماره لو مر به أمامه فيترجل بجوار الحمار حتى يبتعد ثم يعود فيركبه.. كنت تضحك يا دانيال حين كنت أروى لك تلك الذكريات وتقول لي بوداعة اليمام:

- هذا كان أيام زمان. الدنيا تغيرت اليوم يا أمي.
- نعم.. إنها تغيرت.. ولهذا قتلوك.

وداعا يا بني حتى ألحق بروحك الطاهرة في الأمجاد السماوية. استوطنت عند الرب فاذكرنا أنا ومريم وروح عبد الشهيد بالعرش وصل لأجلنا فنحن في مسيس الحاجة إلى صلواتك المباركة.

في شرخ صباك في شروق عمرك في تفتح زهر قلبك خطفوك مني فما عدت أصلح للعيش.. وهل تصلح الأبدان بغير قلوب؟

- تعالى يا مريم.. واكتبي ما أمليه عليك.
- ماذا أكتب يا أمي ولمن؟
- اكتبي لولى أمرنا في الأرض التي نفترشها.. اكتبي لرئيس الجمهورية.
- وبماذا تفيد الكتابة؟
- أريد أن أحذره بشدة فقد تتحول مصر إلى لبنان ثانية.
- الرجل حزين مثلنا يا أمي وبعث بأكثر من مندوب للعزاء، وقداسة البابا نفسه شرفنا بحضوره.
- ولكن لا بد أن نفعل شيئا.
- أسمعى يا أمي.. أريد أن أسألك سؤالا محددا.. هل تكرهين المسلمين؟
- أقسم بالسيد المسيح أنني لم أكرههم إلا بعد أن قتلوا وحيدي.
- وكيف كان شعورك ناحيتهم قبل مقتله؟
- لا أكثر من المعاملة الدنيوية بمشاعر محايدة.. وحتى إن احتوتها بعض الغيرة فإنها لم تعرف الحقد أبدا.
- يا أمي أنت تختلفين كثيرا عن دانيال، وأنا أختلف عنكما معا، لكنك لا تعرفين كيف تعبرين عن حقيقة مشاعرك.
- هل ستفعلين شيئا لأجل دانيال؟
- أعدك يا أمي.
- وارتمت كل منا على صدر الأخرى.

***

(10)
حليم صادق

1992

حين تمكنت من النوم رأيت مريم قد عادت إلى الجامعة مرة أخرى وتركت المتحف، ورأيت نفسي أجوب شوارع الإسكندرية منذ ثلاثة وعشرين يوما، باحثا بين تماثيلها وقصورها وحماماتها ومكتباتها وحدائقها ومعابدها عن مريم. كانت الميادين خالية من الفرق الموسيقية ولم أر عصافير تغني على الأشجار.. وبينما أطوي الطريق المظلم مسترشدا بهمسات الليل العاشقة أتاني الهاتف في نوبة من نوباته المتعاقبة، وكان إشفاق ربة القمر على عظيما حين أنذرتني بالويل لأنني لم أكن اعرف ماذا أريد أو إلى أين أذهب، ولماذا أبحث عن مريم بهذه الحرقة.

في قلب النوبة كنت آمونيا فصرت آتونيا ثم عدت آمونيا فصرت مسيحيا ثم أسلمت، وكنت هيروغليفيا فتحولت إلى قبطي فعربي، ويعلم الله ماذا ستكون لغتي بعد مئات السنين، فالغزو غير ديني ولغتي، والزمن يغير الغزو،والقلب يغيره الزمن وسبحان مقلب القلوب.

في الصباح وقفت خلف نافذتي متحررا من رغبتي في تسلق النخلة الطويلة ذات العناقيد المثمرة، ومن تغير لغتي وديني عدة مرات، هامت من حولي أرواح الموتى من مختلف الأزمنة والأمكنة والملل والنحل، وكأنما أصبحت فى مأمن من صيحات الهاتف وهمساته، أنتظر ظهور مريم لألوح لها بيدي فترد التحية باتزان لا يخلو من دهشة، وعندما تعود إلى مكتبها أتعلل بالأسباب كي أتبادل معها حديثا تليفونيا يبدو عابرا غير مقصود لذاته.

في صوتها بحة حنان ونبرة شهامة، نبرات لم تألفها أذني في مخلوق من قبل.. توحي بالحياد، فلا هي ممتنة لتكرار اتصالي بها ولاهي رافضة، وهي لا توحي بآية واحدة من آيات الفضول لمعرفة سر اهتمامي بها.

دهشت من نفسي وكنت أحسب أنني فقدت القدرة على الدهشة، فاعترتني لحظة سعادة مباغته مكنتني من الثورة على طمأنينتي المستكينة، فانتفض القلب وتغني بنشيد الفرحة. لكنها لم تكن كشأن معظم الثورات صاخبة عنيفة حمراء، وإنما هي ثورة متسللة هادئة بطيئة وعميقة.. تعزف عليها روحى أنغاما جديدة ترق وتسمو وتتواثب في صعود وهبوط وقد غمرها النور بنفحات علوية مبهرة.

عندما أتاني صوتها تنبهت إلى أن الساعة تقترب من موعد انتهاء يوم العمل الممل.. ولأول مرة تطلبني على التليفون.

- لماذا لم نسمع صوتك منذ أيام عديدة؟
- دكتورة مريم؟
- هل نسيت صوتي؟
- يبدو متغيرا.. هل أصبت بالإنفلونزا؟
- فعلا.
- أصبح صوتك ساحرا بازدياد بحّته قوة.
- أنت غريب.. أيعجبك هذا الصوت المشوه؟
- التشويه في الفن هو سر الجمال الحقيقي.

نسمة كالأمنية رفت في قلبي فعاد بنبضاته إلى برعم تتفتح أوراقه للمرة الأولى، فما انجذابي وما أنغامي وما قلقي إن لم يكونوا آيات الخوف من ارتجاف القلب بين أصابع الزمن؟!

إلى هنا وقد وصلت إلى حد من الحيرة يدفعني إلى البحث عمن ألقى عليه بما ينوء به صدري، علني أكون واهما اختلطت عليه ملالة الواقع بجلال الحلم، ولم أجد غير سمير زخاري والدكتورة مدينة كي أكتب لهما في مهجرهما بأمريكا عن ذلك الصليل الذي يطن في أذني ليل نهار منذرا بوقوعي في بئر ليس له قرار.. بل إن هناك صليل إنذار يجلجل صداه الآن في أرجاء البلاد الطيبة التي لم تعرف الغدر والجبن في طباع أبنائها. هاهم يمزقون جسد الدكتور فرج

فودة برشاشاتهم أمام باب مكتبة وعلى مرأى من ابنه الصغير لأنه تجرأ فطالب الدولة بإصدار قانون لمحاربة الإرهاب، ولأنه عارض بقلمه ما يدعون إليه من أفكار مبهمة وشعارات مجردة يستترون وراءها ليقفزوا إلى كرسي السلطة. يقتلون الرجل الذي يرفض الخلط بين الإسلام وتاريخ المسلمين فسيتنكر بالمنطق العقلاني أن يحتسب مجون الخليفة الإسلامي الوليد بن يزيد الأموي وفسقه وفجوره على الإسلام، بينما يمجدون آخر يقول إن الإسلام يحرم المودة بين المسلم والمسيحي.

ويعترف القاتل بأن التعليمات العليا بإباحة دم الدكتور فرج فودة صادرة من الدكتور عمر عبد الرحمن زعيم تنظيم الجهاد الذي أقام بعد ذلك في أمريكا معززا مكرما، ويصرح بأن الدكتور فرج فودة عميل للمسيحيين لأنه يرفع شعار: الله أكبر، الله محبة، ويقبض منهم راتبا شهريا وينفذ سياسة أمريكا.. ولما سئل عن هذه السياسة ومضمونها أجاب:

- **لست أعرف.**

ونقرأ كل يوم في جرائدنا أن أكثر من دولة عربية – لا أوربية ولا أمريكية – تؤوى هذه الجماعات وتدعم معسكراتهم التدريبية على القتل وسفك دماء المدنيين الأبرياء.

***

(11)
سمير زخاري

1992

يتمتع معظمنا نحن الأقباط بسلبية لا نظير لها في بلادنا. نتقوقع على أنفسنا دون أن ننتزع حقنا المشروع في المشاركة الإيجابية بإدارة شئون الحياة، متعللين بأننا أقلية مضطهدون ونحن أصل مصر من قبل أن نرحب بغزو العرب المسلمين لينقذونا من عذاب الوثنيين الرومان. إننا متواجدون: فقراء وأغنياء جهلة ومتعلمين، في مصر مع المسلمين في كل زمان ومكان، والأنف القبطي لا يختلف عن الأنف المسلم وكذلك مؤخرات نساء المسلمين والأقباط.. وفي النهاية نهاجر بحثا عن المال ثم نبكي مصر في الخارج ونكتشف أننا نحبها وأن روحها تسري في دمائنا بعد أن نكون قد بلغنا سن ارتقاب الموت.

هأنذا أجتر آلامي على زورق بخاري كبير في رحلة بحرية بنهر المسيسيبي وقد تجرعت الآن ما يقرب من ثلثي زجاجة الويسكي، بعد أن علمت من رسالة صديقي المعتوه حليم صادق أن الارهابيين المصريين قتلوا صديقى وزميلي في الدراسة الثانوية فرج فودة ليلة وقفة عيد الأضحى وأنهم يواصلون حملات القتل ضد الأقباط أحيانا وضد الأقباط والمسلمين أحيانا أخرى بلا تفرقة.

أتجرع الخمر على نهر المسيسيبي والقلب يبكي على فراق النيل الحبيب، وحين عدت لأراه مرة وأشرب من مائه الريان وجدته يتجرع غصة النكسة ويفيض على أرض الوادي بالحزن والمرارة والأسى. لكني كنت واثقا أن أيام حزن لن تطول فأنا أعرف وطني جيدا.. سنوات قليلة يا حليم وأبعث إليك برقية تهنئة بعودة جيشنا إلى سيناء وانتزاعها من أصحاب البروتوكولات الدنيئة.

لم أمكث سوى أيام قليلة صرت من بعدها أكثر ضياعا وألما وندما على حياة فرطت فيها دون أن أدري، وكأنني ما قدمت إلى مصر إلا لأقول لمعارفي وأحبائي هأنذا سمير زخاري قد تمكنت في أمريكا من النجاح والثراء، وعلمت أولادي في أرقى مدارس العالم وجامعاتها ثم أعود لأعيش مغمورا من جديد بين الأمريكيين غريبا عليهم مغتربا عنهم، فماذا كسبت من وراء علم بني وطني بذلك، ومن منهم سيذكرني بعد صعودي سلم الطائرة العائدة إلى المهجر، ومن منهم سوف يهتم ولو قليلا بانتصاراتي المزعومة التي لا تهم أحدا في هذا الكون؟!

لقد بلغ شعوري بالبؤس والضياع ذروته حين اصطحبت امرأة لا أعرفها إلى أحد فنادق القاهرة وأمضيت معها ليلة عابثة عسى أن تعرف البهجة طريقها إلى قلبي على أرض الوطن، فما جنيت غير الألم والندم والحرمان.

عرفت فيما بعد معنى أن يسرق مني كل هذا العمر دون أن تبادلني الحب امرأة لشخصي لا لأني أعيش معها كزوج وأب لأبنائها. كل ما حصدته من سنواتي مجرد آلاف من الدولارات. أوراق خضراء مطبوعة.. ظظ!.. كنت أتمنى أن أحسد حليم على ذلك الفيض المتدفق من العاطفة تجاه امرأة، ولكن صدمتي في خيبته وجنونه كانت شديد حين فوجئت بأنه ترك نساء الدنيا بأسرها من مسلمات ومسيحيات ويهوديات وأحب من بينهن تلك الشمطاء الخبيثة التي مازلت أذكر نظراتها الثعلبية الملتوية منذ أيام الجامعة في غير ارتياح.

إن القاعدة الجوهرية – عندي – لانحراف رجل متزوج وهو يطرق أبواب عقده الخامس تقوم دائما على علاقة بامرأة صغيرة السن بزعم تجديد الشباب والحيوية والتخلص من ملالة الحياة الأسرية الرتيبة وقيودها الجهنمية، وما شابه ذلك من تبريرات مكررة للفسق، لكن يبدو أنه مازال أسير عقدة أوديب إذ يفضل مريم على نساء العالمين وقد بلغت من العمر أرذله، وإذا بنبوءتي تصدق، وبدلا من أن ينعم بفردوس الشباب ويرتوى من رحيق زهره النضير، فإنه يلقى بنفسه في بئر عميق جاف تجوس فيه العقارب والأفاعي، وقد يكون أسير عقدة أخرى لا أعرفها من تلك التي غالبا ما تنتهي بكلمة "مانيا" أو "فوبيا" أو ما شابه ذلك من مصطلحات لم أعد أذكرها.

المهم أنه مريض نفسيا بلا جدال، وإلا ما انجذب إلى تلك المرأة الجدباء انجذاب المسحور وقد سلبته حوله وقوته.. وإن لم يكن به مرض نفسي فمن المؤكد أن به شيئا غير طبيعي في مكنوناته الذهنية والوجدانية. إني أتخيله الآن وقد انفرد بمحبوبته العجوز المتصابية الغارقة في العطور والأصباغ في عش الغرام السعيد ليمارس معها الحب فتفلت مني الضحكات وينسكب الخمر على صدري.. جلد غليظ مكرمش – تفحصته جيدا خلال لقائنا الأخير في أمريكا – وشعر عجوز نابت في مواقع مميزة كالذقن وداخل الأذن وفوق أرنبة الأنف والشفة العليا.. وباروكة شعر كستنائية باهظة السعر اشترتها أمامي من أمريكا ووضعتها على رأسها بعد أن حلقت شعرها حتى منبته على الجلد.. يحسبها الرجال السذج من أمثاله شعرا طبيعيا تكتب عنه الأشعار وتتغنى بكستنائيته ونعومته وتموجاته الكلمات العاشقة.. هذا إن اقتصر خيالي على الوجه، ناهيك عن الثنيات الجلدية والعروق النافرة والعظام البارزة والساقين المشعرتين، عليك اللعنة أيها المخبول، فرغم خيالي الواسع وحزني السعيد العائم على أمواج المسيسيبي الساكنة بفعل ما احتسيته من خمر، إلا أنني لا أستطيع أن أتصور كيف يمكن أن تمنحك تلك المرأة مهزلة الحب فعلا أو قولا.. لا شك أنك جننت.. حتى صوتها أيها الغبي.. ماذا تحب فيه وكيف تستسيغ سماع أسطوانة مشروخة دون أن تتأذى أذناك؟.. ألم يلفت نظرك أنه صوت رجل أدمن الحشيش منذ ثلاثة عقود على الأقل؟!

لا بد أنك عميت إذ لم تر تلك الغلظة الشديدة في رقبتها وقد رسمت عليها الخلايا الجلدية العتيقة مربعات ومستطيلات بارزة الحدود والمنحنيات، تتخلل خيوط العرق ثناياها الداكنة التي لم تطلها المساحيق.. ألم تر اللغد السميك المتدلي في غباء بين تفاحة آدم وأسفل فكها الذكورى العريض؟!..

.. وتحبها يا حليم؟!..

لقد أنهيت الزجاجة بكاملها ولم يعد بوسعي أن أفكر فيك أو في حبيبتك الشمطاء أيها المجنون، ولسوف أكتب إليك بعد عودتي إلى المنزل عندما أعود إلى كامل وعيي.

***

(12)
حليم صادق

1992

تألمت كثيرا بعد قراءتي لرسالة سمير. إنه مسكين أمضي عمره في ظلمات المادة فلم يعرف أنوار الروح.. أما رسالته فلن أقرأها مرة ثانية.

غابت مريم مع فوج دبلوماسي في زيارة أثرية. كانت حديقة الموتى خالية إلا من الحارس الكسول، وتلبدت السماء بغيوم حزينة. أمسكت بكتاب للدكتورة مدينة أغوص فيه هربا من الغوص في نفسي. تفكرت في كلماتها المكررة عن " جمود الفكر العربي والتصاقه بالثوابت وعجزه عن مسايرة المتغيرات العالمية وخلطه بين المطلق والنسبي أو القلب والعقل أوالدين والسياسة".. فقلت مالي بهذا كله والسيل قادم أمام عيني أراه وأسمع صوت هديره المخيف. ولما اعتادت قدماي زيارة الطبيب بدأت أفكر في الموت، ولكني لم أبال به.

السيل قادم أراه وأسمع هديره ولا أفكر في الهروب منه، بل أفكر في الاستسلام له. ولما نظرت إلى عضلاتي وجدتها آخذة في الانكماش والتراخي بلا خط مأمول للرجعة، ولما فتحت فمي وجدت عددا من الأضراس قد نزع وترك مكانه خاليا لوظيفة ثقافية لم تعد تعني عندي شيئا – في مجتمع لا يعبأ بها- إذا ما قيست بطموحاتي القديمة وأحلامي الراحلة.

لما جاءت مريم خرجت من خلوتي ودخلت في نفسي فوجدتني في بئر عميق بإرادتي ثم رحت أحلم بحبل يلقيه إليّ أحد السيارة حتى أعود إلى زوجتي عايدة. في البئر كان نبيذ معتق. تجرعت منه حتى الثمالة واستغفرت الله متأملا الحكمة من زواجي المبكر بفتاة تكبرني بعامين فلم أهتد إلى شيء، لكني استمعت إلى نشيد تغنيه مريم خارج البئر " أخبرني يا من

تحبه نفسي أين ترعى، أين تربض عند الظهيرة".. وتعجبت مما سمعت وناديتها فلم تسمعني فتعجبت ثانية لأنها كانت تراني، ولكن بم يفيد العجب وكل شيء على هذه الأرض قابل للاعتياد مهما بدأ في أوله مبهرا أو لا معقولا.

1970

بعد التخرج حذرني عمى جبريل من الزواج بعايدة وقد أشفق على من شدة هيامي بها. قال إنني حين أبلغ الأربعين سأكون في عنفوان شبابي بينما تبدأ هي في الذبول. نظرت متعجبا إلى زوجته القصيرة العجفاء والتي رأى بحنكته أنها أنسب الزوجات على الأرض لنظريته في الزواج، ولم أعر قوله أدنى اهتمام حتى بدا وكأنه يخاطب كائنا آخر غير مرئي يشغل حيزا وجوديا في المكان.

أما في حفل خطوبتنا فقال لي واحد من عجائز الأسرة هامسا في أذني بسخرية خبيثة:

-يا بني.. إن عظمك مازال طريا عليها.

ولقد كرهته منذ تلك اللحظة وأسقطته من ذاكرتي، لكني عدت فتذكرته هو وعمي جبريل الغبي ليلة الزفاف، حين اختليت بعايدة لأول مرة ونحن متجهان إلى غرفة النوم، فكرت أن أحملها على يدي مثلما أرى في الأفلام وأقبلها على جبينها وأهمس في أذنيها بكلمات عن الحب والشوق والغرام في ليلة العمر التي لا تتكرر.

مازلت أتساءل حتى اليوم لماذا لم أفعل؟!..

1980

ولقد بلغ بي تساؤلي ذات يوم ذروته في أحد ميادين جوتنبرج حين وجدت نفسي أحمل " كارينا" على يدي وأجرى بها من أول الرصيف إلى آخره وهي تصرخ في نشوة صبيانية رائعة وأنا أقهقه في رزانة سخيفة لم تخل من بقايا بهجة جنونية رغم مضي عشر سنوات على زواجي من عايدة.

كنت على مشارف الأربعين، أما كارينا الحسناء ذات البسمة الباسمة فقد كانت في الخامسة والعشرين. هكذا كنا ذكرا وأنثى ، رجلا وامرأة.. شيء غامض مشع, شعور رائع ومثير، يؤكد أن لنداء الطبيعة استجابة فطرية لا تستدعى التفكير والتأمل، وليست بحاجة إلى البحث عن إجابة لتساؤلات عن فعل طبيعي يحدث من تلقاء نفسه، فإنما هو قانون كوني يكتسح بقوته كل ما يشيده العقل من سدود.

كنت أسمع نبضات قلبها وهي تقول لي بانفعال:

- إني أريد رجلا يكبرني ويفوقني في كل شيء حتى أشعر أنني أنثاه!

وأفتح على نفسي باب الجحيم فأشرد في المقارنة وهي تواصل حديثها:

- ولو لم أتعلم منه واحتمي به وأتدلل عليه، لما تحققت المعادلة الصحيحة للعلاقة بين رجل وامرأة.

فتاة أوربية في الخامسة والعشرين تعبرعن فطرتها بيسر قد يعجز عنه أبلغ الفصحاء.. وكثيرا ما تقول لي عايدة:

- أنت لا تدللني أبدا..

وأريد أن أقول لها إن هذه المسألة قد شغلتني طويلا، وأنني كلما اقتربت من المحاولة سارعت إلى التراجع عنها حتى لا آتى بفعل ماسخ يخلو من الصدق ولا ينبع من دافع فطري أصيل.. فالذي يدلل هو الأكبر، ولأن الكذب أعدي أعدائي في الحياة فلن أكذب أبدا على نفسي أو عليها.

- وكيف أدللك؟

- قل لي مثلا يا عايودتي.. يا دلوعتي.. أي حاجة غير عايدة.

ولكن لساني يعجز عن القول.

1992

لما جاءت مريم جاءني معها الهاتف الذي دفعني إليها يحذرني بشدة من التمادي فيما أنا مقبل عليه من حمق. لماذا يباعدني الآن عنها وهو الذي زين لي القرب؟ لماذا يؤكد لي الآن أنني محسود على حياتي المستقرة الهانئة في كنف زوجة جميلة محبة وابن رائع وابنة أكثر روعة وجمالا، والاثنان ناجحان متألقان.. محسود أنا على ما يسمونه وظيفتي المرموقة وعلى مجموعتي النادرة من صفوة الأصدقاء. منحني الهاتف مهلة – لم يحدد مداها – إما أن أتخذ خلالها قراري بوضوح تجاه مريم وإما أن أمتنع من بعدها عن الاقتراب من عالمها أو الحديث معها أو عنها، ذلك إن كنت أرغب العيش في سلام.

1994

ليتني اخترت السلام.. ولكن من يجرؤ على الادعاء بأنه لا يختار دائما إلا ما يريد؟

(13)

سمير زخاري

1992

خذ عندك يا صديقي الحالم السعيد:

في إحدى زياراتها العديدة لأمريكا جاءتني مريم منذ حوالي أربع سنوات في مقر عملي بالجريدة تدعوني لحضور اجتماع ديني تعقده رابطة مجهولة الأصل لمناصرة أقباط مصر. في البداية رفضت الحضور من حيث المبدأ، فمسيحيو أمريكا ويهودهم لن يستطيعوا أن يقدموا شيئا لأقباط مصر سوى المزيد من إشعال نار الفتنة وإثارة الضغينة والبغضاء بين المسلمين والمسيحيين.. والنغمة السائدة الآن أنه بعد اقتراب سقوط الشيوعية فلسوف يكون الإسلام هو العدو الأول لعالم الغرب المتقدم. لكنى حضرت الاجتماع بدافع من فضول الصحافي النشط الذي يدمن تجميع الأخبار وتحليلها.

فوجئت بها تروي للحاضرين بعيون دامعة كيف هجم الإرهابيون على صيدلية شقيقها دانيال بحجة الثأر لمقتل زميل لهم بواسطة البوليس، وبعد أن قتلوه هجموا على المحلات المجاورة – ومعظم أصحابها أقباط – فقتلوا منهم خمسة وكسروا أرجل سبعة آخرين ثم أشعلوا النيران في محلاتهم التي يرتزقون منها بعد أن نهبوا خزائنها.

أصابتني دهشة شديدة فدانيال مستقر بالقاهرة حسب قولك لي في إحدى رسائلك، أما الحادثة التي أشارت إليها فقد وقعت في الصعيد حسبما أجمعت محطات الإذاعة الأمريكية والأوربية، وتعجبت كيف مزجت ولفقت بين الحادثتين في أسلوب قصصي مثير حتى تستنفر مشاعر المستمعين وتستفزهم. أما الذي أثار قرفي حقيقة فهو أنها كانت تتحدث إلى المجتمعين وكأنهم أولياء أمورنا في مصر، وكأنهم قادرون على القضاء على الإرهاب هناك وهم العاجزون عن القضاء عليه هنا في قلب أمريكا، بل إنهم يتبنون بعض رموزه ويدعمونهم في بعض الأحيان – تحسبا للمستقبل – إما تحت راية اللجوء السياسي وإما عزفا على نغمة حقوق الإنسان.

لقد اكتفيت بالنظر إليها في مرارة شديدة عقب الاجتماع وقلت لها:

- **أحسبك ترين في أمريكا الصدر الحنون والأم الرءوم لمصر وأقباط مصر.**

أجابتني في وقاحة:

- **أعتقد أنها لو لم تكن كذلك لما بقيت بها منذ تخرجك وحتى الآن.**
- **لكنهم ليسوا مصريين، ولماذا لم تذكري لهم جرائم الاعتداءات المسلحة العشوائية على عربات الميكروباص التي تقل ركابا مدنيين امتزجت دماؤهم البريئة داخل العربات بلا تفرقة بين دياناتهم؟**

نظرت إلى بجمودها الكرية وسألتني عن وساطة تمد بها بعثتها ستة أشهر أخرى استنادا إلى نفوذي الصحافي.

- ولكنك قلت أنك ستتركين الجامعة.
- نعم وسوف أعمل وقتيا بوزارة الثقافة بعد العودة تمهيدا لنقلة كبرى في حياتي العملية.
- وهل أخطرت الجامعة بذلك؟
- ولماذا أخطرهم وقد جمدوني عند آخر ترقية بحيث يستحيل أن أصل إلى منصب من مناصب القمة في الجامعة؟!

إني أدعى يا صديقي الحليم الصادق أنني الوحيد في الدفعة الذي نجح في قراءة عيني مريم. إنه يا عزيزي جنون التفوق والتميز، والشهوة القاتلة لبلوغ الذروة في أي شيء وإن أمكن ففي كل شيء، لكن مأساتها تكمن في ثقتها الزائدة بنفسها ومحاولتها الاعتماد على ذكائها فقط لتحقيق أهدافها، وهنا يكمن التحدي في صمتها الغامض وفي أعماق عينيها الشاردتين.

رغم ذلك فقد عقدت تعارفا بينها وبين نائب مدير الجامعة الأمريكية المسئولة عن بعثتها وكان مصري الأصل يدعى "على الفيتوري".قال النائب إن مد البعثة مستحيل بحكم لوائح الجامعة هنا، لكن هناك وسيلة أخرى هي دعوتها لتدريس الآثار بجامعتنا بشرط موافقة الجامعة المصرية، وقد ساهمت الدكتورة مدينة بجهودها في هذه الجامعة -التي تعمل بها – لتذليل كل العقبات حتى تلبى لمريم رغبتها.

في الليلة ذاتها اتصلت بالجامعة في مصر وجاءها الرد بالرفض فقدمت استقالتها بلا تردد، وبقيت هنا عاما حتى استغنوا عن خدماتها، لكنها كانت قد نجحت خلال تلك الفترة في عقد شبكة رهيبة من الاتصالات بكبار المسئولين في أكثر من جامعة بأكثر من ولاية حيث تمكنت من البقاء ما يقرب من ثلاثة أعوام أخرى انتهت في أوائل هذا العام.

ويوما سألت صديقة لي تعمل بسكرتارية إحدى الجامعات عن سر تهافتهم على محاضرات مريم دون غيرها من المبعوثات، ابتسمت صديقتي في مكر مكشوف وهي تقول:

- بغض النظر عن نفاقها السياسي فصاحبتك تمتلك سحرا من نوع خاص تعرف كيف تذلل به أية عقبة تصادفها مع الرجال.
- كيف؟.. والقوانين واللوائح.
- أي قوانين يا رجل؟! أنتم يا أبناء الدول الفقيرة تعتقدون في ملائكية احترامنا للقانون.
- فما الحقيقة إذن؟
- الحقيقة أن الرجل هو الرجل في كل مكان إذ يستطيع خرق القانون بأكثر من ثقب من أجل ليلة دافئة في فراش امرأة مشتهاة.

والحق يا عزيزي حليم أنا لم أشأ أن أصدق هذه الفتاة أبدا.. وحتى لو صدقت فإني لم ألحظ على مريم ما يدل على شبهة من هذا النوع على الإطلاق. إني لا أحبها حقا، ولكني مازلت أشك حتى هذه اللحظة أنها اشترت بجسدها بضعة أعوام للتدريس في أمريكا، أما لو كان الأمر كذلك – والعياذ بالله – فإني أشهد لك بعبقرية وجهها الفذة في القدرة على التمويه والإخفاء بما يعجز عنه أعتى عملاء المخابرات في الكرة الأرضية؛ أو أعترف لك ببديل آخر وهو أنني حمار.

أنا أعلم أن كلامي لن يعجبك مثلما لا يعجب الكثير من زملائنا الأقباط الذين كانوا ينفرون مني ولا يطيقون الاستماع إلى آرائي.. نحن يا عزيزي أصحاب جذور دينية يهودية، فالعقل أساسنا مهما كانت رومانسية ديننا العظيم. وأنا حتى هذه اللحظة لست أعقل ألا يكون هنا نبي أسمه محمد ولا دين اسمه الإسلام يوازن بين مادية اليهودية وروحانية المسيحية ويزاوج بينهم بفكر واقعي يتعامل بفن وعبقرية ونجاح مع الإنسان.. فلماذا لا نعترف بهم وندين بديننا مثلما يعترفون بيهوديتنا ومسيحيتنا ويدينون بالإسلام؟.. إن أول قرار سأتخذه لو أسلمت وأنفذه على الفور هو الزواج من امرأة ثانية..

لقد لفت نظري في خطابك تمحورك الشديد حول ذاتك كطفل أناني عنيد، أما ذلك الصديق المفكر الذي يحارب قضيتك وقضية كل مصري أيا كانت ديانته، وهي أهمية فصل الدين عن السياسة، فأنت لم تتكلم عنه أكثر من سبعة أسطر. لقد نجح الرجل في اقتحام معاقلهم

الفكرية الهشة المظلمة الحالكة السواد، وأراد أن يحاوروه بالكلمة فلم يجرؤوا على ذلك لأنهم على باطل.. فكر في مصر يا حليم أكثر مما تفكر في شهوة مريضة تكاد تسلبك العقل والحكمة.

***

(14)
حليم صادق

1992

مزقت رسالة سمير ثم أحرقتها.. وما أن جلست مريم أمامي حتى اندفع من فمي سيل من الكلمات لا يكاد يتوقف، جارفا معه ثرثرتي السريعة اللاهثة المتلهفة إلى التواصل قبل انتهاء مهلة الهاتف غير المحددة والتي كنت أحسب أن موتي دونها.. وبين الحين والحين أنظر في عيني مريم الناعستين الثاقبتين وابتلع انطباعاتي الحائرة عن مغزي تلك النظرات الغامضة.. أهي روح قدسية شفافة تلك التي تشع من عينيها لتتبصر بها العواقب الكامنة في أعماق الغيب فتحجم عن الاستجابة وتلتزم الصمت، أم أنها – واستغفر الله – إشعاعات مكر الأنثى حين تترقب وتفكر وتراوغ وتناور دون أن تكتشف عن حقيقتها الراغبة في خوض نفس التجربة، أم تعني تلك النظرات شيئا آخر لا أدرك كنهه؟

وأواصل ترثرتي بشبق غريب للكلام.. حتى نزواتي وسقطاتي انتزعتها مريم من بؤرة لا وعيي إلى بؤبؤي عينيها وهي تستمع بكتلة من الحواس المركزة في عينيها – قادرة على احتواء أسرار الخلق أجمعين – إلى طقس اعتراف تفصيلي عن أغوار نفسي التي لم أنتبه إلى ما تحويه من تناقضات قبل الآن.

وتندهش عيناها حينا فيقفز قلبي من صدري لأنها انفعلت للحظة، وأكاد أتلقفه بيدي حتى لا يضيع مني.. وتبتسم أحيانا فانصهر في "كرمشات" جفونها التي برع الزمان الفنان في رسمها بعبقرية فذة.. بين هذه الخطوط الرقيقة الدقيقة المتشابكة في محبة وتناغم، عثرت على مفقودات كثيرة من عمري كنت أجهلها، ومن بين ثناياها الوديعة انبعثت أنغام حانية غمرت روحي بسكينة لم أعرفها من قبل، حتى أن الطمأنينة لم تفارقني وأنا في قاع البئر.. أريد ولا أريد أن يلقي إلى بحبل يلتف حول حيرتي العاشقة المعشوقة.

ظلت مريم منصتة دون أن تجود بكلمة. حائط خرساني لا أظنه يتصدع بسهولة ليكشف حطامه عن نظرة أصيلة من القلب أو حتى عن ثورة من الغضب، رافضة ما يجول بخاطري من جنون أنا أجبن من البوح به حتى لنفسي.

في المساء أشفق على القدر من بطشه حين تذكرت زيارة سمير زخاري الوحيدة لمصر والتي جمعت بيننا بعد هجرته بثلاثة أعوام.

1967

كانت قصة حبه لزميلتنا الراحلة "سهير" تروي في الجامعة كما تروي الأساطير. لكنه تزوج بغيرها بعد أن ماتت بقطعة صغيرة من الحجر ألقاها طفل يلهو بالمصادفة فارتطمت برأسها. سألته بإشفاق:

- ألم تحب زوجتك؟

قال بأسي:

- لم أحب غير سهير.

شعرت أنني نكأت جرحه القديم فالتزمت الصمت، وأطرقت مفكرا في لاشيء، حتى دار بيننا الحديث حول أيام الجامعة فجاءت سيرة مريم وتعجبت من معارضته الشديدة لرغبتي في أن نزورها معا في مكتبها بالجامعة، متعللا بضيق الوقت الذي لن يكفي لزيارة أمه وبقية أسرته والبقاء ببيت كل منهم ليلة واحدة على الأقل، ليغمس البامية والملوخية بيديه لا بشوكة وسكين، وليأكل محشي ورق العنب والكرنب وفتة الكوارع والممبار والحلبة المعقودة.

1992

واليوم تستبد بي نشوة لم أخبرها من قبل، فالدهشة تعاودني وأحزاني تتصالح مع أفراحي.. ومشاعري تحررت من استكانتها إلى الطمأنينة القاتلة مع أسرتي الحبيبة.. ها هو القلب يفيق من غيبوبته فأقول لنفسي ما لم أقو على قوله من قبل:" إني أحبها.. ولو كانت نهايتي على يديها فلن أعبأ بشيء"..

ولم يكن أمامي إلا أن أكتب لها ما عجزت عن قوله.

***

(15)
مريم عبد الشهيد

1992

فتحت رسالته وقد استبد بي فضول عظيم:

العزيزة الغالية مريم:

قد فر مني زمن طويل فلم ألحق به. ومثلما امتنع عني فإنه جاء يسعى إلى بقانونه الأزلي.. يقف أمامي في صمت وما هو بواقف. أرقبه في ذهول العائد إلى رحم أمه رغما عنه، فأدخل وأخرج ويروح ويجيء من حولي والخلق يهرولون في أيامهم والشمس والقمر.. بوجدي أطير إليك فما عاد في الوقت متسع. هيا ادخلي في عباءتي فعندي كنز لم يمسسه من قبلك إنس ولا جان. لم أكن أدري أنني استبقيته لأجلك كل هذا العمر. قد بددت من نفسي الكثير في عمر الغفلة، وأما ما تبقى فهو لك، وخذي الحكمة ومعها شعري الفضي وألقى بهما حيث شئت.. في النهر في صدرك. في البحر في قلبك. في الجبل في عينيك.. آه.

ولسوف أهجر أعمالي ورغباتي وأمنياتي وتطلعاتي وأصدقائي وأعدائي ونزواتي وشهواتي وخيري وشري كي آتي إليك طفلا مغسولا بالانبهار مطهرا بالبراءة.. هيا ادخلي في عباءتي فعندي لك دفء مقدس يترفع في جلال عن الخطيئة. دفء طالما احتفظت به قبل أن أعرف أنك ستجيئين يوما إلى زماني وقد نفضت عنه غبار السكينة القاتلة. إياك أن تدق أجراسك أيها الهاتف إلا مؤذنا باللقاء.. ولتتوهج يا قلب بنار حبك الأخير. هيا أدخلي في عباءتي فقد كنت ضنينا بظلها على غيرك من قبل أن أعرف من أنت أو ما الذي جاء بك إلى أرضي وقد أنهكتها خصوبتها فبات اخضرارها داكنا حتى السواد.

تسع وأربعون سنة. رفاق سلاح تناثرت أجساد بعضهم في الهواء ورفاق دراسة هاجروا إلى بلاد الله مثلما هاجرت نسمة، ورفاق زمان يعيشون على مقربة مني وأراهم ولا يبصرنني وأبصرهم ولا يروننني..

سيداتي آنساتي سادتي.. مع الفرحة والمرح ولا تفكروا فيما تسمعون.. عليكم بالرقص فقط، فمن لم يعرف الرقص لم يعرف معنى الحياة، ولا يفني في الله من لا يعرف قوة الرقص.. هيا أدخلي في عباءتي وشاركيني جنتي.. ولئن كان المستحيل صعبا فليكن الصعب ممكنا. ولئن ترددت في الدخول فأعلمي أن تسعة وأربعين عاما أخرى هي المحال.. وأنني سوف أحملك بين ذراعي لأخفيك تحت عباءتي من العيون وأحرسك بألف جندي من لحمي وجلدي ودمى وعصبي وعقلي وجنوني.. تحت عباءتي يقبع سر السعادة القادمة. نعم تأخرت في العثور عليه. نعم دفعت لقاءه ما يقرب من ثماني عشر ألف يوم من الصمت والكلام والسكوت والبصر والاستبصار والدخول والخروج والحزن والفرح.. وكان النور أمامي فلم ألمحه.. وكان الحلم في سراديب صدري ولم أدركه. وكان النهار طويلا والليل أطول فما شعرت إلا بلحظة!.. فتعالى إلى عمري يا صاحبتي إلى السر.. الكنز في انتظارك.

حليم صادق

****

حين أطلعني على صورة "بسمة" راعني ذلك التشابه الشديد بين وجهي ووجهها.. مدخل ذكي عهد به لغزوي وكأنه يضعني موضع شقيقته تبريرا لاقترابه المتزايد مني.. قتلوك يا دانيال. تصورت أنني أحببتك يا "سهل" لكنه كان حبا لدرجة الكراهية البغيضة السوداء.. لقد ألقيت بك في بئر الصمت العميق الذي دفنت فيه جثث الدكتور عبد الجليل صيام وحسن شحته وعلى الفيتوري ومن قبلهم سهل عامر ووفيق جرجس، فكيف يمكن لحليم أو غيره من الرجال على وجه الأرض أن يغريني بالكلام.. وكيف أحب خصومي وأعدائي قتلة دانيال؟!

هنيئا لك بهم يا دكتورة نادية، فحين يقتلون أخاك فسوف تدركين إلى أي درك انحدرت. نعم أنا افتقد صديقة واحدة أفضي إليها بما انكوى به صدري من آلام، لكني قد اعتدت ذلك فلم أعد بحاجة إلى أحد. حين عذبتني أم وفيق بتسلطها علىّ وعلى ابنها المنصاع لنزواتها

وتقلباتها وغيرتها القاتلة مني، لم أجد صديقة أتنفس عندها، ولم أشأ أن أزعج أمي حتى لا تشاركني آلامي.. رحت أسكب دموعي على الورق.. أنفس عن قهري بالكلمات ثم أمزق ما كتبت فأرتاح ويهدأ بالي.. ظللت أكتب وأمزق حتى ماتت خصيمتي فلم أذرف عليها دمعة واحدة! بالصمت قتلتها وبالصمت تحملت قدري مع وفيق منذ ليلتي السوداء معه. وبنفس السلاح الرهيب الذي كان يتحصن به أبي أمام سطوة أمي وشخصيتها الجارفة تلقيت نبأ مقتل الحبيب.. قتلوك ويريدني أن أدخل في عباءته حيث يقبع سر السعادة الدائمة.

إنه لا يعلم أن عملي بوزارة الثقافة ما هو إلا معبر قصير لعملي كمرشدة عالمية مختصة بمرافقة الرؤساء والزعماء فقط، معبر أدرس من خلاله معالمنا السياحية بدقة بالغة تمهيدا لقفزتى التالية.

***

فوجئ بي أطرق باب مكتبه. يفرح لدي رؤيتي كالأطفال. أشعر رغما عني أن في ابتسامة شعاعا من نور يضيء جانبا مظلما من قلبي. غرفته أشبه بقصيدة شعر في وصف جمال الطبيعة. أما النافذة فلوحة سماوية تطل على البحر والفضاء الأزرق، وتعلوها زهور وشجيرات صغيرة.

اقتربت من شجرة جوافة ووقفت أتأمل فروعها الخضراء غير المثمرة. في نبرة حزينة موحية قلت له:

- هذه الشجرة الصغيرة مكتوب عليها ألا تثمر.

راح يداعب أوراقها بأنامله في رقة بالغة وتساءل مستنكرا:

- أكل هذه الخضرة لا تكفي؟
- لكن نموها محدود بقاع الصندوق الذي لن يسمح لجذورها بالامتداد.
- تكفيني بهجة اخضرارها فأنا لا أطمع في أن أجني منها ثمارا.
- لكن هذا ضد الطبيعة.
- معظم حياتنا ضد الطبيعة لكننا نعيشها.
- كيف؟
- أنت مثلا أضعت حياتك في الزواج المبكر والإنجاب والعمل ولم تحققي لنفسك شيئا.

تعجبت لجرأة هذا المسكين في اقتحام حياتي – رغم نبرته الشديدة الحياء – وإعطاء نفسه الحق في إطلاق الأحكام علىّ وكأنه عليم بباطن أمري وظاهره.. رغم ذلك فلم أجد بنفسي رغبة في أن أوقف اندفاعه نحو حصني.

- ليس هذا حالي وحدي، فهكذا تضيع حياتنا جميعا ثم نمضي.
- لكنك اخترت زواج العقل التقليدي بمجرد تخرجك فلم تعيشي حسبما أظن تجربة حب.. وبالتالي لم تعيشي حياتك أنت.

استنفرتني ثقته الزائدة بأحكامه القاطعة عن حياتي وكأنه يعيرني بعجز في ذاتي أو عاهة في نفسي، وكنت أرى في عينيه إصرارا على أن أكون البادئة بالحديث عن رسالته التي يقدم لي فيها قلبه طائعا على طبق من ذهب محاط بالورد، وكأن الذي كتبها رجل آخر غيره لا يتمتع بتلك الثقة أو القدرة على الاقتحام الجسور. تعمدت الصمت حتى خيل إليه أنني لم أفتح رسالته. انهارت مقاومته فسألني بدهشة:

- هل قرأت الرسالة؟

حاول أن يخفي ارتباكه أمام جمودي الشديد. اعتراه خجل جميل وهو يسألني بعد أن هززت رأسي علامة الإيجاب:

- وماذا بعد؟
- تصورت عنك أي شيء إلا أن تكون مجنونا.

أعجبته الإجابة وذاب ارتباكه في خجله في طمأنينته، إذ راوده الأمل في المستحيل فعجز عن الكلام .. حينذاك عاجلته بالسؤال الحاسم:

- ماذا تريد مني تماما؟

غلب صدقه ارتباكه وهو يقول:

- لست أريد منك شيئا وإنما أريد لك كل الخير والسعادة.

لم أسمع في حياتي كلاما جميلا من رجل صادق العينين والقلب والنبرات. انتابتني حيرة طاغية وراع عقلي في غيبوبة مؤقتة.

- لماذا لا تتكلمين؟

- لست أجد كلاما أقوله.

وغادرت المكتب على الفور يطاردني زوج وابن وحفيد ودماء شقيق تزأر بالثأر والرغبة في الانتقام، وأعوام قاربت على الستين ونداء صارخ من القلب يتوسل إلى أن أعوضه عن مرارة الحرمان.

في المساء كنت أجلس مع وفيق بالكازينو المطل على البحر نتبادل كلاما قليلا مكررا بلا حماس. استمع إليه بأذني، أما عقلي فكان شاردا في رسالة حليم وإصراره على الرضا بالشجرة المورقة دون ثمار قانعا بمنظرها الجميل، وامتناعي عن مواصلة الحوار معه، وشعوره بالطمأنينة لمجرد أنني لم أعترض على الرسالة ولم أعدها إليه مصحوبة بكلمات رفض أو تأنيب.

إن صمتي وانصرافي يؤكدان أنني راغبة في التسليم له بما هو مقدم عليه، أو على الأقل غير رافضة لاستلام طبقه الذهبي بما عليه ولو من باب التجربة وحب الاستطلاع.

(16)
حليم صادق

1992

سلمتها رسالتي لحظة الانصراف من العمل لأقطع الطريق على نظرة دهشة أو كلمة تساؤل، ثم أمضيت دهرا في انتظار الصباح متحديا منحني الحياة الآخذ في الهبوط، والذي كنت على ثقة من أنه لن يحد من سرعته إلا وقوع عيني مريم على كلماتي.

فوجئت بها تطرق باب مكتبي. حاصرت فرحتي وارتباكي وخوفي ويأسي فلم أنطق حرفا. حيتني ووقفت تتأمل الورد أمام النافذة ومصيري معلق بشفتيها اللتين قهرتا الزمن وأبقيتا دماءه القرمزية في لونهما الوردي المتفجر بالحياة. رأيت الأمل في الخطوط الرقيقة المتشابكة تحت عينيها المشعتين ببريق الشباب، فهدأت ضربات قلبي قليلا.. وكان الحصن منيعا لا تهزه أعتى الزلازل.. طهورا لا يعرف الدنس طريقا إليه. أبوابه الفولاذية نظرات غامضة منذرة يعجز السحرة عن فك طلاسمها السرمدية. يعصمني من الكلام عجزي عنه ولكن متى تكف عن قسوتها الصامتة فتتكلم؟

- هذه الشجيرة مكتوب عليها ألا تثمر.

خيل إلى أنها تبلغني ردها الموجز على رسالتي. أصابت قلبي بطعنة لكنها لم تكن قاتلة لأني مدرك لروعة نبوءتها الحكيمة، فما الذي يرجي من علاقة تجمع ما بيننا بما يتجاوز حدود الزمالة غير حب عاجز مشوه لن يكتب له قرب ولا وصل ولا توحد، ولن يعرف الطمأنينة والبهجة والارتواء والنمو؟!

قلت متسائلا وكأني أقاتل دفاعا عن بقية عمري:

- أكل هذه الخضرة لا تكفي؟

وكأنها لم تقرأ حرفا مما كتبت لها.. قالت بثقة:

- إن نموها محدود بقاع الصندوق الذي لن يسمح لجذورها بالامتداد.

لا الدين الإسلامي ولا الدين المسيحي ولا الشرع ولا المجتمع سوف يسمح لنا أن نعيش تجربة حب معا. اندفعت بجيوشي مسلحا بغريزة البقاء:

- تكفيني بهجة اخضرارها فأنا لا أطمع في أن تثمر أو أجني منها الفاكهة.

كان منتهى أملي أن يفتح كل منا صدره وقلبه للآخر، ولست أدري لماذا أو كيف أو من أين جاء هذا الأمل، وأنا لم أكن أشتهيها كامرأة رغم أنها لم تفقد بعد أنوثتها، بل إنها أكثر فتنة وحيوية من حسناء على مشارف الثلاثين.

كان واضحا أنها أحصت أسلحتي كما وكيفا حين حاصرتني بالصمت وأبقت سرها خافيا لا تريد أن تبوح به. غادرت المكتب فجأة فاستطعت أن أتنفس في يسر ولكني تعجبت لماذا لم أصرح لها بأنني – بعد انقضاء كل هذا العمر – أحببتها فجأة وبقوة؟!

لم أجرؤ على رفع سماعة التليفون لأكمل معها حديثنا المبتور. خطر ببالي أن أطلب عايدة بدلا منها لأقول لها إن المستحيل قد حدث فقد أحببت من بعدها امرأة أخرى تكبرها في السن.. لم أجرؤ أيضا على ذلك.

حينئذ عرفت أنني يجب أن أكذب – لأول مرة في حياتي – وأن أتعايش مع أكذوبتي حتى النهاية، فأخاف وأشعر بالذنب وأضعف وأتردد ويهتز احترامي لذاتي وأتألم وأحزن وأمرض ويختل توازن ملكاتي الوجدانية التي يقوم عليه عصب حياتي.

أسلمت قيادة أفكاري لقدمي فلم أشعر بغروب الشمس إلا حين وجدت نفسي جالسا إلى مائدة بأحد الكازينوهات المطلة على البحر والذي اعتدت أن أخلو فيه إلى الطبيعة مع نفسي أحيانا ومع صفوة أصدقائي أحيانا أخرى.

يا إلهي!.. هاهي. ولقد رأتني جيدا.. مريم جالسة بعيدة عني ولكن في نفس الحيز المكاني على أرض الله. إني أفرح بوجودي على قيد الحياة مادام في القلب متسع لحب الأرض والسماء والنجوم والكواكب والبشر والحيوانات والحشرات والنباتات.

مالي أتعجب لذلك الصمت الموحش بين مريم وزوجها. أليس هو نفس الصمت الذي طالما جمع بيني وبين عايدة منذ سنوات؟.. قبل أن أفيق من غيبوبتي كنا نجلس الساعات الطوال نتحدث حتى يفرغ الكلام فننصرف. يؤرقني هجوم الصمت لأني أكره الملل وأخشى مواجهته لثقتي بأنه أقوى مني ، وبأن هناك حقيقة تجلت تؤكد وجود ما يسمى بالحب الثاني، وأنه قادم لا محالة.

ظللت أحب عايدة ربع قرن من الزمان أو يزيد حتى أصابنا الصمت معا فأحببت مريم الصامتة! هاهي الأخرى تدفع الصمت قربانا لما تبقى من حياتها بعد أن عاشت عفيفة فاضلة وأخلصت لحياتها المقننة وربت بشارة وعلمته فتزوج وأنجب وابتعد وأصبحت تفتقد شيئا حميميا خاصا تعيش لأجله.. حتى متعتها بحفيدها الصغير يوسف لا تتجاوز الأيام القليلة التي تراه فيها في المناسبات.

أغلب ظني أنهما يتحدثان الآن عن درجة برودة المشروب أو عن سوء الخدمة في المكان. تعالى إلى يا مريم وأتركيه ولسوف نتحدث معا حتى الصباح بلا تنفس.. كم يعذبني ذلك الإحساس الواهم الراسخ الظالم بأن هذا الرجل قد اختطفها لنفسه في غفلة من الزمن رغم أن قلبها لم ينبض لحظة بحبه.. ويشهد الله أنني دعوت لها في صلاتي أن يصونها ويحفظها من كل سوء. إني أعوذ بقدرته وعظمته أن يكون حبي لها سببا في الألم لأي مخلوق، وأسأله أن ينعكس هذا الحب على حياتنا بفيض من نعيمه على أحبائنا الآخرين الذين أمضينا معهم كل ما انقضى من رحلة العمر. إنه عطاء مقدس من الرب يخص به عبادا يقدرون نعمته التي لا تحصى، فيكشف لهم عن كنوز من الرحمة لا يعرفها قساة القلوب.

إني أكاد أطير فرحا بطمأنينتي وسعادتي ورضاي، فالخوف لا يأتي إلا مع النوايا الشريرة يا مريم، وأنا لا أرغب فيك بل أرغب لك، لا أطمع فيك بل أطمع لك. إن كبرياءك العفيف يسحرني فأعشقه وأقدسه، ولكن.. إلام الصمت يا مريم؟!

***

(17)
عايدة فؤاد

1993

ليس هذا هو حليم الذي أعرفه حين يذوب في جسدي ويتوحد معه منذ أول لقاء جسدي جمع بيننا.. ولأن جديدا لم يجد على حياته العملية أو المادية – وأنا ملمة بدقائق نبضه وخلجات ضميره الطيب ونواياه البريئة – فإن هناك امرأة غيري ولو أقسم على الكتب المقدسة جميعا بغير ذلك.

لو أحبها حليم فسوف يخلص لها لأنه لا يعرف الكذب واللؤم والخيانة وهو الذي علمني الآية الكريمة: " ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه"، لكنه لن يستطيع مواجهتي بالصراحة الباردة التي يواجه بها بعض الرجال زوجاتهم حين يعترفون لهن بوقوعهم في تجربة جديدة سواء من باب الاعتذار والندم وطلب العفو والغفران عن نزوة طارئة، أو من باب النية المبيتة على الانفصال.

وكيف يستطيع مواجهتي بطعنة في القلب الذي احتضنه واحتواه وأدفأه كل هذا العمر، وكيف – أيضا – تطاوعه روحه أن يخفي الخنجر وراء ظهره فتكون الطعنة من الخلف وهي أقسى وأبشع وأقتل؟.. هاهو يجلس أمامي شاردا كالطفل الذي ارتكب حماقة ويخشى أن تكتشف أمه الأمر.

إني لا أستطيع أن أتصور حليم وهو يضم امرأة غيري إلى صدره القوى الحنون، فهذا هو الظلم بعينه، وأنا لا أستحق أن يظلمني إذ عدلت معه العمر كله.

لا أستطيع أن أتصور ذلك الامتزاج المقدس بين نفسين وقد استحال إلى شهوة داعرة لا تلبث أن تزول.. ولو كان بإمكاني لصرخت في وجهه بأن يسارع في العودة إلىّ قبل أن تأخذه مني لما ترددت.

إني واثقة أنه لن يصمد طويلا أمامي فلماذا أضع نفسي ذلك الموضع المستجدي الضعيف؟.. وحتى يجيء الأوان فلا مفر من السعي وراء الحقيقة رغم ثقتي المفرطة في حدسي الفطري.

ولكن كيف أصل إلى تلك الحقيقة والنار مشتعلة في صدري، يحرق القلب لهيبها ويحجب العقل دخانها الأسود وتعجز مياه أنهار الدنيا وبحارها أن تطفئها؟!.. هل أتعقبه أم أستأجر شرطيا خصوصيا كما تفعل النساء الأوربيات؟.. يا إلهي. كيف يعقل لرجل أحب زوجته وأحبته وأنجبت له الولد والبنت وفضلته على كثير غيره وصانته في عرضه وماله ولم تبخل عليه بعطاء، أن يوليها ظهره فجأة ليبدأ مع غيرها حياة عاطفية جديدة بكل هذه البساطة؟.. لقد أغدقت عليه بكل ما اختزنت في روحي من طاقة على الحب والرجاء والأمل الحلو، فكنت له عشيقة وزوجة وكنت له صديقة وشقيقة، ومع هذا فقد دب الملل والفتور في قلبه ولم يلبث أن انتقل إلى جسده. ترى ما هي مواصفات تلك المرأة التي ألحقت بحياتي هذه الهزيمة النكراء حين استطاعت إعطاءه ذلك الشيء المجهول الذي عجزت عن التوصل إلى سره وعن بذله لحبيبي عن طيب خاطر. لقد رفضت الرجل الذي تقدم للزواج مني قبل حليم لأنني رفضت فيه أبوته الزائدة بينما كنت أبحث عن حب وصداقة وتلقائية وانطلاق وحياة كلها شباب، واللعنة على الحكمة وعلى أصحابها المتخشبين.. ترى هل يفتقد حليم في علاقته بي شيئا شبيها بذلك الشيء الإنساني الغامض الذي يقبع دائما في أغوار النفس العميقة بحيث لا يسهل إدراكه أو التوصل إليه؟.. وما هي قدراتها العقلية والعاطفية التي استوعبته بها فسرقته مني في غفلة من الزمان؟

***

بعد منتصف ليلة هادئة ذهبنا إلى الفراش. كيف يستطيع هذا المخلوق أن يقبل يدها ويضع شفتيه على شفتيها ويلتصق لحمه بلحمها؟.. وإذا كان قد استطاع ذلك فهل أستطيع أنا الأخرى أن أفعل مثله ولو انطبقت السماء على الأرض؟.. نظرت بعمق في عينيه المنكسرتين.

من المستحيل أن يستشعر معها دقائق و رقائق لحظات النشوة الحبيبة الحيية العميقة الحميمية المسكرة التي عشناها في شبابنا حين كنا ننصهر في جسد واحد، فتلك مشاعر لا يسمح الزمن بتكرارها. هأنذا أبذل نفسي لك أيها الطفل الطيب العنيد الذي سرق مني فجأة. إنه امتحان إجباري عليك أن تفشل فيه عن جدارة لتثبت لي صدق حدسي.. وها أنت جثة هامدة بين ذراعي العطوفتين عليك منذ التقينا أول مرة.. أتكون فرحتك بها كفرحتك الأولى بي فتتساوى كل الأشياء وتستحيل إلى عبث لا يحتمل، وتتجرد كل القيم الجميلة من معانيها دون أن يدري أحدنا ما السبب في ذلك؟

لو اقتضى الأمر أن أقتلك فربما لا أتردد طويلا. لن تعوزني فرصة أقتنصها في يسر لأتخلص من وجودك أبها الحبيب، وإنما سوف أنتظر حلول لحظة الإرادة ولن أتأخر ثانية واحدة. لكن هذه اللحظة لن تأتي أبدا فأنا الكائن الوحيد على الأرض الذي يعرف هذا.. تلك لحظة شيطانية ينفصل فيها آدم وحواء عن الزمان والمكان والجنة والأرض والأسباب والثواب والعقاب ليكمل أيهما بحمقه دائرة العبث.. قم وارتد ملابسك أيها المخادع الصادق فقلد صدقت نبوءتي!

دبرت الخطة بأقصى سرعة ممكنة – بالاتفاق مع صديقة حميمة أعارتني مفتاح فيلتها – مستعينة بمحمد وفاطمة كانا دائما الشكوى من الفراغ وانتظار قرار التعيين ومن قلق خطيبة محمد لعدم حيازته شقة وتعجل خطيب فاطمة للزواج بما يتعارض مع إمكاناتنا كموظف بدرجة مدير متحف ومهندسة بدرجة رئيس قسم.

تلك أشياء لم تكن تزعجني بالمرة – مثلما تزعج حليم وتؤرقه أحيانا فالولد والبنت قد تربيا على الثقافة والوعي والفكر الراقي، والصداقة الحميمة بينهما من جهة وبين كل منهما وأبويه من جهة أخرى، مع جذور دينية تأصلت في نشأتهما – لهذا فأنا لست قلقة بالمرة على مستقبل أي منهما.. الولد سيعثر على شقة بوسيلة ما ويتزوج، وحليم وأنا سندبر كل طلبات فاطمة بكل السبل المتاحة، كالجمعيات والأقساط والقروض وخلافه، لماذا أخاف إذن ومدبر الأمر كريم؟!

في لحظات كانت عربتنا الصغيرة مجهزة بالساندويتشات وقد تم إخفاء الطبلة والكمان في الحقيبة الخلفية.. ولم يدر حليم بنفسه إلا والعربة تجتاز به الطريق الصحراوي – بقيادتي – والولد والبنت يديران شرائط الأغاني الحديثة الراقصة ويصفقان في سعادة، حتى فوجئ حليم بالعربة تتوقف أمام فيلا فاخرة في ضاحية متطرفة من شاطئ غير مطروق يبعد عن العجمي بعدة كيلومترات.

افترشنا الخلاء الصحراوي الرائع أمام مدخل الفيلا وظهرت الطبلة والكمان. بدأت فاطمة تعزف ومحمد يطبل على إيقاع أغنية يحبها حليم اتفقا عليها من قبل، وأجلست حليم على مقعد عتيق الطراز أسميته بكرسي العرش وقلت له:

-الآن.. أجلس يا ملك.

وجلس حليم.. ورقصت له على موسيقى ابننا وابنتنا.. وبينما أرقص، كنت أرقب في قاع عينيه فرحة العمر بما تبذله أسرته من حب وبهجة لإسعاده، ولكن كان هناك شيء خفي لم يزل!

***

قال أخي بثقة متناهية:

- أقسم أن زوجك لا غبار عليه يا عايدة.
- مستحيل.
- إن بعض الظن إثم. استغفري الله فقد ظلمت الرجل.
- لعل رجالك لم يتعقبوه جيدا.
- لقد أرسلت في أثره أكفأ رجالي.
- حليم على علاقة بامرأة يا شاذلي.

- ماذا تريدين منه أكثر من انضباطه في مواعيد العمل والعودة إلى المنزل وبراءة كل اتصالاته التليفونية والبريدية؟!!
- أريد أن أعرف أين يلتقي بها؟
- إنه لا يغادر المتحف إلا إلى بيتك يا عايدة.
- لا بد أنها إحدى زميلاته.
- زميلاته ثلاث وأنت تعرفينهن جميعا. اثنتان في عمر أبنائك والثالثة حيزبون متصابية انتدبت منذ فترة للعمل بالمتحف وهو خير مكان تصلح – في رأيي – للعمل به.
- سوف تثبت لك الأيام صدق ظني.
- الظن لا يكفي. أعطيني الدليل المادي وأنا أوقفه عند حده.

أي دليل مادي أقدمه لك يا سيادة العميد أقوى من أنفاس جسده الخائرة ونظرات عينيه المنكسرة وعودته إلى دواوين الشعر التي ظلت غارقة في ترابها بعد أن كف عن قراءتها لي منذ سنوات طوال.. أي دليل أقوى من التماع عينيه بدموع حبيسة صامته أراها بعيني قلبي وهو يستمع إلى إحدى أغاني أم كلثوم التي نسيناها في غمرة ذوباننا في شئون الأولاد. لا مفر من أن أقسو عليك يا طفلي الحبيب، فاغفر لي جبروتي وبطشي لأني بقدر ضعفي وليونتي أحبك، ولأني لن أغفر لك سقطتك ما حييت، رغم أني مازلت مشفقة عليك حتى هذه اللحظة. أرثى لك وقد ابتليت بداء لا دواء له في مثل عمرك. لا بد أنها تصغرني بعشرة أعوام على الأقل. ولا بد أنك تستعيد معها حديث عمك جبريل الذي يحلو لك أن تصفه بالغباء والذي حذرك من الزواج مني وأنا التي أكبرك بعامين.

- بيدك أن تنتزع منه الدليل.
- كيف؟
- بالقوة!
- ما أسهل اعتقاله لو كان هذا يسعدك.
- لا تتردد في إلصاق تهمة سياسية به حتى يعترف بها.
- بأية تهمة؟
- بالمرأة طبعا.
- يالقسوة النساء. عندي فكرة أرجح، فالاعتقال لن يحقق الغرض.
- ما هي؟
- ننقله بصفة وقتية إلى أقاصي الصعيد حيث تكثر المتاحف والآثار، فإذ أضناه البعد عن حبيبته التي تعشش في عناكب رأسك، فلسوف يتجه أول ما يتجه إليها في أقرب فرصة نتيحها له حتى يتحرك تحت رايتنا.

***

(18)
بركات الحداد

1987

بقائي في العيادة سواء في حضور الدكتور وفيق أو أثناء غيابه بالجامعة، لا يقلقني ولا يؤرقني في شيء ولو امتد طيلة اليوم، خاصة بعد أن بدأت صحته في التدهور. أما حين يرسلني بطلبات إلى المنزل فإني أجتهد في اختيار الأوقات التي تكون فيها زوجته بالعمل. لكن اجتهادي مرهون دائما بظروف الدكتور والدكتورة فغالبا ما تجمع الأوقات بيننا وحدنا بالمنزل.

إني على استعداد لأن أقسم بجميع الأنبياء والأديان والملل أنني لم أفكر لحظة واحدة في خيانة الدكتور وفيق ولي نعمتي، وفكرة الخيانة عند من هم مثلي من الفقراء لا تحوم دوما إلا حول سمسرة عدة قروش أو جنيهات من حسابات البيع وشراء اللوازم وما إلى ذلك من أمور لا تؤثر في المخدوم إطلاقا.. يمكن أن أرمي بجثتي على عميل أشعر بيسر حالته فلا أتركه يغادر العيادة قبل أن أغتصب منه البقشيش بطريقة أو بأخرى.. وإن فعلت ذلك – وقليلا ما أفعل بضغط الحاجة – فإن ضميري يؤلمني كثيرا لأنه يغضب الدكتور لو علم به.

أما أية خيانة من صنف آخر فمن المحال أن تخطر ببالي ولا في الأحلام، فأين أنا الممرض ربع المتعلم.. الأجير عند هؤلاء الناس منذ عشرين عاما.. أين أنا من سيدتي الجليلة مريم؟!.. لو فتح الدكتور قلبي وفتش في ضميري من ناحيتها فلن يجد إلا الطاعة والاحترام والولاء.. فكم هي سخية معي وكم هي متواضعة حتى أنها تناولت معي طعام الغداء يوما على الأرض وحدنا بالمنزل حين كانوا يقومون بدهانه وضحكنا كشقيق مع شقيقته الكبرى.. هكذا كنت أحسب أنها تعاملني.

رغم هذا كله فإنني ما أكاد أطأ باب الشقة حتى أجد لساني يلهج بالعياذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم كما لو كانت كارثة محققة تنتظرني بالداخل.. شيء غريزي يخيفني من هذه المرأة التي أعمل عندها وأحترمها وأحبها وأهابها.

إن ما يثير رعبي وحزني ودهشتي في آن واحد هو تعمدها المستمر منذ عشرين عاما وحتى الآن أن تظهر أمامي بملابس داخلية مكشوفة وكأنني ند لها تريد أن تغويه والعياذ بالله، وكلما مرت السنوات كلما ازدادت محاولاتها تكثيفا حتى أنها منذ ما يقرب من شهر أجلستني بعد أن وضعت الحاجيات وخرجت عليّ بقميص نوم شفاف يبرز أدق مفاتنها الداخلية، ومالت أمامي كاشفة عن صدرها بوضوح قاتل.. إنى أتعجب لماذا تفعل تلك السيدة الوقور هذا بنفسها، أم ترى أنها لا تقصد شيئا على الإطلاق؟!..

كاد قلبي يسقط بين قدمي.. ألهذه الدرجة تحتقرني هذه السيدة الفاضلة فتعاملني كحشرة؟.. أمن المعقول أنها لا تدرك مشاعر رجل عفى البدن أمام كهلة فاتنة تعرض نفسها عليه.. ألا تستحي مني؟. ألا تخجل من نفسها؟.. أم أنها تتلذذ بتعذيبي وإذلالي وهي تعلم ما بيني وبينها من مسافات وحجب وموانع.. أستغفر الله العظيم.. استغفر الله العظيم.. استغفر الله العظيم. لقد فكرت مرة أن أهجم عليها بعد أن ادعت التعثر وسقطت أمامي على الأرض كاشفة عن سوأتها في قبح جنوني مثير. فكرت أن آكلها أكلا وليكن ما يكون، مادامت هي التي تريد ذلك.. ولكني عدت بحمد الله إلى حصني الحصين "أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم. أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم" وأسرعت هاربا من البيت.

***

(19)

عايدة فؤاد

1993

أنا أستطيع أن أفعل أي شيء في أي وقت ما دمت مقتنعة بأحقيتي في هذا الفعل، ومادمت لا أضمر من ورائه سوى الخير والسعادة لنفسي وللناس. وفيما عدا ذلك فأنا لا أخاف من الحياة، بل أعشقها، وكثيرا ما أستطيع الإمساك بأوراق اللعب مع عبثها والتلاعب بها أحيانا، ولا يهمني حينئذ لو أسفرت المقامرة عن مكسب أو خسارة.

بهدوء مفتعل دخلت المبنى الإداري للمتحف. سبق لي أكثر من مرة أن تبادلت الحديث مع نجوى ولمياء..

الفتاتان الوحيدتان اللتان تعملان معه في الإدارة من جنس النساء. كنت أعلم أن حليم يقضي حاجة للأسرة في ذلك الوقت، ولكني سألتهما عنه ببراءة.قالت إحداهن:

- **قال إنه سيصل اليوم متأخرا لعذر طارئ.**
- **هل تدعواني لتناول الشاي معكما؟**

كان ترحيبهما بي حارا، لكن لم يكن بالمكتب غيرهما. كان مدخلي لهدفي حديث من القلب عن رغبتي الأكيدة في تجربة النوم بداخل أحد التوابيت الرومانية لفترة طويلة بحيث تضمن بقائي على قيد الحياة. ضحكت الفتاتان بشدة، لم تكن إحداهما تتصور أن مانعي الوحيد من تنفيذ تلك الخاطرة هو التسبب في الإضرار الأدبي لزوجي في العمل، أما لماذا انتابتني تلك الرغبة بشدة كدت أفقد سيطرتي على مقاومتها، فهذا ما لم أفكر فيه لحظة واحدة.

ترددت كثيرا قبل أن أفكر في سؤالهن عن الوافدة الجديدة التي وصفها أخي الشاذلي بالحيزبون.. وقبل أن يدفعني الاضطرار إلى البحث عن حيلة مبررة لمثل هذا السؤال فوجئت بسيدة وقور ذات ملامح جميلة تكاد تتطابق مع ملامح أم حليم، تدخل بابتسامة متعبة وتؤدي لنا جميعا تحية الصباح متجهة إلى غرفة أخرى – ربما كانت غرفة مكتبها الخاصة – وتغلق من خلفها الباب.

أشعلت سيجارتي الثانية وأنا أتساءل بلا مبالاة مدروسة:

- **من هذه السيدة الصامتة كأبي الهول؟**
- **إنها الدكتورة مريم.**
- **طبيبة بالمتحف؟**
- **بل دكتورة في الآثار.**
- **منذ متى تعمل هنا؟**
- **منذ حوالي شهرين.. ألا تعرفينها؟**
- **نعم لست أعرفها لأن حليم لم يحدثني عنها.**
- **إنها كانت معيدة بالقسم الذي تخرج فيه الأستاذ حليم.**
- **يبدو أنها ميالة للانطواء.**
- **ولكنها شديدة الطيبة وتحترم الجميع.**

بعد قليل دخلت علينا مريم حاملة فنجان قهوتها. طلبت بلطف من الفتاتين أن يعقدا بيننا تعارفا. قالت إحداهن:

- **مدام عايدة حرم الأستاذ حليم.**

قالت بثبات الأهرام:

- **أهلا وسهلا شرفت المتحف.**
- **أصحيح أن زوجي كان تلميذك؟**
- **بل كنت معيدة عليه لعامين فقط، ولكن أين هو؟**

فكرت أن أضفي جوا من المرح المصطنع أجوس من خلاله في خزانة أفكاري المغلقة، فقلت:

- **تقولان إنه سيتأخر لعذر طارئ لست أعرفه.**

- **الغائب حجته معه.**
- **أخشى أن يكون عند زوجته الثانية.**

وتبادلنا الضحك جميعا. فجأة سارعت مريم بالاستئذان للذهاب إلى عملها دون أن تسمح لي بثغرة أنفذ منها إلى عقلها أو بفرجة صغيرة ألقى من خلالها نظرة خاطفة على قلبها.. وبقيت أثرثر مع الفتاتين حتى استقرت الطمأنينة في قلبي وأدركت أن موقع الخطر ليس في هذا المكان، فحليم لا يمكن أن يحب قطعة من الصلب، بل إني لم أتذكر أن أسأل عن مريم هذه قبل مغادرتي المتحف تاركة رسالة شكلية للفتاتين كي يسلماها لحليم عند عودته، وبدون أية مناسبة أو سابق تفكير دعوتهما للعشاء معنا بالمنزل وكنت سعيدة بقبولهما المشوب بالدهشة.

***

(20)
وفيق جرجس

1992 /1993

رغم أن رباطنا الجسدي ظل العمر كله بلا روح، إلا أن الأمر يختلف كثيرا منذ اختل التوازن البيولوجي بيننا بحكم فارق السن فلم تعد همتي مواكبة لرغبتي أبدا.

كانت تستقبل هزائمي المتتالية بنظرات لا تحمل معنى التشفي والغضب أو السخرية، وإنما كانت تحمل معاني غامضة لم أستطع تفسيرها. ربما كان الزهد في ذلك الارتباط من أساسه حين فقد الجسد بعد أن فقد الروح.؟

سنوات عديدة مضت على ذلك النحو الانهزامي الرتيب.. أذهب إلى عيادتي منذ تركت الجامعة بصفة منتظمة. أرسل إليها الطعام والفاكهة مع بركات الممرض الشاب الذي يعمل معي منذ صباه وأئتمنه على عيادتي وبيتي بنفس القدر دون أن تبدر منه بادرة تسيء ظني به مرة واحدة. تعد الطعام في المساء، وفي الصباح تذهب إلى عملها.. يحدث ذلك منذ أن كانت تعمل في الجامعة ثم من بعد عودتها الأخيرة من أمريكا وعملها بوزارة الثقافة. أما الذي تفتحت عليه عيناي ومشاعري وأفكاري فهو ذلك النضج الأنثوي المتفجر بالحيوية والحياة الذي راح يدب في جسدها، وقد بدأ اهتمامها به يتزايد، فبدت كما لو عادت عروسا فوق العشرين. وكان البعض يظنونها ابنتي وهي جالسة إلى جواري في العربة فأضغط على أعصابي ولا أملك من أمري وأمر هؤلاء البعض شيئا.

كنت أشكو لوعتي أحيانا لبركات. أقول له ها أنت ترى بعينيك يا بركات. إنني لا أكاد أراها ساعتين من اليوم كله. أصحو من النوم لأجدها قد غادرت المنزل إلى عملها. أعود لأجدها قد أعدت لي الطعام ونامت.. بل انها تنسى إعداده في بعض الأحيان أو تتعمد ذلك. أستريح قليلا قبل أن أعاود الذهاب إلى العيادة. أصحو فلا أجدها ولا أعلم أين ذهبت إلا من ورقة صغيرة تكتب لي فيها أنها عند أمها، وأحيانا لا تكتب شيئا. أعود من العيادة فلا أجدها. أتصل بأمها فتقول أنها نزلت منذ فترة.. وحين تعود بعربتها وقوتها وعنفوانها وعطورها وملابسها المتأنقة يكون النوم قد استولى علىّ بعد إرهاق يوم طويل. هل تسمى هذه حياة زوجية يا بركات؟!

- فيم تتبادلان الحديث إذن؟
- قليلا ما نتحدث حول شئون بشارة أو أنبوبة البوتاجاز الناقصة.
- ولكنها سيدة طيبة ومحترمة يا دكتور.
- لن تفهمني يا بركات مهما أوضحت لك.
- ربنا يخليك لها ولنا يا دكتور. أنت أيضا ابن حلال وتستحق كل الخير.
- إني أعيش وحيدا يا بركات.. وبهجرة بشارة إلى أمريكا بتحريض منها فمن لي في هذه الحياة؟
- لماذا لا تعاتبها ولو في لحظة تسامر خاطفة؟
- لا أريد.
- لماذا؟
- لا أعرف.

***

(21)
مريم عبد الشهيد

1993

أصبح أمرا معتادا أن نبدأ يوم العمل بذهاب أحدنا لمكتب الآخر ليشرب عنده القهوة. نتبادل الحديث معا بشغف متبادل، فأثرثر معه علي غير عادتي، حتى أنني قلت له يوما في تلقائية عابرة مفاجئة ندمت عليها:

-إنني أصبحت أتكلم معك أكثر مما أتكلم مع زوجي.

بهرتني أحاديثه عن رومانسية الدين المسيحي وعن حبه الشديد له وتمنيت من قلبي أن يكون مسيحيا، بل إنني ألححت له يوما بذلك لكنه تجاهل تلميحى بذكاء يحسد عليه. فوجئت بأنه يحفظ آيات لا حصر لها من الإنجيل،ربما أكثر مما أحفظه أنا. تصاعدت الألفة بيننا يوما بعد يوم حتى تبين لي أن هناك عشرات من الأفكار تجمع بيننا أكثر مما تفرق، وأن احتياجي إلى الكلام معه أصبح لا يقل عن احتياجه إلى الكلام معي. الفارق بيننا أنه لا يستطيع إخفاء شعوره بهذا الاحتياج ولا يريد إخفاءه، أما أنا فلا أستطيع غير إخفائه.

لاحظت تعمقه في فهم طبيعة التكوين النفساني للمرأة القبطية كمسيحية شرقية متحفظة تقدس الزواج وتحترم الزوج باعتباره رأس المرأة – مثلما يحترم قوامة الرجال على النساء – وتعيش معه في السراء والضراء حتى الموت. في البداية كنت أحسب أنه يتودد إلى تملقا لديني حتى أشعر تجاهه بالأمان، ولما سألته:

-لماذا تحللون لرجالكم الزواج بمسيحيات وتحرمون على نسائكم الزواج بمسيحيين؟

فوجئت به يجيبني بابتسامة كلها مودة خالصة وكأنه يعتذر لي قائلا:

-لأن المسلم يعترف بالأديان السابقة على الإسلام وبذلك تكون زوجته الكتابية آمنة على دينها معه لو شاءت الاحتفاظ به، أما المسيحي فإنه لا يعترف بالإسلام وبذلك لا يمكن أن نزوجه بمسلمة لأنها لن تكون آمنة على دينها معه.

ولما تكاثرت حوادث العنف والإرهاب ضد أقباط الصعيد وجدته حزينا مكتئبا آسفا وكأنه المسئول عما يحدث، وقد عهدت فيه دائما حرصه الشديد على تجنب الحديث عن كارثة دانيال ولو بمجرد الإشارة إليها حتى لا يثير آلامي.

كان خوفه على البلد شديدا وغالبا ما ردد قوله واضحا:

-أخشى م أخشاه أن يستولى هؤلاء المتطرفون على الحكم لأنهم لا يمثلون الإسلام في شيء!..

وكأنه يعزينى بأدب وحساسية فى أخى.!

هكذا اطمأن قلبي إلى صدقه، لكن دم دانيال لم يكن يسمح لتلك الطمأنينة أن تغزو قلبي أبدا، أما كراهيتي العنيفة للجثث الملقاة في البئر فلا بد أن تفقد يوما تأثيرها السام على مشاعري.. واللعنة على كل الفلسفات المادية التي حشا بها الغرب دماغي، فوضعت مواصفات قياسية لكيان الرجل الذي سأختاره ليعيش معي مدى الحياة، تبين لي أنها خاطئة. هذا الكيان يحمل روحا لم أضعها في حسباني، فكان أن فزعت إلى البحر ولم تشفع لي البراجماتية ولا التحليلية ولا الوجودية عنده حين مزق آدميتي كذئب مسعور إلى قطع من اللحم والعظم والغضاريف فتصاعدت روحي ولم تعدني أبدا.. ورغم ذلك عاشرته دون أن يعرف قلبي في تلك المعاشرة ارتعاشة الحب مرة واحدة.

إن الرب عادل رحيم، ولسوف يغفر لي خطاياي ويقدرني على أن أغفر لوفيق خطيئته معي وهو زوجي، وإلا فليقذف بنا الرب معا إلى الجحيم، وإذا كان صحيحا أن الحذر يؤتي من مكمنه، فإنني أصبحت أتوق بشدة إلى فتح باب صغير من بوابات قلعتي حتى يدخله حليم بكامل إرادتي ووعيي وتحفظى ، حتى لا تصعقه محاذير جنتي التي لا يعرف عنها شيئا لو أدخلته من أوسع أبوابها.. وحتى لا أندم يوما على تسليم عقلي لقلبي يفعل به ما يشاء.

بالأمس رجوته أن يكتب لي معبرا عن أعماق مشاعره تجاهي فقد عشقت كلماته الرقيقة وخيل إلى أنني تمنيت في لحظة أن أفديه بحياتي.. ذلك الرجل الذي أحبني.

ما أروعه حين يكتب لي:

" إنني متنازل عن حاجتي لألبي حاجتك. أريد أن تذوقي طعم حلاوة الحب ودهشته وروعته وفرحته وقوته ونضارته.. حين أقف خلف نافذتي أمام المقابر وألمحك، فأفتحها على مصراعيها حتى أتنسم هوى رؤيتك من على البعد المتاح، وأتمنى أن ألوح لك بيدي ولا أريد منك أو من أيامي القادمة أكثر من ذلك. إن حبي لك مسئولية رهيبة أتحملها بعمري. إني أكرر لك الدعوة يا عصفورتي الخضراء أن منتهى أملي أن ينبض قلب كل منا بحب الآخر، وأن تمتزج أنفاسنا معا بحب الناس والكون والحياة، فتملؤنا الفرحة ويغمرنا الحبور في الأمل بأيام سعيد مقبلة".

***

أهو تعاسة الحظ أم أنه تخطيط القدر؟.. إني أتعجب كيف تحدث معظم الأشياء في هذه الحياة بطريقة مفاجئة، وأتساءل دوما عن الحكمة في ذلك، وغالبا ما أستسلم لعبث الأقدار. فجأة وخلال ساعات قلائل أصبح أمرا واقعا يتحدث عنه الجميع ببساطة: حليم نقل بغير سبب معروف إلى الأقصر.

1988

من أغرب غرائب هذه الحياة الدنيا والتي لا تتاح معرفتها إلا لمن يفهمها حق الفهم، هو حتمية الاستسلام أحيانا لعبث الأقدار، والأغرب من ذلك هو أن يسفر ذلك الاستسلام عن انتصارات رائعة رغم آثاره الدامية المفجعة.

حين استقبلني على الفيتوري بمكتبه بالجامعة الأمريكية لينتدبني للتدريس عاما جديدا – قابلا للتجديد لمدة أربع سنوات – فوجئت بوجهه المصري الأسمر. كان في عمر أبي أو يقل عنه قليلا. منحني ابتسامة صفراء ودعاني للجلوس على المقعد المواجه لمكتبه. حدثني قليلا عن ابن له يمتلك مصنعا للبلاستيك بالإسكندرية وآخر بالقاهرة. تعجب من إصراري على البقاء في أمريكا لفترة أطول أو لأطول فترة ممكنة، واندهش لتشبثي برغبتي. فجأة قال لي وهو يتفحصني بعمق شديد:

- إن أمريكا تفتقر إلى الصدور الشرقية الساخنة.

لم أعلق. ابتلعت ريقي عندما شعرت بأنني عدت في لحظة إلى مصر التي هربت منها. أصدر أمرا هادئا واثقا:

- تعالي.
- إلى أين؟
- هنا بجوارى.

قمت على الفور بثبات إلى جانبه، أقاوم انتفاضات جسدي وارتعاشاته الفزعة.. كرر أمره الهادئ الواثق:

- إجلسي.
- أين؟
- على حجري.

جلست على حجره بعقلي الذي كاد التفكير المجرد أن يلهبه. فك زرا واحدا من القميص وأخذ يعبث بصدري بيد مرتعشة في البداية ، مجنونة في النهاية، ولم أستطع أن أبدي تجاهه أدنى اعتراض.

أعاد أمره الهادئ الواثق مرة ثالثة:

- انزلي.

نزلت عائدة إلى مقعدي، وكنت أريد أن أصرخ مستنجدة بالعذراء من هذا الكابوس الجهنمي، فلم أتمكن من ضبط أنفاسي رغم رغبتي العنيدة في ذلك. لكني سألته بنفس هدوئه بعد أن نجحت في التماسك:

- **لماذا فعلت ذلك؟**
- **كنت أقيس درجة حرارة صدرك.**
- **لماذا؟**
- **لأنها مسوغات انتدابك يا عزيزتي والتي سأنهيها بيدي.**

وقع على بعض الأوراق وطلب مني أن أمر عليه غدا في نفس الموعد لاستلام بقية أوراقي كاملة.

1993

.. آه يا حليم.. ليتك لا تشتهيني مثل هؤلاء الكلاب.. لو لم تشتهني سأسلمك روحي وقلبي وأفديك بعمري، ولتفعل بي حينئذ ما تشاء، فأنا على يقين الآن من أنني أحبك. أحبك يا معجزة حياتي ومستحيلها.

***

(22)
حليم صادق

1993

في الموعد المصرح به للاقتراب من باب الجنة الموعودة كنت أعبر الشارع إلى موقع اللقاء. رأيتها جالسة في عربتها وعلى وجهها ابتسامة مترعة بكل متناقضات الدنيا، معبرة أدق تعبير عن طبيعة الحال. رأيت فيها الشوق والفرحة والخوف والقلق والسعادة واللهفة.. الشعور بالذنب والندم. الإقدام والإحجام. السخط والرضا.. امتصت أعصابي ابتسامتها الحائرة الخجلي فصرت أنا الذي يعاني لها ما تعانيه.

أحبتني مريم.. أحقا هذا؟.. لقد أيقنت بحدسها الرهيب أنني مدرك بالقلب لدقائق مشاعرها، غائص بالحب في سراديبها فحالها من حال محبتي.. ضربت لي مريم موعدا.. أهذا حق؟!.. قال لي صديق ذات يوم إن تبادل الحب في هذا الزمان بحاجة إلى عبقرية فذة.. فالحب هو أنت، وأنا لن أحبك ما لم تكن أنا.. وأنت لن تكون أنا إلا إذا كنت عبقريا في علمك وإحساسك بأدق وأرق دقائق ورقائق خلجاتي ونبضاتي وأوهامي وأحلامي وظنوني وأوجاعي وأفراحي وأتراحي.

بهدوئها الذي يغلي في مستودع أسرارها فتحت لي باب العربة قبل أن أصل إليها بعدة خطوات.. نحن الآن في حالة تلبس باختراق العرف واقتحام القيم ، لأننا في لقاء غرامي ممنوع يجمع رجلا في الخمسين بامرأة في الرابعة والخمسين وكلاهما عاش حياته المستقرة كاملة وتزوج وأنجب.. ومع أول تلامس لليدين عند المصافحة كنا ندرك معا في صمت أننا نخطو خطوة نحو الخطيئة.. من يخطر بباله الآن أن هذه السيدة الجليلة الوقور تغادر بيتها وعملها لتلتقي بي، وكأنما أسلمتني عقلها الذي يزيد في ثقله كثيرا عن عقول عشرات الرجال؟.. ذلك لأنها تعرف الحب لأول مرة، والحب لا يعرف العقل.. وكنت قد سألتها قريبا وجسدي يقطر عرقا ولساني يتلعثم في حروفه:

- هل أحببت يوما؟

فهزت رأسها نافية بلا انفعال.

- وهل تحبينني؟

فهزت رأسها مؤيد ة في حياء سلبني روحي.. لكنها لم تتكلم!

ها هي تقود السيارة في استسلام قدري رائع إلى مصيرنا المجهول. ماذا لو اصطدمت السيارة بأخرى فتهشمت وأصبنا بجروح ونقلنا إلى المستشفي، وعلمت الدنيا والآخرة أننا كنا معا في العربة وأمامنا مشروبان مثلجان أحضرتهما معها تحاشيا للجلوس في مكان عام!!..

جلسنا عند نهاية الكورنيش داخل العربة في مواجهة طابية قايتباي الأثرية. لم يكن أحدنا يعرف كيف يبدأ القول وماذا يقول. فجأة قالت لي بحسم:

- من العار ألا تعرف سبب نقلك أو انتدابك.
- سوف أعرف بإذن الله.
- ومن الضعف أن تمتثل له دون أدنى مقاومة حتى تعود بأسرع ما يمكن.

لم تفلح عباراتها النارية في إذابة حزني العميق. أهكذا كتب لعلاقتنا أن تموت قبل أن تولد؟.. أالله في ذلك حكمة؟.. شعرت برغبة في البكاء إذ يبدو أن الأمر كذلك حقا، ذلك أنني كنت قد شرعت من خلال تدريب روحاني عنيف منذ عام مضي على إعداد نفسي للزهد قليلا في الدنيا والاقتراب من الله. لكن مجيء مريم كان ابتلاء متزامنا مع ما انتويته، ولهذا خيل إلى أنها رسالة مجهولة المصدر مبعوثة إلىّ لتقول إنني تعجلت في رغبتي وأن أياما في هذه الدنيا أحلى من العسل مازالت قادمة في الطريق، فلا تحرم نفسك منها، وتوقيتك للقرب لم يأت بعد. صحيح أنك قد تموت بعد كسر من الثانية فلا تطول هذا ولا ذاك، لكن هذا الابتلاء سوف ينفض التراب والصدأ عن معدنك الحقيقي، فالحب الثاني قد يصهر الرجل وينتقل به إلى حياة تتحرر من الجوع والنهم والسرعة وتنحو نحو الطمأنينة العارفة، وما أجملها من حياة تزينها صحبة مريم

الرائعة وصداقتها الطاهرة، حياة يسمو بها العقل إلى الروح ولا يتهابط إلى تراب الجسد.. ولئن كان عمري كله تاجا مرصعا بجواهر الحب والمعرفة، فمريم عندي هي درة هذا التاج الذي يتلألأ على جبيني بأنوار الخير والجمال.

- هل يعجبك هذا؟
- ماذا؟
- وجودنا معا في عربة على قارعة الطريق!
- يعجبني ويدهشني ويسعدني.
- لا شك أنني أصبحت أتصرف كمجنونة بسببك.
- لكنك أجمل مجنونة رأيتها على وجه الأرض.

ليلة الأمس حين وضعت رأسي على الوسادة كان وجهها ملاصقا لوجهي وأنفاسها تلفح أنفاسي. تحسست بأناملي أنفها الروماني المصري الفرعوني ذا الكبرياء المجنون. قبلتها في عينيها غير عابئ بمقولة الفراق.. هاهو يتحقق.. ثم قبلتها على جبينها المضيء عرفانا بحبها العظيم لي – ذلك الذي لم تفصح بلسانها عنه – ثم على وجنتيها النضرتين عشقا في جمال الخالق في مخلوقته التي صارت حبيبة إلى قلبي. أحطت خصرها بيدي.. ذابت بكيانها فوق صدري فلثمت شفتيها بحنان العاشق ولهفة المشتاق.. لم يعرف النوم طريقه إلى عيني قبل أن ينهكني الأرق الجميل فأدرك أن أيامي قد صار لها معنى وأن في استمرارها رفاهية لم أكن أحلم بها.

حين استيقظت كانت عايدة بجواري فعرفت أن الثبات لا يعرف القلب ولا الزمن. سوف أحمل مدفعا رشاشا وأنزل إلى الشارع أطلق نيراني على الموت والملل. ولئن نجح الماضي في الاستبداد بحياتنا وتجميدها فليكن المستقبل لنا، ولنلتقي ولا نفكر في وفيق أو عايدة " فلقد دخلت جنتي يا أختي العروس".

***

كنت أتصور أن الذي يدفع الدماء ويضخ الحياة في هذا الكيان الخرساني المتصخر، إن هو إلا قلب قدّ من فولاذ.. ولكن ما أن اقتحمت القلعة من بابها القدري الذي لم يهتد إلى سره أحد من قبلي، إلا ووجدت نفسي أمام قلب عصفورة صغيرة أخضر اللون. هش كزجاج رقيق. يا الله. أهذا قلب مريم أم تراني في حلم جميل؟

إني أدعو الله من قلبي بالسعادة لذلك الرجل المجهول الذي أصدر قرار نقلي إلى الأقصر فكشف لي عن مكنون قلب حبيبتي. إنها تحبك يا حليم. تحبك. هل تدرك ما تقول وتوقن أنه حقيقة أم أنك تحلم؟.. لقد تكلمت عيناها بلغة مفهومة واضحة جلية لأول مرة. كانت حزينة للنبأ. متلهفة على قرار مضاد يصدر في التو واللحظة ليلغي هذا القرار.

اندفعت إليها بلهفة عمري كله. بخمسين عاما ولت في ثوان، بالعمر المتبقي الذي لن يكتب له البقاء قبل ارتشاف رحيق القبلة الأولى. بعيني طفل برئ يرى الدنيا لأول مرة ولا يعرف الضلال ولا الهدى. بقلب شاب لا يخطر الموت بفكره. اقتربت بوجهي من وجهها. كانت وجنتها تفاحة حمراء صابحة، وكانت المسافة بين جبهتينا لحنا غامضا يعزفه القدر. تسلل أريجها إلى أنفي فكانت أنفاسها نبض الحياة منذ بدء الخليقة. وعندما اقتربت المسافة بيننا كانت الدنيا بأسرها لقاء حافلا يدعو إلى العناق.. وكانت الآخرة امتدادا لها، فكانت الجنة وكانت النار، وكان التاريخ والتراث والدين والأعراف والأخلاق والأزل والأبد ونسمة صيف لافحة وترنيمة طير أخضر رقيق.. ذابوا جميعا في عناق في تلك المساحة الفاصلة بين وجنتينا، والتى كلما انحسرت أشعلت حرارة الشوق فاستحال الانحسار إلى اتساع لا نهاية له.. كون سرمدي يعج بأسرار الخلق والبدء والانتهاء والوجود والعدم كان يشغل تلك المسافة زمانا ومكانا.. ما أروع أن تجتمع أكثر من مائة عام بين شفاه أربع يتهددها الفراق الوقتي من قبل أن تلتقي وأن يذوب كل هذا العمر في لحظة هي رشفة من رضاب الحب المسكر.. أن تهدر شلالات الذكريات

بين أعطاف ذلك التماس الشفيف الحاني وأن يتكثف الوجود كله في لحظة ملهمة تنصهر فيها الأسرار والمعاني وكل مالا يقال وما لا يدرك بحرارة ذلك اللقاء.

وفي اللحظة التي تلاشت فيها المسافة واقتربت الشفاه، اقتحمنا هاجس غامض متوحش لم أدر من أين جاء بسطوته وقوته وجبروته ليضع بيننا حاجزا عنيدا على كف مريم تخفي به خدها الوردى الجميل لتحول دون تحقق لحظة الانتشاء المقدسة. كفها يفصل بين وجهي ووجهها كحد سيف يرتعش بقوة، ويضيق فؤادها بالسر فيتفجر في المسافة المتلاشية لحن القدر بقوة رعدية تحيل العناق إلى حرب قاسية يتأجج فيها الصراع بين النار والجنة والشياطين والملائكة ودانيال والمتطرفين والحرام والحلال والخيانة والأمانة ووفيق وعايدة ..على جبهتين، تحارب إحداهما انتصارا للحب والثانية لدموع الشفق الحزين.

- لا ...

شهقت بها مريم وقد تقطعت أنفاسها النارية المتهدجة في الهوة السحيقة الفاصلة بين وعيها وقلبها، وقد أسفرت الحرب عن تمزيق روحها إلى شطرين تفصل بينهما تلك الهوة، ممثلة في الكف المتصلب الحاجز، ومريم عاجزة عن لم شملها بينهما.. وكان الشارع خاليا من المارة وكان السر حبيس صدرينا وأسلحة الأضداد مشهرة في عقلها – وفي عقلي أيضا – بعد أن نجح المجهول الغامض في حصارنا داخل عربتها الصغيرة في شارع ضيق بمدينة مزدحمة ودنيا الله واسعة بالمروج والصحاري والوديان والغابات والأنهار.

منعنا ذلك الشيء المجهول من اللقاء على الملأ. حال دون خلوتنا في مكان آمن. سلبنا القدرة على الكلام الحر. أفرغ سما في ضميرنا المتوحد الذي لم يهتد الشر إليه.. لتقول لي مريم بعينين دامعتين متوسلتين:

- لا..

تقولها بنبرة عذراء، مرتبكة في حيائها الذي أحال روحي إلى رجفة يتنازعها الخوف والرجاء.. لماذا يحرم علينا الحب، ولماذا تقيد روحانا بالفولاذ فأرى على كف مريم – الماثل أمام شفتي كسد من صخر – خطوط القتال وأنهار الدماء ومقابر الضحايا والشهداء وصيحات الملوك وهدير الجنود وانهيال الرماح وتساقط الصواريخ وانفجار الألغام وبكاء الآباء على الأبناء ثم معاهدات الصلح وعناق الكذب وتوقيعات الزعماء على الوثائق، وتبحث شفتاي المحمومتان عن شفتي مريم فلا تجدهما.. وتبكي مئذنة!

- لا ...

إني أحببتك فوق التصور رغم أن المستحيل هو أن يكون أحدنا للآخر حتى النهاية. وإني أقرأ في عينيك ما قرأته في عمري من صفحات القرآن والتوراة والإنجيل. اقتلوني ومزقوا جسدي وبعثروا مزقه في أرجاء الدنيا – أيا ما كنتم – فلن تحرموني من قبلة الحبيبة.

يا مريم حطمي حصون تذبذبك بين الحب والحقد وأغمضي نجمتيك الشاردتين لنور القمر. إني قادر على هزيمة شياطين الأرض فلقد استحلت فجأة إلى وحش يمسك بكف مريم. يزيحها بقوة عن وجهها فتتساقط الشياطين كالذباب، ولا نامت أعين الجبناء.. لكني لم أحتمل أن تلمح عيناي ذلك الفزع الرهيب في عيني حبيبتي، فتراجعت في نبل إشفاقا عليها. ابتعدت لأربت على ظهرها واكتفى بتقبيل يدها، ودموعي متحجرة في عيني، وروحي حبيسة ابتسامة الهاجس الخبيثة الظافرة..

أحقا أسافر يا مريم وتتركيني وحيدا في مواجهة الكون. أحقا لن أراك لأجل غير مسمى ورغم ذلك تحول كفك بين شفتي وشفتيك حتى لا أقبلك؟!

انتزعت من روحي بسمة من يرى نهرا من حنانه يسيل من العربة إلى أرض الطريق.. وكنت أرى النجوم تتساقط أمامي والأقمار وأنا عاجز عن التقاطها. وحين أدركت أن عمرى القادم لم تكتب صفحته الأولى بعد، كان لا بد أن نغادر الشارع الذي وصلنا إليه ليعود كل منا إلى جدرانه الأربعة حيث عالمه المستقر القديم.

***

(23)
عايدة فؤاد

1993

شهر كامل أمضاه حليم في معبد الأقصر. لم يتصل بأحد سواي. لم يكتب رسالة لأحد غيري. أنا حبيبته الأولى والأخيرة وبنت الجيران التي كانت أول من فتحت قلبه ورقدت به. حليم ليس حصيفا لدرجة أن يحتاط كل هذه الحيطة لنفسه لو كان على علاقة بامرأة حرمه البعد من وصلها. صدق ظن الشاذلي فلماذا نتركه وحيدا معذبا، وقفت أمام أخي متخاذلة أرجوه إعادته بأية وسيلة.

- **سأدبر الأمر دون حرج له أو للمسئولين ولكن أرجو ألا تشركيني في هواجسك مرة أخرى.**
- **لن أشركك فيها ولكني مضطرة للاحتفاظ بها.**
- **متى تتخلصين من رومانسيتك المريضة هذه أيتها العجوز؟**
- **مسكين.. أنت لا تعرف أن الرجل أكثر رومانسية من المرأة.**
- **منك نستفيد.**
- **الرجل واقعي في تفكيره العام ولذا يحب أن يتصور المرأة كملاك لتخفف الصورة عن كاهله أعباءه الواقعية.**
- **ومن قال لك أنني أتصور زوجتي ملاكا؟**
- **لا يهم أن تتصور، لكنك تتمنى، أما المرأة فلكونها عاطفية فهي تلوذ بالواقع بقوة، والدليل على ذلك أنها تلجأ إلى السحر أو القتل أحيانا لمجرد الاستحواذ على الرجل.**
- **وهل تدخلين السحر في مجال الواقع ؟**
- **طبعا.**
- **يا ساتر يا رب.**
- **متى يعود حبيبي؟**
- **خلال أيام بإذن الله.**
- **أقسم بالله لو تباطأت في إحضاره لأخذت الأولاد وذهبت إليه.. هه!**

****

استقبلته بحب طاغ. كان مقتنعا لسذاجته بما أوهموه به أنهم ندبوه هذه الفترة إلى معبد الأقصر لأهمية الفوج السياحي الشديدة. انطلت عليك اللعبة وخدعتك يا طفلي العزيز الذي يبدو أنني لم أعرف كيف أعوضه عن أمه في حياتها أو مماتها رغم حبي العظيم له.. فكيف أعتذر لك؟

فوجئت باتصاله الفوري بالمتحف قبل انصراف الموظفين، بينما إجازته ممتدة ليومين قادمين، فعاودني الشك من جديد.. هل يعقل آدمي أن تكون هي تلك السيدة العجوز الوقور التي رأيتها في المتحف؟!.. إني أرفع وأعف بكثير من أن أضعها المقارنة والتنافس، فالوجه الحقيقي لا يدخل في منافسة مع قناع. وأنا وجه مشرق جميل الوضوح يعكس ما بصدري من حرية وتلقائية وانطلاق. أما هي فقناع من الصمت والماكياج والشعر المستعار والكلمات المقتضبة.. ثم إنها في عمر أم حليم.. لا.. ليست هي ولن تكون أبدا.

هناك سبب آخر.. إذا أراد حليم أن يهجرني إلى امرأة أخرى فأنا أول من يعلم أنه يرتعد خوفا من الزنا ويردد دائما أنه يورث الفقر. ولأني أكثر واقعية منه كما قلت لأخي، فإني أعترف أن تقدمي عليه في السن بعامين جعلني أسبقه في الزهد في تلك العلاقة الجسدية الحميمة لقلة احتياجي لها رغم أنه مازال في عنفوانه.. وهو معذور حين يعزى تباعده عني لقلة رغبتي.. تلزمه إذن امرأة تصغره بعدة أعوام تستنفر حيويته من جديد.. أحيانا أفكر في ذلك وغالبا ما أستبعد أن يكون هو السبب ، فهل يساوي هذا الأمر أن يتخلى عن مسئولياته تجاه محمد الذي يبحث عن شقة لا يمتلك من ثمنها شيئا يذكر، أو عن فاطمة التي يتطلب جهازها عشرات

الآلاف من الجنيهات؟.. وهل هذا الأمر في هذا العمر يساوي أن يتخلى عني؟.. إني أشك في ذلك.

دخلت إلى الحمام.. وبينما أغوص في الماء رحت أغني في طمأنينة بالغة، وأقذف برذاذ الصابون في الهواء كاتمة ضحكاتي – التي لا أعرف لها سببا - في البداية، ثم مطلقة لها العنان فيما بعد.

(24)
الدكتورة مدينة

1988

أيام الجامعة أحببت زميلا لي في صمت خائب فلم يدر بي. كانت غلطة عمري مثلما كان نقطة التحول في طباعي وفي حياتي بأسرها. أدفع اليوم ثمنها غربة ووحدة وضياعا. ويظن حليم أن رواج كتبي السياسية في أمريكا ومصر هو قمة المجد والانتصار على الحياة. إنه لا يدرك معنى أن يتصادف موتى فجأة في الفيلا الضخمة التي أعيش فيها بمفردي حيث لا تحضر الخادمة إلا يومين كل أسبوع. قد تتعفن جثتي لو أصاب الخادمة طارئ مفاجئ فلم تحضر. وحتى إذا مت بجوارها فكيف يكون تجهيزي للقبر وللحياة الآخرة.. وأين سيكون إخوتي وأخواتي المقيمين بالإسكندرية والقاهرة.. جثة دكتورة في الاقتصاد السياسي مهاجرة من مصر منذ ثلاثين عاما تدفن في لحظة ما في مكان ما – غريبة مغتربة مغربة – ثم تنسى على الفور. لا قرآن ولا عزاء ولا لوعة أحبة ولا مقبرة تزار ولا ذكرى تبقى.

حتى لو حضرني سمير زخاري – صديقي المصري الوحيد هنا- فماذا سيفعل بي غير الحزن الوقتي على سنوات الزمالة الطويلة التي أمضيناها في مصر معا وفي أمريكا.. ثم لن يلبث أن يطلق ضحكته الساخرة المجلجلة قائلا:

- رقدت على رجاء القيامة المقدسة المرحومة مدينة محمود. عاشت عذراء وماتت عذراء.. عليها رحمة الله تعالى. وطوبي لمن اخترته وقبلته يا رب ليسكن في ديارك إلى الأبد!..

ثم يعود إلى زوجته وأولاده..

هذا السمير الرائع لا يستطيع أحد القول بأنه مسيحي أو مسلم أو يهودي.. عليه اللعنة، فهو الذي أضاع مني ذلك الزميل إذ جعله يعتقد أنه-أى سمير- سوف يسلم ويتزوجني فصدق دعابته الرجل الطيب وبارك قوله وتزوج من غيري وتركني في صقيع أمريكا الكريه.. أقرأ الكتب وألتهم المراجع والسجائر وأفنى عمري في تجميع معلومات وتدريسها، ونشر بعضها في الصحف والمجلات العربية على وجه الخصوص.. لا زوج ولا ولد ولا عزوة ولا سند، فلا أقل من أن أقدم شيئا إلى وطني العربي الذي يشبعه سمير سخرية بالأدلة والمنطق لشدة يأسه من احتمال نهضته من جديد.

وكلما شعرت بالوحدة صببت غضبي على سمير فيقول لي:

-لا تلقى على باللوم، فخجلك الشديد – سابقا – هو الذي أضاع منك حبيبك وليست دعابتي معه بشأن إشهار إسلامي لأتزوجك.

إن مراسلاتي القليلة لحليم صادق – أعز أصدقائي في مصر بأسرها – هي الرباط الوطني الحميم الذي يصلني بجذري والذي يشفيني من شدة الحنين الذي لا ينقطع إلى الوطن، بعد أن أصبح من المستحيل أن أعود إليه تاركة حياتي هنا، لأعاني من اغتراب أشد قسوة مما أعانيه الآن.

حاول سمير مرارا – قبل أن يتزوج – إقناعي بحياة متحررة نحياها معا بلا زواج، مثلما فعل سارتر وسيمون دي بوفوار على حد قوله، على الأقل يؤنس كل منا الآخر في غربته، ولكني آثرت الحرمان ودفنت روحي وجسدي في الكتب.

وليت رسالتي قد وصلت إلى قومي كما أريد وأحلم وأتمني.. إني أشك في ذلك تماما، فأنا أقول وأكتب وغيري يقول ويكتب ومازال العرب يغطون في نوم عميق وكأنهم ينفذون بروتوكولات حكماء صهيون تنفيذا حرفيا متقنا بأكثر مما تصور اليهود أن تكون دقة التنفيذ.

قلت يوما لسمير وأنا في قمة الغضب:

- تخيل أن هناك ما يقرب من أربعة ملايين لغم منبثة في أرض مصر بالعلمين، حيث تحارب الأغراب عليها وتركوها تائهة بلا خرائط، والنتيجة بوار مليون فدان من الأراضي الزراعية وضياع ثروات معدنية وبترولية ومياه جوفية لا تقدر بمال، فضلا عن مئات القتلى والمشوهين كل عام.. هل رأيت إلى أي مدى يصل احتقار الغرب لنا؟!

تجاهل قولي بخبثه الظريف الذي اعتدته وقال:
- وهل رأيت اهتمام فقهاء مصر هذه الأيام بقضية الرجل ذي الفرعين؟
- بماذا تهذي؟
- إن الجرائد مازالت مختلفة حول حكم الرجل إذا كان يمتلك قضيبا بفرعين وجامع امرأة من قبل ودبر في آن واحد.. فهل يجب عليه أن يغتسل مرتين؟!

بم أفادتني الأموال اليوم وقد دخلت أبواب العقد السادس وفيم أنفقها وهي مكدسة في البنوك، وأنا لست بحاجة إلى المزيد من طعام أو شراب أو سكن أو كساء. سوف يأتي يوم أكتب فيه قسطا كبيرا من ثروتي لأبناء حليم: محمد وفاطمة بعد أن صارا شبابا بحاجة إلى المساعدة. أنا أدرك أن حنان أبيهم وعطفه ومودته وطيبة قلبه النادرة تعوضهم عن ملايين الجنيهات. وأشعر من خطاباته أنه يتمتع بقدر كبير من الإيمان يجعله واثقا في كرم الله وعطائه فلا ينعي للمستقبل هما، وإنما يواصل حياته السعيدة مع عايدة والأولاد في أمان وبلا قلق على المستقبل، رغم أن يديه فارغتان بحكم وظيفته الحكومية العظيمة والتي ينطبق عليها المثل الشعبي الدارج "الصيت ولا الغنى".

قارنت وضع حليم الفنان المثقف بما قرأته عن قصر سلطان بروناي الذي يقدر بنصف مليار دولار، فعرضت الجريدة على سمير وسألته الرأي في تلك المقارنة السخيفة. أجاب ساخرا:
- أنصحك بالزواج من هذا السلطان والانضمام إلى حريمه ودعى عنك هم الكتب والعذرية.

فجأة سألته:
- اسمع يا سمير.. لماذا لا نعود إلى مصر؟
- من؟
- أنا وأنت وأسرتك.
- لماذا؟
- لنعيش بقية عمرنا وسط أهلينا.
- هل تتصورين حال مصر الآن أم أنك تطلقين الكلام على عواهنه ؟
- صف لي تصوراتك أنت.
- يقولون إن مصر أغني دولة مفلسة في العالم، تجمع بين اشتراكية من النمط القديم، وإصلاحات تتمشى مع السوق الحرة، وبين حكومة شبه مفلسة وثروات خاصة طائلة.
- من هؤلاء الذين يقولون ذلك؟.. المصريون؟
- هذا قول دبلوماسي غربي في حديث له بصحيفة لندنية.
- إنه كاذب ومغرض.
- لدي دليل بسيط على صدقه.
- ما هو؟
- ما ذكرته لي من قليل عن الحالة الاقتصادية لأسرة حليم الموظف المفلس الشريف وكل من على شاكلته.
- رغم ذلك فأنا أفكر جديا في العودة للعيش بين أهلي ووطني.
- لكن الأمر يختلف معي.
- لماذا؟
- الإرهاب.
- الإرهاب ليس قاصرا على الأقباط وأنت تعلم جيدا.
- لدي فكرة جيدة.
- ما هي؟

- **غدا موعد الدكتورة مريم مع الدكتور على الفيتوري لاستلام أوراق تعيينها بجامعتكم المدللة الشبيهة بفنادق الخمسة نجوم.**
- **وما شأن هذا بموضوعنا؟**
- **نشركها في الحوار فمعلوماتها عن مصر الآن وفيرة وربما أفدنا من آرائها.**
- **أراها متشبثة بأمريكا ولولا بقية من حياء لأعلنت كراهيتها لمصر بسبب اغتيال شقيقها.**
- **ضعي نفسك مكانها فربما التمست لها بعض العذر ولا أقول كله.**

***

(25)
سمير زخاري

1988

طال انتظارنا لخروج الدكتورة مريم – الحزينة حتى الموت على شقيقها – من مكتب الدكتور على الفيتوري. كنا نتحدث عن العلاقة بين الإرهاب والأديان الثلاثة. قالت مدينة إن الإسلام يرفض الإرهاب تماما مدللة على ذلك بآيات قرآنية مثل: "لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغى " و " أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن " وأكدت على أكثر من نص قرآني يشير إلى المحبة الواجبة بين المسلمين وأهل الكتاب مثل: "لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ".. قلت لها:

- ذلك شيء رائع.. واقسم أنني أصدقه.

ثم لخصت لها ما قرأته في نسخة من جريدة معارضة يقول فيها كاتبها المسلم (*) ما معناه إن الأديان السماوية الثلاثة لا تتبادل التسامح والاحترام، من اليهودية التي أباحت السرقة من مال غير اليهود والزنا بغير اليهود واقتضاء الربا من غير اليهود، إلى المسيحية بقول المسيح عليه السلام: " أجبرهم على الدخول حتى يمتلئ بيتي "، إلى الإسلام حيث يذكر النص القرآني الصريح: " ومن ابتغى غير الاسلام دينا فلن يقبل منه"..فكيف يمكن اذن أن ننفي اتصال العنف واستخدام القوة بهيكل الدين؟!

قالت مدينة بثقة إن كل هذا الكلام مردود عليه وأشعلت سيجارة وقالت:

- **ادخل لتخرج المرأة المصرية من مكتب الرجل المصري فقد تأخرت.**
- **لكن السكرتيرة في دورة المياه.**
- **أدخل فورا فالمصري بعد أن تأمرك لم يعد يعبأ بهذه الشكليات.**

فتحت الباب فجأة فهالني ما رأيت. أغلقته على الفور وخرجت ألهث عائدا إلى مدينة وكأني جربت عشر كيلومترات في نفس واحد. نظرت إلىّ كالمصعوقة.

- **ماذا حدث؟**
- **لا يمكن!!**
- **ما هذا الذي لا يمكن؟**
- **الذي رأيته بعيني.**
- **هف.. وما الذي رأيته بعينيك لا تقرفني.**
- **الدكتورة جالسة على حجر الدكتور وهو يعبث بصدرها في استرخاء حالم.**
- **وهي؟**
- **صامتة لا تقاوم.**

اندفعت مدينة ثائرة متجهة إلى المكتب..

- **سأدخل لأمنع هذا العار.**

ظللت جالسا في ذهولي على مقعدي بالاستراحة. دخلت مدينة ومن خلفها جاءت السكرتيرة مسرعة لتحاول منعها بعد فوات الأوان.

خرجت مدينة مبتسمة في عتاب واثق:

- **ألن تكف عن ألاعيبك القذرة هذه؟**
- **ماذا رأيت؟**
- **الدكتورة جالسة في أمان الله والرجل يناولها الورق وهي الآن تصافحه وستخرج حالا.**

***

وجدت أنه من الأكرام لي ولمريم ولمدينة أيضا أن أقبل على نفسي الاتهام بالألاعيب القذرة وأصمت عما رأيت، ولكني أبدا لن أصمت عن هذا أمام حليم لو قدر لي أن ألقاه يوما.

(*)حسين أحمد أمين – جريدة العربي الناصري.

***

خرجت وعلى وجهها علامات فرحة مكتومة لكنها طاغية، وتبدو حافلة بالتشفي من شيء ما.. دعتنا لتناول الطعام في أحد المطاعم على نفقتها. كنت أتحاشي النظر بعمق في عينيها كلما تبادلنا الحديث، وكأني أنا الذي كنت جالسا على حجر ذلك الرجل المعتوه منذ قليل.

خلال الطعام والشراب صرحت لنا بأنها تخطط في النهاية للهجرة إلى أمريكا، وربما يسبقها إليها ابنها بشارة الذي قالت إنه لا مستقبل له في مصر.

سألتها مدينة في دهشة:

- وماذا عن الدكتور وفيق؟
- لو أراد الهجرة معنا فأهلا به، ولو أراد البقاء بمصر فليفعل ما يريحه.

قلت لها ساخرا من تناقضها يائسا من صدقها:

- لكن وصية الزيجة المقدسة تقول إنه يجب عليك ألا تخالفي أمره ولا رأيه.
- هذا صحيح، ولكن إن كان له رأى.
- لكنك لم تقولي رأيك في فكرة العودة إلى مصر حاليا.

صمتت قليلا ثم قالت:

- أحدثكم عن مصر ونحن نشرب الشاي.

وانطلقت في الكلام لا يحدها حد ولا يوقفها مجرد تساؤل عارض. أخرجت من حقيبتها صورا من الميكروفيلم لعشرات الجرائد والمجلات المصرية ووضعتها أمامنا قائلة:

- ما سأقوله موجود هنا. وبالنسبة لك يا دكتورة مدينة فقد لا تكون هناك مشكلة، أما بالنسبة لسمير وغيره من أقباط مصر فعليهم قبل العودة أن يراجعوا أنفسهم مائة مرة قبل ألا يجدي الندم.
- كيف؟
- عليهم أن يعلموا أن الأمر العثماني بالخط الهمايوني مازال يحكم أمر بناء كنيسة واحدة في مصر.. هل نسوا حرق كنيسة الخانكة وضرب الكنائس ليلة عيد الميلاد عام 1980 والبابا يخطب؛ هل يمكن أن ينسوا يوم 5 سبتمبر 1981 حين اعتقل السادات أربعة وعشرين علمانيا وثمانية أساقفة وأربعة آباء كهنة من الإسكندرية أحدهم كان ابن عمي ؟

قال لها سمير بهدوء:

- اسمعي يا دكتورة مريم. أنت بهذا المنطق لا تختلفين في قليل أو كثير عن العامة.
- نعم؟!
- معذرة لقولي ولكني أريد أن أؤكد على أن المسألة أكبر من ذلك.
- ما معنى هذا؟
- أنت تعلمين أن كل دين يتباهى بنفسه، فاليهود "شعب الله المختار"، ونحن "أبناء الله"، والمسلمون " خير أمة أخرجت للناس " .. تلك هي رؤية العوام لأديانهم، أما نحن فدورنا خطير لتفادي ما ذكرت من كوارث.
- إذن فاذهب إلى مصر لتمارس هذا الدور في مجلس الشعب حيث يمثل الأقباط فيه واحد بالمائة من عدد أعضائه.. واحد في المائة يا أستاذ.

قررت إنهاء الحديث معها على طريقتي فقلت لها بجدية أدهشتها:

- أقول لك الحق.. لقد مات أبي وتكاد أمي المسكينة أن تلحق به.. وتفرق إخوتي في البلاد، ولكن حليم يوحشني كثيرا.
- من حليم هذا؟!

***

(26)
حليم صادق

1993

يكاد العام الأول على التقائنا القدري ينتهي وحبنا حبيس عربتي أو عربتها أو التليفون الذي يصل بيننا لدقائق خاطفة. ينتابها رعب شديد كلما ذهبنا بأي العربتين إلى مكان مهما ابتعد عن قلب البلد. هي تخاف أن يرانا أحد. وأنا أخاف عليها من نفس السبب. يفسد التوتر اللقاء. نعجز عن الخلوة في مكان آمن. كم أتوق إلى قبلة من شفتيها الحبيبتين فيحول كفها الحبيب دون ذلك. أهناك حب أعجز من هذا الحب؟.. إن حالنا من حال شجيرة الجوافة المحدودة الجذر غير المثمرة، القابعة على نافذة مكتبي.

لقد صرت استعذب عذابي بها وأرى القرب حتى في ابتعادها عني، وأصبح عزائي في حياتي الآن أنني أحب كل ما تحبه مريم وأرفض كل ما ترفضه، فأمنيتي الباقية هي أن أرضيها وأريحها وأسعدها كيفما شاءت.

إنها تمتلك أكثر من شقة في المدينة، كما أنها تمتلك مسكنا صيفيا نائيا يظل مغلقا طوال العام إلا من أسابيع قليلة. لو كانت ترغب في خلوتنا حقا لألمحت لي ولو بإشارة عابرة إلى تلك الإمكانيات المتاحة لديها في معرض حديث مناسب، حتى أجرؤ على مفاتحتها. ولو كنت أملك الجرأة حقا لدعوتها إلى مصيف الأسرة بالعجمي والذي يظل مغلقا هو الآخر معظم العام. إني أخاف أن تسئ بي الظن فتهجرني لو طلبت منها أن أصحبها إلى هناك.. ولكن لأني خفت أن أموت قبل أن أقبلها فإني سألتها بوجد عظيم:

- متى أتمكن من الاختلاء بك ولو لعشرة دقائق؟

انفجرت في ضحكة صادقة من القلب أراها على وجهها لأول مرة حتى أنني ذهلت.

- ولماذا تريد أن تختلي بي؟
- أريد أن أضع رأسي على صدرك وأحتويك بذارعي ولا أنطق حرفا.. فقط أستمع إلى أنفاسي وأنفاسك.
- الله.. وما رأيك في عرض عظيم آخر؟

أرأيت أيها الرومانسي الحالم السعيد كيف تقتحم النساء، فأنت تنوى منذ عامين ولا تقول. تقرر ثم تتردد. تريد ثم تتراجع. أنت تخشى عليها من أن تطغى عليك عاطفتك فتنقض عهدك.. مزيدا من الجرأة يا رجل ودعك من حيرتك وعذابك.. ها هي قد استسلمت لك في لحظة.. لكنها واثقة من أنك صادق في كل حرف نطق به لسانك، وأنك لا تبغي من وراء ذلك غير تجنب عيون الناس، وإلا لما سمحت لك بإكمال تساؤلك الذليل عن عرضها العظيم!

وإذا بها تفاجئني في غمرة حيرتي قائلة بفرحة شديدة.

- إني مسافرة غدا إلى القاهرة لأمر هام.
- خيرا؟

سألتني بعينين باسمتين ماكرتين سؤالا هو أمر لا رجعة فيه، وإغراء لا محالة من الاستسلام له:

- هل تأتي معي؟
- طبعا.
- ألديك مصلحة تقضيها في القاهرة ثم نعود معا؟
- لا.. ولكني آت معك.
- سأحجز في السوبرجيت تذكرة للساعة الساعة السابعة والنصف مساء.
- بل أنا الذي سيحجز التذكرتين.
- من المؤكد أننا سنكون في مأمن من العيون لمدة ساعات ثلاث.
- هذا ما لم يركب معنا أحد يعرفنا.. ولكن ما هذا الأمر الهام؟
- لا تسأل كثيرا يا أخي.. ألا تكفيك صحبتي؟!

في السابعة كنت أقف بعيدا عن موقف العربة أرقب وجوه المسافرين. هل يعرفها أو يعرفني أحدهم؟.. هل كتب على هذا اللقاء ألا يتم خشية الناس وعيونهم وألسنتهم ممن يحرمون علينا الحب ويحللون لأنفسهم التسلط ودس الأنوف في حياة الآخرين؟.. هل تأتي المصادفة بواحد ممن فوضوا أنفسهم عن الإله، فيبدأ بإذاعة السر بفحيح هامس في آذان الآخرين؟:" حليم ومريم يلتقيان في الخفاء".. "رأيتهما بعيني جالسين على مقعدين متجاورين في الباص المسافر إلى القاهرة.. لا بد أنهما ذاهبان لقضاء ليلة بأحد الفنادق بعيدا عن الإسكندرية. من المؤكد أنهما فقدا عقليهما. أيعقل بعد أن بلغا هذا العمر أن يرتكبا الفاحشة؟.. ألا يخافان الله. ألا يتقيانه في زوجيهما وأولادهما. أبلغت بهما الشهوة حد الجنون، وقد نال كل منهما حظه من الدنيا فلم يشبع ولم يرتو، وإنما يطمع في المزيد ولو لم يكن من حقه أو على حساب الآخرين.. أبهذه البساطة يمارسان الفسق والخيانة والفجور؟!.."

بعد ذلك يشاع النبأ بهذه الصورة القبيحة حتى يصل إلى الأصدقاء والمعارف ثم إلى الأهل والأقارب وأخيرا إلى زوجها وزوجتي، فتكون النهاية المدمرة التي يريدها الجبناء.. أم أننا نحن الجبناء لأننا نخافهم ونرتعد فزعا من عيونهم وألسنتهم فنبذل المستحيل حتى لا يكتشفوا أمرنا، وما هي الشجاعة لو كانوا هم أو كنا نحن الجبناء؟.. وما الحلال لو كانت مشاعر الحب النبيل البريء أمرا محرما، وما الحرام لو كان التجسس وسوء الظن وإطلاق الشائعات بلا سند حلالا طيبا.. يا رب لم كتبت علينا هذا العناء؟..

لقد ملكت فؤادي يا مريم ولا يسئل في الحب عاشق عن السبب.. ملكت فؤادي فأصبحت أنسى ووحشتي وسجني وحريتي، ومادمت أنا أنت فلا يهمني سجن ولا تعنيني حرية.. فقط منيّ على بنظرة فاهمة لحالي حريصة على مآلي.

مازالت واقفة أمام حقيبتها بانتظار فتح باب الأتوبيس وعيناها شاخصتان في الاتجاه الذي تتوقع قدومي منه. يا مريم لا تخافي ولا تقلقي فأنا واقف من خلفك أحرسك بروحي وعيني خوفا من بطشهم.

لم أر وجها مألوفا من الركاب. كان معظمهم من المصطافين القادمين من خارج الإسكندرية. الحمد لله. علام تحمد الله يا رجل وأنت تعلم أنك تخالفه. الأولى بك أن تستغفره وتعود إلى بيتك محترما. الأجدر بك أن تعود إليه وتتوب إليه وتنهي على الفور تلك العلاقة المشبوهة. الأكرم أن تدع هذه السيدة المسكينة الضعيفة لحالها حتى تعيش في سلام كما كانت قبل أن تستولي عليها بشياطينك النارية وكلماتك الساحرة التي أطارت عقلها وأطاشت بصوابها. أدركت بخبثك أنها لم تعرف الحب، فنفذت – وأنت الشيطان غير المرئي – إلى قلبها. رأيت الحياة تدب في عينيها حتى صار لها بريق عذب بعد أن كان الموت راقدا في أعماقها، فنسيت نفسك وتقدمت. رأيت الدماء في وجنتيها وهي تتعثر في خجل الفتيات وحيائهن. تجاسرت واندفعت واقتحمت غير عابئ بدنيا أو آخرة. شيطان آدمي ملائكي يمس بشفافيته الجهنمية نبضات قلبها المتعطش إلى الحياة والحب فيكهربه ويشعل في دمائه النيران. جريمة كاملة تحمل وزرها أمام الله وحدك. شعورك بالذنب يكفي لتحليل خطايا البشر..

فتح الباب. تحرك الطابور ومازالت مريم تبحث عني. بعد خمس دقائق تتحرك العربة. يبدو أنها يئست من حضوري فبان على وجهها الحبيب حزن عميق أسعدني.

تسللت من ورائها دون أن تدري وصعدت. جلست على مقعدي أنتظرها لأستمتع بوقع المفاجأة على وجهها البريء. " عظيم هو سر التقوى".. فلماذا لا تكون حقيقة الأمر معكوسة في خيالك الساذج الذي أفرزته نواياك الطيبة وأسفر عنه غرورك الأحمق؟!

إنه عالم مختلق من صنع تصوراتك الواهمة. أنت وحدك صانعه بمعزل عما ينطوي عليه صدرها من أسرار لم تبح ولن تبوح بها إليك أبدا. ما أنت إلا غر أخضر العود منتفخ بذاتك المتضخمة فلا أنت شيطان ولا ملاك. لست أنت المقتحم الجسور كما تجزم وتقطع. لست ذلك المجرم الذي تثقل به على نفسك فتحملها بالذنب والندم والقلق والإشفاق على الضحية. ما أنت إلا مخدوع بنظرات عينيها الثاقبة المستكينة. الحالمة الجريئة. الوديعة القاسية. أنت أسير

لسحر هاتين العينين العسليتين الغارقتين في الصمت والتأمل. ترى فيهما نجمتين وفي ذراعيها جناحين وفي قلبها نهرا يفيض بالحب وفي كلماتها أعذب أغنية في الوجود. أليست هذه " الملاك الطاهر" التي صنعتها هي نفس السيدة التي تخلت في لحظات عن حياتها الطويلة مع زوجها المعطاء ووهبت قلبها لحب رجل جديد ببساطة من يطفئ عقب سيجارة في منفضة؟!.. أترضى أن تفعل عايدة بك هذا؟.. أتتصوره؟ أيمكنك أن تتخيل حدوثه ثم تقبله حين تدرك أنه بات أمرا واقعا؟ أين المنطق في فكر المرأة حين تحب وحين تخون ولو حتى بقلبها؟.. إنها تستغل براءتك التي لا تدري أنت بها عن نفسك. تتعمد الصمت والتدلل حتى يزداد عذابك وانصهارك في حبها بلا أمل.. تتعمد التمنع وتعمد إلى الإبطاء في الاستجابة إليك حتى تدخل في روعك وفي يقينك أنك ذئب جارح برع في اقتناص حمل وديع. الملاك الذي جسده خيالك البائس ما هو إلا امرأة تعرف ماذا تريد كيفا وكما.. في البداية اختارت الرجل المقتدر الناجح كزوج يضمن لها حياة مرفهة. أنجبت له وسافرت معه إلى الشرق والغرب فتمتعت عيناها بكل مباهج الحياة الدنيا حتى نضب معينه وقد أعطى كل ما عنده ، فشرعت تفكر في الحصول منك على ما كان من المستحيل أن تحصل عليه بين أحضانه.

وانكببت على وجهك أيها الفارس المغوار الصنديد الذي لا يشق له في عالم النساء غبار.. انكببت على وجهك يا مسكين والندم يأكل قلبك لأنك تخالف تعاليم دينك وتدفعها – يا عيني – إلى مخالفة تعاليم دينها فتحمل ذنبها وذنبك على كاهلك وحدك، وينوء صدرك بعذاب لا يحتمله بشر.. وملاكك يا صغيري لا يدري شيئا عما يفور بداخلك ويكويك ويحرقك مهما أبدى لك من تفهم وتعاطف بكلمات لا تصدر من الفم وإنما من العينين، ومهما أتقن أداء دور الضحية المغلوبة على أمرها، الواقعة تحت سطوة رجولتك وفحولتك وذكائك وعنتريتك..

ولكن.. ما يمسك يمسني يا مريم, فروحي وروحك خمرة مزجت بماء زلال حتى صارتا روحا واحدة، وحتى لم يبق في قلبي وأحشائي جارحة لا تنبض باسمك الحبيب: مريم.. مريم.. مريم.. مريم..

ها هي تتهادى كمليكة في الممشى الطويل بالعربة وقد وقعت عيناها عليك.. أذابتك ابتسامتها الحنون فأحالتك إلى قطرة من الندى، وأفسحت لها كي تجلس على مقعدها بجوارك، فما أجملك أيتها اللحظة العبقرية. تمهلي ولا تمضي سريعا إلى قاع الزمن السحيق. تمهلي حتى أسعد بفرحتك وأفرح بقدومك السعيد، فما أسهل فناء عمر الفرحة وما أسرع اندحار لحظات السعادة.

إلى الجحيم أيتها الأفكار البشعة والظنون السوداء. كيف يجرؤ خيالك يا حليم أن يفكر بعقل سمير زخاري؟.. إن الحب عدو الفكر فكيف تضعهما معا في عقلك مرة وفي قلبك مرة فلا تطول الدنيا ولا تطول الآخرة.

ما أن جلست حتى فاح عطرها في دمي. احتضنت ابتسامة ثغرها النبيذي المعبود، فانسابت في دنياي جداول الماء وغردت العصافير وضحك القمر، وصدحت الموسيقا في قاعة المسرح الروماني، وسمعت دندنات من أنغام الشرق شجية باقية لا تعرف الفناء.. ولن يمحى هذا اللقاء من خاطري ما دمت حيا.

في دمي أنت يا مريم وبين جلدي وعظمي. لم يعد بقلبي متسع لغيرك، أهيم في بحر هواك الأعظم بين أمواجه العاتية القاسية ترفعني وتهوى بي، ثم تقذفني إلى شاطئ صدرك الحنون الذي أحلم أن يتلقفني لحظتها فتعود إليّ طمأنينة قلبي وسكينة نفسي، ولا تسكن خاطري حينذاك إلا فكرة واحدة هي ألا أفقدك يوما فتظلين متربعة على عرش قلبي تبثين في أرجائه أنوارك العطرة.

سألتها إن كانت قد فقدت الأمل في حضوري فأجابت في دلال بأنها كانت واثقة من مجيئي.

نظرت إليها في امتنان ومودة حين قالت في ارتباك مضحك:

- ماذا أفعل بنفسي؟.. ماذا لو رآنا أحد الآن؟

- ربنا يستر.
- ما نفعله هو الجنون بعينه.

كانت لهفتي إلى كفها طاغية، فوضعت يدي على المقعد في المسافة الضئيلة الفاصلة بيننا، لكنها لم تنتبه فقلت لها بحروف منومة:

- هاتي كفك.

نظرت إلى في حيرة من المفاجأة. ترددت قليلا لكن كفها الصغير لم يعبأ بترددها فأسلم نفسه لراحتي التي احتضنته في رفق وامتزاج. ما أن تلامسنا حتى سري في جسدي لهيب مقدس يشعل القلب والعصب فيثير دخانا يعبق برائحة ثمار الجنة. كانت تصل إلى مسامعي وشوشة أناملنا وهي تتناجي في دقة هامسة، وأنفاسها تتهدج في انفعال لا يعرفه إلا الصمت.. ذابت خلاياها في خلاياي تحت جلودنا وكان نبض عروقها البارز يدفع بالدماء في عروقي ونور العربة الخافت يعزف على كلمات الخلايا لحن الحياة الأولى عند بدء الخليقة. كانت السنابل تهتز طربا في حديقة حبنا الصامت الممنوع، وكان الليل رائعا ترقص فيه الكواكب وتغني النجوم.. يا إلهي.. أهذا حرام؟!..

آه لو أحببتني يا مريم كما أحببتك.. سوف أتنفس حبك في طلوع الشمس وغروبها. سأتكلم بلسان حبك في صمتي وفي نطقي. ولسوف أذكرك فرحانا وحزنان.سعيدا وحيران. ومائي حين أشربه فهو مريم وهوائي حين أتنسمه فهو من هوى مريم – إني يا حبيبتي أحبك فوق الحب.

ازدادت إضاءة العربة فجأة فانتفضت مريم في فزع تسحب كفها بسرعة من يدي لكني تشبثت به في قوة، وخيل إليها أن ركاب العربة بلا استثناء يرقبوننا ولا يعنيهم من الدنيا في تلك اللحظات غير مراقبتنا.

- لماذا؟
- كفى . إني مرتبكة جدا لما أفعله بنفسي.

يا مريم ما تفعلينه بنفسك أو أفعله بها أو بنفسي أصبح أمرا فوق إرادتنا ورغبتنا وقدراتنا، فالحقيقة أننا تلاشينا ولم يعد أمرنا بيدنا وقد سلمناه للقدر. نحن الآن عابدان في صومعة الحب المباركة. على العقل أن يستريح، فحديث خلايانا لا شأن له به لأنه لا يدركه. كوني على ثقة يا حبيبتي أن لحديث العقل لغة ولحديث خلايانا لغة، وان جن سليمان لو اجتمعوا على ترجمة هذه إلى تلك فلسوف يعجزون.

.. وساد صمت طويل.

أخرجي عن صمتك يا مريم ودعي متنفسا بقلبي لأشجانك فأنا ملاذك الأخير. لا ترددي فإني عزمت على انتزاع الحزن من قاع عينيك وقرار قلبك، وأقسمت أن أزرع الفرح في روحك.. تكلمي يا مريم.. لم تعذبينني وأنت منيتي؟.. تدنيني منك بوصل فأحسب أني أقرب الناس إليك، وتقصيني عنك بفصل وأنت حاضرة وأنت غائبة فأكاد أفنى في حروف اسمك الساكنة في روحي وترديد أنفاسك الذائبة في شراييني.

- لم أعد قادرة على الذهاب إلى الكنيسة للاعتراف بسببك.

لم أكن على دراية كافية بأصول هذا الطقس الديني المسيحي فسألتها بتلقائية:

- بماذا تعترفين؟
- أتجهل أن حبنا خطيئة؟
- آه.. هذه قضية أخرى.. ولكن لمن تعترفين ؟
- للقسيس طبعا.. أبونا.

كانت دهشتي صادقة حقا حين قلت لها متسائلا:

- ولماذا لا تتجهين إلى الله مباشرة بلا وسيط؟

صمتت قليلا ثم قالت وقد أحسست أنها أخفت إجابتها الحقيقية:

- هكذا وجدنا آباءنا وأمهاتنا.

- وهل يمنع هذا أن تتجاوزي العبد إلى الرب مباشرة؟

لم تجب وأدركت أنها تشعر بحرج شديد فقلت لها:

- إن رب الأديان واحد فلم لا تفعلين مثلما فعلت أنا؟
- وماذا فعلت؟
- اتجهت إليه في صلاتي خاشعا دامعا منتفض الجوارح داعيا له أن يقيني ويقيك شر نفسي.
- أنا واثقة من صدق نواياك لكنك لن تكون ملاكا إلى الأبد.
- لهذا لا أكف عن الدعاء حتى يظل حبنا طاهرا.
- عدنا إلى القضية.
- نعم وأنا أعلم أن كلينا يعاني شعورا بالذنب تجاه زوجه والزوج الآخر.

قالت بحماس صبياني وكأنها تصيدت لي خطأ قاتلا:

- شفت.. كل منا إذن يعذب نفسه.
- وما الحياة بغير عذاب الحب؟
- مهما بلغ نبل مشاعرك ومهما اتحدت روحانا في الخيال، فالحقيقة باقية وهي أن كلينا متزوج.

أمسكت بيدها ضاغطا في حنان على أناملها الأنيقة المستسلمة لقبضتي في وداعة، وجال بخاطري مشهد نسر يلتهم عصفورا فتساءلت: لماذا تأخر هذا الحب علينا طويلا ثم جاء بعد عشرات السنين يستبد بنا ويأمر وينهي كيف يشاء؟.. نقلت إليها تساؤلي وأنا أقبل يدها فقالت:

- نحمد الله على ذلك وإلا لكانت كارثة مؤكدة.
- لماذا؟
- ألا تعرف؟
- كان من الممكن أن نتزوج.
- بافتراض إمكان تحقيق مثل هذه المعجزة المستحيلة فإجابتي هي الرفض.
- لماذا؟
- لأنك كنت ستحب امرأة غيري بعد ثلاثين عاما من الزواج بي كما يحدث اليوم.

أردت أن أقول لها مداعبا:

- أو تحبين أنت رجلا غيري كما يحدث اليوم..

لكن لساني شل عن الكلام حتى لا أمس مشاعرها بأدنى قدر محتمل من الإساءة.

..عاودت الإمساك بيدها والتزمنا الصمت. سمعت صوت أنفاسها تتتابع في عناء، ولن أكون نعامة بعد خمسين عاما من الحياة لأنكر أن الجنس فاعل موجود ومؤثر في هذا التلامس، ورغم هبوط حدته بحكم العمر فإنه يبدو أكثر خطورة وأشد فتكا وتدميرا، فالمنحني آخذ في الهبوط والدنيا جذابة فاتنة مثيرة ساحرة لعوب، والاختيار الحاسم القاطع الباتر بينها وبين الآخرة صار أكثر استحالة في زماننا من لمس القمر. جال بخاطري تشبيه أحد الفقهاء للدنيا وخداعها بأنها قحبة حسناء تغازلك وتشير إليك وترغب فيك حتى إذا أجبتها ودنوت منها صاحت بالوالي وصرخت بالناس وأسلمتك إلى الفضيحة وزودتك الندامة وعض الأنامل من الغيظ.

قلت لها دون أن أدري.

- إن حبك يملأ قلبي ويفيض.
- هذا من فعل الشيطان.
- كيف؟
- لأنه يأخذ مكان حب الله في قلبك.
- لولا أن الله ساكن بقلبي ما رأيتك لأنه مملوء به.

وكنت حين أصلي أدعو الله أن يجعل الدنيا في يدي لا في قلبي حتى أزداد اقترابا منه. وكنت إذا سألت قلبي هل مريم هي الدنيا، تولت روحي عنه الإجابة فحار عقلي بينهما ولم أعد أعرف هل مريم في يدي أم في قلبي أم أنها تسكن الروح ولن تفارقها إلا حين يوافيني الأجل.

ولئن كانت تسكن قلبى العامر بحب الله فكيف بالله تسكن الدنيا والآخرة في حيز واحد.. و" ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه".. و"أنت لا تستطيع أن تخدم سيدين في وقت واحد".. وإن كانت تسكن روحي فكيف أعصى أمر ربي وأحلم بشفتيها ذائبتين بين شفتي في رحيق الحياة؟.. وإن كانت تقيم بيدي فهل يتسع قلبي لاحتواء كل هذا الحب بحيث لا تتسرب منه قطرة واحدة من بين أصابعي؟!.. وقلت لها:

- **إنني أحبك لأن رب القلوب وساكنها ومحركها هو الذي أراد لي ذلك فأطعته ولو أراد لي أن أكرهك لما خالفته.**
- **أنا أعرف أنك لا تكذب ولهذا سأفسر قولك بأنه خلط غير متعمد يدل على سوء الفهم.**
- **سامحك الله.**
- **صدقني يا حليم فالحلال والحرام لا يجتمعان.**

غرقت في حيرتي وتعثرت في تناقضي فلم يكن أمامي إلا أن أسألها من جديد:

- **وأنت؟.. هل تحبينني؟**

أومأت بنفس حيائها الرائع برأسها:

- **أريد أن أسمعها منك.**
- **لا أستطيع قولها.**

كان لا بد أن أنزل من قبلها بمحطة على الأقل تجنبا للمحاذير.. وقبل أن نفترق أردت أن أودعها بقبلة ولكنها وضعت كفها كالمعتاد بين وجهها وشفتي.. ونزلت مكسور الخاطر. بحثت عن مقهى قريب. شربت فنجانا من القهوة وعدت إلى الإسكندرية بعد نصف ساعة من وصولي إلى القاهرة، دون أن أعرف إلى أين كانت ذاهبة!

***

(27)
وفيق جرجس

1993

كل حياتي معها مفاجآت لا تعلن إلا في حينها. ها هي تعود من سفرة مفاجئة إلى القاهرة ومعها قرار من كبار المسئولين بتعيينها مرافقة سياحية لكبار زوار الدولة من الرؤساء والزعماء. لست أدري كيف تحصل مريم على كل ما تريد في زمن قياسي يشمل التفكير والتخطيط والتدبير والتنفيذ.

- **وعملك بالمتحف؟**
- **كان آخر عهدي به بالأمس.**
- **وأين سيكون مقر عملك الجديد؟**
- **في القاهرة طبعا.**
- **وأنا؟**
- **أنت إيه؟**
- **هل أعيش وحدي في البيت وفي العيادة مع بركات بعد أن تركت الجامعة وبعد أن يسافر بشارة إلى أمريكا على غير رغبتي بعد أن أرضعتيه من لبنها وشحنتيه بحبها وتقديسها؟**
- **لو شئت أن تحضر بركات للعيش معك بالمنزل فلا بأس.**
- **وإلى متى يستمر هذا الوضع؟**
- **حتى أحقق رغبتي الأخيرة.**
- **وما هي؟**
- **من المؤكد أنك ستعرفها في حينها.**
- **ولماذا لا أعرفها الآن؟.. ألست شريك حياتك؟!**
- **أنا أقر بالشركة لكني على ثقة أنها تدير نفسها بنفسها دون ضرورة تواجد الشريكين معا في كل لحظة لإدارتها.**
- **هكذا؟**
- **نعم. إنها شركة راسخة عتيقة. ألا تعرف أن عمرها الآن واحد وثلاثون عاما؟**

***

(28)
بشارة وفيق جرجس

1993

يقول الإنجيل " الله محبة" وأبي وأمي غير متحابين. يعلموننا في المدرسة أن الدين لله والوطن للجميع. فأجد من يحتكرون الله لأنفسهم وكذلك الوطن. يقولون إننا جزء مهم من الكتلة الإنسانية الحضارية للمصريين تختلف كلا وجزءا عن أكراد العراق وبربر المغرب ودروز إسرائيل وأرمن لبنان، ثم يحددون حركتنا في حدود معينة لا ينبغي لنا أن نتجاوزها. يقول القرآن " لا إكراه في الدين" و " جادلهم بالتي هي أحسن" فأرى بعيني أن المجادلة بالرصاص وأنه وإن لم يكن هناك إكراه على التخلي عن ديننا فإن هناك ما هو أسوأ من ذلك.. أن يجعلوك لا تطيق البقاء في وطنك حين تشعر أنك مواطن من الدرجة الثانية.

والحقيقة أنني قررت أن أستريح نهائيا من كل هذه المسائل، فطرحت الإنجيل والتوراة والقرآن جانبا ولم أعد أشغل بالي بمسألة الأديان على الإطلاق. أما الكنيسة فلم أزرها منذ تخرجت في الجامعة أكثر من مرات لا تتجاوز عدد أصابع اليدين.. وأما الوطن فلم يعد يعنيني في شيء إذ فقدت انتمائي إليه.

لم يبق إلا أبي وأمي ومجتمعي الصغير الآخر.. أبي اختار لنفسه أن يكون مسكينا مغلوبا على أمره وتلك مشكلته. أمي اختارت أن تصنع لنفسها أمجادا تعتقد أنها خارقة، بينما يخيل إلى أن دافعها الأوحد لصنع تلك الأمجاد هو تحدي المسلمين. أنا أحب أن أصنع لنفسي ما أحب. لهذا فقد تحررت من الله والوطن والوالدين، وأما ما دون ذلك فقد عدمت أهميته بالتبعية.

الحسنة الوحيدة في حياة أمي أنها في ثورة حماس عارمة منذ قتل خالي أعدت لي كل شيء حتى أعيش أنا وابني في أمريكا إلى الأبد.

أما الشيء الذي لم أقله لها فهو أنني لا أتمنى أن تلحق بي – كما تتصور – لتعيش معي هناك. أريد أن أعيش وحدي. أبدأ حياة إنسان ولد من جديد، وليكن حظي من الدنيا كيفما يكون.

***

(29)
جولييت مقار

1993

جاءني وفيق شاكيا من غرابة أطوار مريم وممارستها حياة تكاد تكون مستقلة عنه تماما. إنه يفتقد الأنس معها ويصفها بالجبارة متحجرة الفؤاد.

ماذا بيدي أن أفعل لكما يا مسكين وقد فقدت قرة عيني وولدي الوحيد ، ففقدت معه القدرة على الفعل والعطاء والإرادة والتمني أو الرغبة في أي شيء. أنا الذي تحجر فؤادي يا وفيق، ومهما قلت لك فلن تشعر بما أعانيه من حرقة وألم. منذ خمس سنوات يا وفيق والنار مشتعلة في قلبي لا يخبو سعارها. دمائي تغلي بالحقد والمرارة وليغفر لي الرب عجزي عن محبة القتلة أو مسامحتهم.. لو كنت قادرة على أن أنتقم منهم لما ترددت. ولكن ها أنت تراني في شيخوختي الموحشة لا حول لي ولا قوة. لو كنت رجلا حقا لما جئت تشكو لي عجزك عن كبح جماح زوجتك التي دمرت كيانها منذ الليلة الأولى التي جمعتك بها. دعك عنها أيها الجبان واذهب وقاتل دفاعا عن دم دانيال. لو ثأرت لدمه لتحولت مريم إلى خادمة مطيعة تقبع بين قدميك. إنني لم أجد ما أفعله في ذلك اليوم الأسود غير الصيام لثلاثة أشهر متوالية حتى كدت أموت. إنه حقا فعل سلبي لكنه أقصى ما كنت أستطيع فعله، فماذا فعلت أنت وماذا فعل الأقباط غير الاستنكار المتخاذل والصمت الأكثر تخاذلا؟ إني واثقة أن مريم تتحرك. تفكر وتقرر. دانيال مازال حيا في ضميرها وهي تناضل من مصر إلى أمريكا إلى مصر ليعرف العالم كله ما يحدث لنا. مريم لم تعد تضمر محبة تجاه مسلم أو مسلمة أما أنت فمعظم أصدقائك كانوا ومازالوا مسلمين، وكأن كارثة دانيال الحبيب لم تهز في جسدك شعره.

ما حاجتك أيها العجوز الأهتم إلى امرأة تنام كل يوم بجوار جثتك المترممة بعفن الجبن والضعف والشهوة البهيمية التي راحت منك رغم أنفك ولن تعود إلى الأبد. كلنا نعلم أن الله محبة. ولكني أعلم أنها لم تحبك أبدا فدعها تفعل لنا شيئا يشفي غليلي، حتى يأتي يوم قبل أن يدركني الموت أقيم سرادقا أتقبل فيه العزاء في روح دانيال حبيبي وقرة عيني.. اذهب.. إذهب ولا تعد.

***

(30)
وفيق جرجس

1993

هاهي الرسالة السادسة والأربعون من الرسائل الفارسية لمونتسكيو، والتي أرسلها أوزبك إلى صديقه رعدي في فينيسيا. أقرأها بعد أن ألهبتني تلك الحرباء جولييت بلسانها الذي يقطر السم وكادت أن تطردني من منزلها. شياطين الأرض تجوس في عقلي. أريد أن أفعل شيئا غير التردد على العيادة التي قل زبائنها لكثرة المستوصفات والمستشفيات الخيرية، ثم العودة خائبا إلى بيتي.. حتى بركات الحداد صار يهرب مني وله العذر فأسرته أحوج إليه مني.. وسوف أزوره في بيته غدا.

***

يقول أوزبك:

الإنسان يناجي ربه كل يوم بهذه الصلاة: مولاي إني لا أصغي إلى المشاحنات التي لا تنتهي حول ذاتك وأرغب في عبادتك كما تريد ولكني كلما سألت رجلا كيف أعبدك أراد أن أكون على مذهبه، وإذا شرعت أصلى لك لم أدر بأية لغة يجب أن أناجيك ولا على أي وضع ينبغي أن أكون، فأحد الناس يقول لي يجب أن أصلي لك قائما وآخر يقول صل قاعدا.. وثالث يطالبني بأن أجثو على ركبتي. وليت الأمر يقف عن هذا الحد فمنهم من يزعم أنه يجب على أن أغتسل كل صباح بالماء البارد، ولقد حدث لي يوما أنني أكلت أرنبا في نزل للقوافل وكان بالقرب مني ثلاثة رجال أفزعوني بأن أكدوا لي أني اعتديت على حدودك اعتداء بالغا ورأى أحدهم أن الحيوان كان دنسا ، وقال الثاني إنه كان مخنوقا وقال الثالث إنه لم يكن سمكا. ومر بنا برهمي فرجوته أن يقضي بيننا فقال إنهم مخطئون لأنه يبدو لي أنك لم تقتل هذا الحيوان بنفسك فقلت له:

- **وإذا كنت قد قتلته؟!**

قال بصوت حاد:

- **آه.. لقد جئت شيئا إدّا لا يغفره الله أبدا، ومن يدريك لعل روح أبيك قد حلت في هذا الحيوان!**

كل هذه الأشياء يا مولاي أوقعتني في حيرة لا أجد منها مخرجا. ولا أستطيع أن أحرك رأسي إلا وأنا مهدد بمعصيتك، ومع ذلك أبغي رضاك وأبذل في ذلك حياتي التي ظفرت بها منك. وليت شعري هل أنا مخدوع؟ إنني أعتقد أن خير وسيلة أبلغ بها رضاك أن أكون مواطنا صالحا في المجتمع الذي نشأت فيه وأبا صالحا للأسرة التي وهبتني إياها.

باريس في 8 شعبان 1713م

***

إني أعلم أن هذه المجموعة من رسائل مونتسكيو تخص عالم الخصيان في بلاد الفرس وهم شخصيات فقدت رجولتها، فالرجل الخصي يعيش في حسرة حين يرى النساء وهو عاجز، ويعاني من حقد شديد وهو يقدمهن لأسياده.. وأعلم أنني أصبحت أدير شئون حياتي بشخصية الخصي الذي استمرأ التلذذ بالإذلال والعبودية.. لقد أصبحت على استعداد كي أبذل حياتي في سبيل الطلاق من مريم!

***

وأصل إلى الرسالة السادسة عشرة بعد المائة والتي يقول فيها أوزبك لصديقه نفسه:

إن تحريم الطلاق لا يقضي فقط على حلاوة الزواج بل إن كذلك يحدد نهايته فإنهم إذ يريدون بتحريم الطلاق إحكام عقد الزواج يعملون على حله، وبدلا من أن يربطوا به القلوب – كما يزعمون – فإنهم يفصلون بينها إلى الأبد.

***

من ذا الذي يدلني على رابطة واحدة أبقت عليها مريم لتربط بيني وبينها.. حتى ابني الوحيد أبعدته عني.

***

وفي العقد الذي ينبغي أن يكون حرا إلى أبعد مدى وأن يحسب فيه للقلب حساب كبير استعمل المسيحيون فيه المضايقة والإلزام ، وتحكموا في مصائر الناس ولم يحسبوا حسابا لتنافر الأذواق ولا للنزوات ولا لعدم توافق الأمزجة. لقد أرادو أن يثبتوا القلوب على حال واحدة بينما القلوب هي أكثر الأشياء في الكون تقلبا وتغيرا.. وربطوا من غير تردد ولا أمل بين شخصين يضيق كل منهما بصاحبه، متنافرين أكثر أوقاتهما، وهم بذلك يفعلون فعل الطغاة الذين ربطوا الأحياء بأجساد الموتى.

لا شيء يؤثر في العلاقة الزوجية كرخصة الطلاق، فالزوجان يتحملان متاعب الحياة الزوجية ويحملهما على الصبر علمهما أنهما يملكان في أي وقت أن يضعا حدا لنهاية هذه المتاعب بالطلاق، وهما يحتفظان بهذا الحق غالبا مدى الحياة ولا يستعملونه لسبب واحد، هو شعور كل منهما بأنه حر يستطيع أن يستعمله متى شاء. إنه من الصعوبة بمكان أن يفهم المرء جيدا الباعث الذي حمل المسيحيين على إلغاء الطلاق.. إنهم لا يقيمون الزواج على أساس اللذات الحسية بل على العكس من ذلك.. يبدو أنهم يريدون أن ينفوا عنه هذه اللذات ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.. وهذا خيال ورمز وشيء مبهم لا أفهمه مطلقا.

باريس في 19 شعبان 1718م

***

آه يا مونتسكيو.. لماذا لا تبعث من قبرك بمعجزة ربانية خارقة لتنقذني من مريم؟!.. لقد جعلتني هذه المرأة أكره حياتي.

***

(31)
حليم صادق

1993

ظللت أنتظر حضورها إلى المتحف حتى قرب موعد الانصراف وكل جوارحي تعيش معها في تلك الساعات الثلاث التي أمضيناها معا في العربة إلى القاهرة، وخطوط كفها ماثلة أمام عيني وهي تحول بين شفاهنا حتى لا تلتقي. لم تشأ كعادتها أن تطلع أحدا على أسرارها فلم أعرف لماذا أو إلى أين ذهبت في القاهرة لذلك الأمر الهام. آه يا قلب من أشغال أسقمتك بها مريم فأسكرتك بين الرجاء والخوف والأمل والفرحة والقرب والصد والهجر والوصل.. ولكنها أبدا لا تريد أن تطفئ نارك المقدسة فأغدو كأني لم أكن يوما أو كنت، ولكني لم أدر أنني كنت أو لم أكن.. آه يا قلب كم أبكي عليك منك. وأنت الذي لم تخلق إلا لمريم.

دق جرس التليفون برنين طويل يدل على أن المتحدث من خارج الإسكندرية:

- **مريم؟.. أين أنت؟**
- **مازلت في القاهرة.**
- **ومتى تعودين بسلامة الله.**
- **لا أستطيع أن أحدد لك توقيتا معينا.**
- **وما السبب؟.. ماذا تفعلين هناك؟**
- **أتفق على وظيفتي الجديدة مع وكيل أول الوزارة.**
- **أية وظيفة.**
- **مرافقة لكبار زوار مصر من رؤساء وزعماء الحكومات والدول المختلفة.**
- **ولماذا لم تخبريني قبل سفرك؟**
- **خشيت أن أغضبك أو أن تحاول التأثير على للبقاء معك في المتحف.**
- **معنى هذا أنك لن تعودي إلينا.**
- **للأسف.**
- **هكذا؟!**
- **هكذا.**

توالت ضربات قلبي المكلوم في عنف وكادت دموع المر كله تنهال من عيني.

- **والعمل!**
- **في أي شيء؟**
- **أنا وأنت.**
- **سأعطيك أرقام تليفونات العمل والإقامة.**
- **وكيف نلتقي؟**
- **تأتي إلى في القاهرة.**
- **في القاهرة؟!**
- **دع ترتيب هذه الأمور لي ولا تنع هما.**

وصمت قليلا كيما أحاول امتصاص صدمتي. لكنها سارعت بإنهاء الحديث قائلة إنها " ستحاول " الاتصال بي خلال الأسبوع القادم لشدة انشغالها هذا الأسبوع في حل بعض مشاكل ابنها في أمريكا.

ما تعلمت الصبر يوما إلا على يديك يا فاتنتي. صبرت على سحر طرفك الذي يضن على بالبوح، وصبرت على خمر ريقك الذي لم أذقه حين كان كفك.. صبرت على صبري فكان هذا منتهى سؤلي .. يخيل إلى أنني لو لقيت حتفي لأجلك فلن أعرف الندم.. وما الذي بيدي أن أفعله الآن غير أن أصبر على ابتلائي فتلك إرادة ربي الحكيم العادل، ومن يدري فربما جاءني من الداء الدواء.. ومن يعلم يا مريم غير العليم العلام.

لم أجد بديلا عن كتابة رسالة عاجلة لها على عنوانها الجديد بالقاهرة، أبثها فيها أشواقي وعتابي على مفاجأتها الأليمة، ولم يشأ كبريائي أن أصرح لها بأنها تستخف بحبي بل بكرامتي حتى تحدث تلك النقلة الكبرى في حياتها وأكون أنا آخر من يعلم.

بعد أسبوع اتصلت بي معتذرة عن عدم الوفاء بوعدها فسألتها بلهفة:

- هل وصلك خطابي؟

قالت بسرعة آلية:

- نعم وقرأته وتأثرت به كثيرا.
- فلماذا لم تكتبي لي مادمت باقية في القاهرة؟
- أعذرني يا حليم فأنت لا تتصور كم هو ضيق وقتي الآن.
- ...
- عندما نلتقي في الإسكندرية سأوضح لك كل شيء.

وفي عجالة لمحت بالإشارة إلى رغبتها في إنهاء الحديث.

إني حين أكتب إليك يا مريم فإنما أكتب إلى روحي، فالحروف والوريقات تفصل بيننا، والحق أني ملتصق بك غير منفصل، ولو بعدت عني إلى أقاصي الصين، وحتى حين تهملين كتاباتي ولا تردين فإني أرى في صمتك إجابة، فإجابتك لي هي ذاتها كتابتي إليك. وهل أنسى ماحييت يوم إن قلت لي في دلال كاد يذهب بعقلي:

- هاه.. أجبني الآن عن السؤال الذي يخطر ببالي في هذه اللحظة والذي أريد معرف إجابتك عنه.

وكانت إجابتي عن صميم السؤال الذي خطر ببالك ووصفتي بالعبقري، فهجرك يا مريم حب، وحبك يا مريم قرب هو البعد، وبعد هو القرب، فالهجر والحب والبعد والقرب والفصل والوصل كلها تتساوى عندي، فأنت للعين عيني وأنت للقلب قلبي، وهكذا أراك حين أراني فلا يؤلمني الهجر ولا يؤرقني الصد مهما أضناني السؤال ومهما أنهكتني الحيرة.. آه يا مريم.. لو تعلمين كم أوحشتني يا حبيبتي!

***

(32)
الدكتورة مدينة محمود

1993

وصلني خطاب من حليم، لم يهزني خطاب من أعماق مشاعري مثلما هزني هذا الخطاب وأدهشني وأهاج مشاعر غربتي وأثار في قلبي شجنا عميقا قرأته بمزيج من الانبهار والغيرة واللهفة والتعجب.

بدأ الخطاب بعتاب شديد لسمير أرجعه إلى سببين متباعدين أولهما: أن سمير دائم التحامل على مريم وأنه لا يقدر أحزانها ولا يلتمس لها الأعذار، بل إنه يكاد يصرح بأنها لا تتورع عن ارتكاب أي خطيئة في سبيل تحقيق مآربها، بدلا من أن يشفق عليه ويتعاطف معها ضد ما تعانيه من ظلم واضطهاد.. وثانيهما: أن أم سمير أصبحت في مسيس الحاجة إلى رؤياه وقد تدهورت حالتها الصحية إلى درجة الدنو من الموت. أبلغت سمير على الفور بهذا المضمون من الخطاب، لكني لم أطلعه على بقيته احتراما لرغبة حليم في ذلك.

وكانت دموعي تنساب في غزارة طوال قراءتي للخطاب..

" صديقة عمري مدينة..

هل تتصورين يا مدينة.. لقد سمحت لي مريم أن أقبلها لأول مرة لم تضع كفها حائلا بين شفتي وشفتيها.. لا.. إني لم أقبلها. مريم هي التي قبلتني.لا.إنها لم تقبلني، بل إن قبلة العمر هي التي جمعت بين ثغرينا فذاق كل منا رحيق عمر الآخر وارتشف من خمر روحه. أن لا أكاد أصدق نفسي يا مدينة. ما ذقت في عمري كله أحلى وأروع من تلك اللحظات التي جمعت شتات عمري وشظاياه فأبصرت نفسي طيفا من الحب يذوب في أوراق الأشجار وأنغام الفجر وأناشيد الطيور وعقود الفل والياسمين وقطرات المطر وقلوب الناس الغرباء وغير الغرباء.

أرحت رأسي على صدرها فرأيت يقظتي في منامي واندثاري في تجمعي وضلالي في هداي وعجزي في قوتي ودائي في دوائي.. يا مدينة لقد رأيت الله على صدر مريم، وإياك أن تخبري مخلوقا بذلك. لقد أفنيت عمري في انتظار تلك اللحظة العبقرية التي يتجلى فيها معنى الحياة وجدوى الحياة ونعمة الحياة.

هأنذا أستعيد قدرتي على روعة الدهشة وجنون الفرحة الطاغية التي لا تعرف للعمر سنوات.. دهشة تستبد بي كطفل. تغتال الوقار والشعر الأبيض وحكمة الليالي والأيام. فرحة كالزلزال ولكنها تغمر الروح بنفحة نورانية من الجلال والرحمة. إني لم أشعر بالرغبة في الطيران بل لقد طرت بالفعل وحلقت في السماء وكانت كل خلية من خلايا جسدي ترتع في بحور النشوة، وكل نبضة من نبضات قلبي تسكب النور والمحبة على الكون وخالقه الأعظم الذي منحني تلك اللحظات الشفيفة فأجلسني على القمر وأطلعني على سر من أسرار جماله القدسي. آه يا عينيها العسليتين المذهبتين وهما تغمضان من النشوة – سبحانك يا بديع السماوات والأرض.. إني أسمع موسيقى تنساب من ثغرها الحبيب وأشعارا تتغنى بها الملائكة عن لؤلؤها المصفوف.. وأنفاسها الحارة التي بددت ضباب أيامي الماضية، وتركتني نائما على صدرها. هائما في حلمي بأيامي الآتية بالزهر والعطر والندى وبريق النجوم.. وهي تربت بأنامل كفها المعشوق على ظهري وتتحسس بها شعري في حنان أنساني التراب الذي تعفرت به مرتين، والشقيق المسكين الهارب بالأموال، والأخت الحبيبة المهاجرة والزميل الواشي والزوجة الوفية المخلصة والأبناء محمد وفاطمة وخمسين عاما ولت عام وراء عام.

كفك يا مريم بلسم جرحي. كفك يا مريم وهو يتحسس رأسي يسكب في وجداني مشاعر أمومة حلوة ضاعت مني. كفك يا مريم وهو يربت على صدري وخدي يجعلني أجوب البحار والمحيطات وأتلو الصلوات وأبكي. مريم تلعق دموعي يا مدينة وتقول لي " لا تبك يا طفلي الحبيب فأنت تذكرني بأبي الراحل لأنك حنون مثله.. طيب مثله.. صادق مثله".

هل تصدقي يا مدينة أن مريم قالت لي بصوت مسموع:

أحبك يا حليم!!

سمعتها منها بأذني في غرفة مكتبها الأنيقة بالقاهرة بعد أن شغلت منصبها الجديد، ودعتني لزيارتها بعد أن استحال حضورها إلى الإسكندرية.

قولي لسمير ألا يحدثني عناه مرة أخرى، سواء في مراسلاته لي أو حين يحضر لوداع أمه لو كان ينوي الحضور.

***

جففت دموعي ولم أستطع مواصلة قراءة الخطاب. كاد ريقي أن يجف لكثرة ما دخنت من سجائر، وكدت أسمع صوت أنفاسي المتلاحقة وأنا أستريح من تعب ما قرأت!

من أنا وما جدوى وجودي على قيد الحياة.. بالله ماذا افعل هنا ولماذا وإلى متى؟ إني مدينة حزن كاملة، أحتاج منذ عصور إلى شاطئ أبكي عليه أمواجي فلا أجده. أحتاج إلى رجل يجمع أشلائي ويسقيني القهوة ويدخلني في داخله.. مللت أرصفة الطرقات ومقاعد المقاهي ومنصات الندوات والمجلات والجرائد والمقالات.. أهيم منذ سنوات في طرقات واسعة بمدن عديدة بلا هوية أطارد المجهول.. أبحث عن بحة صوت إنساني أرتاح لنبراته.. أنا حقا مدينة للحزن والحرمان صنعتها بيدي وأضعتها بإرادتي. أنا أقرأ هذا الخطاب يلح على هاتف في أذني وفي ضميري وفي كل جوارحي: أنت يا مدينة، مدينة خربة مقززة. أنت لا شيء. أنت إنسانة قد ماتت منذ زمن طويل لكن جثتها مازالت تتحرك، فالعطن والتحلل والتعفن مازال بداخلها.. ولم يبق إلا القليل حتى تستحيل إلى رمة ترتع في بدنها الديدان.. ووعد إلى قراءة بقية الخطاب.

***

نسيت نفسي أسبوعا كاملا بالقاهرة. أذهب إلى مكتبها طائرا كل صباح.نشرب القهوة معا ويعيش كل منها في حضن الآخر لحظات قبل موعد حضور الموظفين. حتى تستأذنني في بداية العمل واضطر إلى الانصراف على موعد للقاء في المساء بأي مكان عام.

ماذا فعلت بنفسك يا مدينة في ذلك المنفي اللعين؟! تعالي إلى مصر لتحبي رجلا أو شيئا أو زقاقا أو حقلا أو ترعة. عودي إلينا لأحكي لك كيف يتعثر بريق عيني مريم الحبيبة بالحياء في أرجاء قلبي حين تلثم شفتاي خدها النضير وأتحسس بأطراف أناملي تلك الهالة الساحرة تحت عينيها فيتفجر الورد دما في شفتيها وأسمع في قلبي دقات قلبها ينبضان معا حبا وشوقا وحنانا ولهفة. حين أخفي رأسي في صدرها كعصفور خائف يرتعد من صقيع الشتاء، أستريح من زماني وأعطيه الأمان فأشعر بالدفء وأخفف وأتلاشى وأسبح نشوانا في عبير حبها العطر.. أكلمها وتكلمني – من بعد صمت طويل – بينما يقف من خلفنا تاريخ ومن بيننا تاريخ ومن أمامنا تاريخ، لكنا لا نعبأ بشيء فقبلاتنا هي الأبقى هي الزمن هي التاريخ.

***

وأيقنت بعد انتهائي من قراءة الخطاب أنني أختنق.. ولكني أريد الحياة!

(33)
فاطمة حليم صادق

1994

العلاقة بين أبي وأمي تحيرني وتثيرني بحيث أجد نفسي في كثير من الأحيان عاجزة عن تصور الأسلوب الأقرب إلى الصواب الذي ينبغي أن أتعايش به مع زوجي المستقبلي.

اليوم مثلا وجدت أمي – وقد كانت نائمة صامته مكدرة خلال سفره المفاجئ لمدة أسبوع دون تبربر واضح – تستقبله بتهليل شديد وترحاب أشد، لكني استبصرت الكذب في نبراتها وهي التي لا تخاف شيئا ولا أحدا، وبالتالي لا تجد نفسها مضطرة إلى الكذب أبدا.. هي في هذه الصفة شبيهة بأبي ولكن من منطلق آخر أكثر واقعية.

أمام المبالغة في الترحيب أصيب أبي بارتباك شديد جعلني أكاد أنفجر في الضحك، خاصة وأن نظرات عينيه – بمجرد فتح الباب – كانت طافحة بشعور عظيم بالذنب يخالطه شعور آخر بالخوف من أمي كما لو كان يتوقع منها أن تقذفه بغطاء حلة عقابا على طفشانه المفاجئ.

ولأن أمي تصادقني من حين لآخر فإنها تبوح إلى ببعض أسرارها ومواجعها. إنها تكاد تجن لعجزها عن العثور على المرأة الخفية الغامضة في حياة أبي. وأكرر لها قولي القرآني عن ثقة.

- **يا ماما " إن بعض الظن إثم"**
- **أنا واثقة فأنا زوجته وحبيبته وأفهم من يمكن أن يفهمه على وجه الأرض.**
- **فأين تسكن أو تعيش إذن؟**
- **لو كانت من الإنس فهي في القاهرة، فقد كثر تردده عليها بسبب.**
- **وبلا سبب في الأيام الأخيرة.**
- **أيعني هذا انك تشكين في عشقه لجنية.**
- **لا أكذب عليك أن هذا الخاطر راودني أكثر من مرة.**
- **انفجرت في الضحك متسائلة:**
- **ومن أين أتيت بهذه الفكرة ؟**
- **عثرت في مكتبته على ما يقرب من عشر كتب عن الجن.**
- **ليس غريب على أبي أن يقرأ في أي شيء وأنت تعلمين ذلك.**
- **وما بين نبرات أمي غير الصادقة وارتباك أبي الطفولي فوجئت بأمي تجلسه في حنان على أقرب مقعد وتناولني حقيبته لأضعها في المكتب وتطلب مني أن أعد وعاء كبيرا مليئا حتى ثلثيه بالماء الساخن والملح.**

***

كان أبي مستسلما في لذة رائعة لأصابع أمي وهي تدعك له قدميه وتدلك أصابعهما بحنان مرددة حمدا لله على سلامتك دونم أدنى محاولة لاقتحام مسألة السفر. ثم جففت قدميه وقالت بمحبة حقيقية:

- **تخرج من الحمام لتجد العشاء جاهزا.**
- **لمحت بريق الدموع في عيني أبي وهو يدخل الحمام مطأطئا رأسه ثم رأيت الدموع تتساقط من عيني أمي بعد أن أغلق من خلفه الباب.**
- **فوجئت بها تقول لي وهي تحتضنني بحنان بالغ:**
- **طفلي مريض يا فاطمة وأجدني عاجزة عن علاجه.**
- **ذهلت لما تقول. ظننتها تتحدث عن محمد.**
- **أي طفل يا ماما وأي مرض؟!**

***

ويتراكم عذابي فوق عذابها لأن خوفي الشديد عليهما معا يمنعني من مصارحة أمي بالحقيقة!

***

1993

كنت عائدة بصحبة خطيبي من زيارة اجتماعية، وقد أصر على أن نتمشى معا عبر الشوارع والأزقة حتى المنزل حيث كان مدعوا للغداء معنا.

وموقع منزلنا يتوسط تقاطعات عديدة وتفريعات شوارع ضيقة أشبه بالحارات الشعبية بحيث يمكن الوصول إليه من أكثر من سبعة أزقة.

أما الذي حدث فإنني – بفالحتي ونباهتي – اخترت زقاقا محددا لنختصر منه الطريق إلى البيت. كان خاليا من المارة. لكني لمحت عربة تشبه عربة أبي واقفة في منتصف الزقاق بجوار الرصيف الأيمن وكأنها عطلت فجأة.

دققت النظر في ركابها دون أن يلحظ خطيبي فتأكدت أنه كان أبي. لكنه لم يكن يصلح العربة بل كان يحاول تقبيل امرأة ذات شعر كستنائي وهي ترفض بشدة واضعة يدها بين وجهيهما في مقاومة ملحوظة حتى خشيت أن تصرخ فتسبب العار لأبي ولي ولأسرتنا جميعا وتجلجل فضيحتنا في الشارع!

كانت صدمة عمري الكبرى التي لم تتكرر صدمة في قوتها بالنسبة لي حتى الآن. أهذا هو أبي الوقور المحب الطيب الحكيم العليم العاقل؟.. أهذه بوادر شيبة الرأس والدخول في سن الحكمة كما يقولون؟ ماذا يختلف ما يفعل أبي الآن عن مراهق شاب؟ إن خطيبي لا يجرؤ أن يضعني ويضع نفسه في مثل ذلك الموضع المهين في منتصف شارع مجاور لبيته. أهذا معقول يا حليم يا من أنت أبي القدوة والمثل؟.. وفي وسط الشارع وفي عز النهار؟!

كدت أندفع لأتبين ملامح هذه المرأة المعتدية على حق أمي غير أن اندفاعي راح بالطبع إلى الاتجاه المعاكس وإلا رآه خطيبي.. لكن شيئا من ملامحها لم يغب عن ذاكرتي حتى شاءت الظروف أن أمر يوما على أبي في المتحف فرأيتها هناك.. ومنذ ذلك اليوم صار هناك حائل ما يفصل كثيرا بيني وبين أبي الحبيب.. حائل من الضباب والعتاب ودموع الألم.

أنها هي يا أمي، تلك المرأة التي قلت لي إنها قناع وأن زوجك إن أحب فإنه يحب قلبا وروحا لا عقلا وقناعا. فكرت أن أحكي ما حدث لمحمد عشرات المرات ثم تراجعت ومثلها لك ثم تراجعت. ويبدو أنه كان إلهاما إلهيا لأنها غارت في داهية تاركة هذا الموقع إلى غير رجعة بإذن الله. قالت أمي في حرقة وقد طال غيابه في الحمام.

- روح أبيك لم تعد معنا يا فاطمة.
- إسمعي.. حتى لو صدق حدسك، فهي نزوة وتذهب لحالها.
- ومن يضمن لي ذلك؟
- هذا يحدث لمعظم الرجال في هذا العمر وأنت أدري.
- لكننا متحابا.
- نعم أنا أعلم. ولكن هناك ما يسمى بالحب الثاني أيضا عند كثير من الرجال والسيدات.

وعلى المائدة أتحفت بما لذ وطاب من مآكل ومشرب وراحت تمطره بالقبلات وتربت على ظهره في مودة صادقة.

***

في الصباح كانت أمي حزينة قلقة شاردة كما لو كانت أبي، أما أبي فكان منشرح الصدر نشيط الحركة ينشر المرح في كل مكان وكأن روح أمي قد حلت فيه. والحقيقة أني لم أفهم كيف يحدث هذا.

وحين قالت لي أمي أنها تجاهد بكل طاقتها الروحانية والجسمانية لمساعدته في اجتياز أزمته التي يخفيها عنها احتراما لها وإشفاقا عليها بنفس قدر إشفاقها وخوفها عليه، قررت

للمرة الأخيرة ألا أبوح لأحد بسر هذه المرأة.. ولكن آه.. لو شاءت الظروف أن ألقاها مصـادفة.. في أي مكان!

***

قال لي أبي بمرح:

- **تعالى معي نزور أمي.**
- **ولماذا لا تأخذ زوجتك؟**
- **أنا وأمي نتفاهم بصعوبة فما بالك بهما معا؟**
- **إذن فلنذهب جميعا.**
- **لا مانع.**
- **ولا مانع أيضا من أن نقبل منك دعوة للعشاء بالخارج احتفالا بعودتك بالسلامة.**

(34)
مريم عبد الشهيد

1994

في اللحظة المحددة قدمت استقالتي. قامت الدنيا ولم تقعد في الوزارة لمفاجأتهم بقراري بعد انتهائي – في الخفاء - من أعداد عدتي كاملة لأكون صاحبة شركة كبرى من أحدث الشركات السياحية في مصر، وتعرف حياتي طعم الاستقلال والحرية والكرامة وعزة النفس.

هكذا حولني الظلم والاضطهاد والقتل بغير ذنب وانتهاك الجسد بغير حق إلى خبيرة لعب بالحياة في كل أدوارها. أكبر كبار الوزارة قدموا إلى مكتبي برجاء البقاء في وظيفتي وكل له مقصده الذي يختلف عن غيره فأنا خبرتهم جميعا مثلما خبرت جثثا عديدة من قبل. واليوم ألقي في نفس البئر بعدة جثث أخرى بلا رحمة ولا مبالاة، ولتعبق البئر برائحة العفن فهذا لم يعد يعنيني في شيء. كل ما أردته حققته رغم أن الجميع، قلت لك يا أمي سأفعل وفعلت، ولكن كان لا بد أن أحرر نفسي أولا. واليوم أعدك يا دانيال أنني سوف أفعل لأجلك ما لم يخطر ببال قبطي من قبل، سوف يقتصر نشاط شركتي على السياحة في أماكن الآثار القبطية بجميع أنحاء مصر ابتداء من القاهرة وانتهاء بالوادي الجديد. سوف يعلم كل سائح غربي يدين بالمسيحية مدى انتمائي شركتي إلى الحضارة القبطية،وسوف أشرح لهم بكل وضوح موقف الأقباط في مصر سياسيا واجتماعيا حتى يستريح دانيال في قبره وتستريح أمي في بيتها.. لكن أحدا لن يعلم ما بداخلي ولن يشعر به ولو أقسمت على بشاعته بالأديان الثلاثة. إنني كائنة قتلت من داخلها. مزقت أحشاؤها بسكين بارد. مزقتها أياد وعيون لا تعرف الرحمة وإنما تتقن البطش والاستغلال والشيء مقابل الشيء.. أياد وأرجل وعيون وجوارح لا تمت إلى الإنسان بصلة.. ولكن ماذا كان بيدي أن أفعل غير ما فعلت؟.. لا أستطيع القول إلا أنني استسلمت للهزيمة فأموت.

ما بداخلي لا يعني أحدا سواي. إني لم أصرح به ولم أفضى بمكنون بعض مما بصدري لحليم حتى الآن رغم أنه أول وآخر إنسان أحبني وأحببته طيلة حياتي على غير ما كنت أنتظر أو أتوقع أو أحلم.

اليوم لن يجرؤ إنسان على التحرش بي أو محاولة ابتزازي بابتسامة صفراء كريه الرائحة. حياتي أصبحت ملكي، ولا معنى لتقدمي في السن فمازلت جميلة أتفجر حيوية ونشاطا ورغبة في عيون الرجال.

والآن.. الآن فقط يا حلوتي المعذبة مريم.. عليك بطي صفحات عمرك الماضية لتنعمي بسعادة حرمت منها طويلا.. الآن.. الآن يا مريم.. فحليم هو الأمل الوحيد والباقي في حياتك.. هو المعجزة التي باركك بها الرب. اذهبي إليه وادخلي في عباءته ونامي تحت جناحيه وعبي من نعيم العشق.. من كأس محبته المترعة بالجمال والرحمة.

فيما مضى وتحت تأثير الروائح العفنة المنبعثة من البئر كنت تحسبين العشق مرضا وضعفا لا يعرفه إلا أرباب الفراغ والتسكع والرفاهية والضياع. فيما مضي كنت تحاربين بعقلك فكان من المستحيل أن يجتمع الحرب والعشق معنا عند من يحارب بعقله حرب وجوده وبقائه، فالعقل هو الحكمة، والحكمة شيء أما العشق فشيء آخر، وكان من المستحيل أن أفسر تلك الألغاز الملغزة لهذا الرجل الشفيف الطاهر الذي باع الدنيا وأحبني، وإلا فمن أين لي أن أعرف كيف تكون نظرته إلى وما يقبع في ضميره نحوي إذا ما عرف كل أسرار الهزائم التي أخفيها في صمتي ونظرات عيني الشاردتين قبل أن أحقق انتصاري الحاسم والأخير لأحصل على حريتي في وطني وليس في وطن آخر.. أنت الآن يا حليم وطني الوحيد والأخير.

***

حجزت جناحا في فندقي المفضل بالقاهرة وأرسلت لحليم أدعوه للحضور.. وقلت له في الهاتف كلمات ثلاث:

- **تعال لأسلمك قلبي.**

وأمضيت أروع ساعات عمري في انتظار حبيب عمري. لا يهمني أن يبقى على وجه الأرض سوانا شيء إلى الأبد. كان وجودي عارا بغير حبك يا حليم. تعال إلى يا مليكي فإني اشتهي شمس حسنك قبل أن يسارع المغرب بالمجيء. أسرع يا يوسفي الكنعاني الحبيب ليكون أول طيراني الحر على جناحك.. أسرع فلقد كرهت الوجوه اللزجة والقلوب المظلمة وأصبحت أرغب في الرقص والغناء والسكر حتى الثمالة، فرحة بحبك يا حبيبي، " فلطالما قرعت بابي ولم أفتح. يا لفظاعة خطاياي. يالقساوتي يا لخسارتي. هل ضاعت الفرصة؟ ألا يعود إلى مرة أخرى؟!".

أنت الكائن الوحيد الذي لن أفكر له من أمامه أو من خلفه، فأنت راحة العقل وواحته، وأنت الطمأنينة التي لم أذقها من بعد أبي وأمي حتى يئست من بقايا وجودها في استحياء على وجه الأرض.. " يا رب أجعلني كمريم التي جلست عند قدمي يسوع لتسمع كلمات النعمة، بل ارفعني إلى فوق فاتكئ مع يوحنا الحبيب على صدره. بل ارفعني ليقبلني بقبلات فمه" فأنا لحبيبي وحبيبي لي.. هأنذا أسمع صوت الحبيب يناديني من فوق البشر " تعالوا إلى يا جميع المتعبين وثقيلي الأحمال وأنا أريحكم".. آه من حملي الثقيل يا حليم، وكم أنا متعبة الأحمال وأنا أريحكم".. آه من حملي الثقيل يا حليم، وكم أنا متعبة يا رب.. "لماذا أدخلت نفسي في تجارب الابتعاد فالتقطني كل عابر"؟!!! أنقذني يا حليم، " فمن يحبني يحبه أبي وإليه نأتي وعنده نصنع منزلا".

***

(35)
محمد حليم صادق

1994

شعرت بالخجل الشديد أمام خطيبتي حين سألتني على محطة القطار عن تلك الصورة التي يقف فيها رجل بجوار أبي والمعلقة بالصالة في المنزل. لكني قلت لها بهدوء:

- **هذا هو عمي الجبان نزيه.**

ذهلت لسوء سلوكي الذي لم تعتده من قبل ونظرت إلى في دهشة بالغة.

- **لماذا تقول هذا الكلام عن عمك؟**
- **لأن دليلي الوحيد على عمومته هو هذه الصورة مضافا إليها قول أبي إنه أخوه.**
- **لست أفهم.**
- **هل تتصورين أنني لم أره منذ طفولتي أكثر من مرتين أو ثلاث، ولو رأيته الآن في أي مكان فلن أعرفه.**
- **ما السبب؟**
- **أبي.**
- **كيف؟**
- **إنه حين يعجز عن التعامل بالمثل بصدق شديد مع أحد فإنه ينساه تماما.**
- **حتى أخاه!**
- **حتى أمه أحيانا.**
- **أخشى أن تصير مثله يوما، ما لم تكن مبالغا في التجني على أبيك.**
- **لا تخافي فرفضي لطبيعة العلاقة بينهما يدفعني إلى السلوك العكسي تماما على سبيل التعويض، وهاأنت ترين كم أحب فاطمة ولكن ما الذي جعلك تسألين هذا السؤال الآن؟**
- **لأني أرى قلق المحبة الشديد في عيني أبيك وهو ينتظر قدوم القطار الذي يقل صديقه المهاجر منذ أكثر من ربع قرن.. إني أتصور أنه ينتظر شقيقا لا صديقا.**
- **إنه زميل عمره وهما يتراسلان طوال هذه السنوات وكل منهما يعرف دقائق تفاصيل حياة الآخر، أما نزيه فكل ما نعرفه عنه أنه أصبح مليونيرا، ولا نعرف حتى في أي بلد يستقر الآن.**
- **إني لا أكاد أصدق ما أسمع، ولكن لماذا لم تحضر أمك معنا لاستقبال العم سمير زخاري؟**
- **إنها تنتظره بالمنزل لاحتفاظها بمفاجأة له.**
- **أية مفاجأة؟**
- **الدكتورة مدينة.. زميلته في أمريكا.**
- **هل جاءت تزور أمها هي الأخرى؟**
- **بل جاءت فجأة لتقيم نهائيا في مصر. قررت ذلك في لحظة ونفذت قرارها على الفور.. وهي تعتبرنا جزءا من أهلها في مصر، ونحن أيضا نعتبرها كذلك، فهي الأخرى زميلة أبي منذ أيام الجامعة وكانت معيدته لمدة سنة دراسية.**
- **ولكن ما المفاجأة في الأمر بالنسبة للعم سمير؟**
- **المفاجأة أنها أبلغته في أمريكا برسالة أبي عن مرض أمه مستخدمة التليفون، ثم نزلت على الفور فصفت حساباتها ومتعلقات عملها وحجزت الطائرة دون أن تخبره.. تم ذلك كله خلال أربع وعشرين ساعة.**
- **لكنها هنا منذ عدة أيام فلماذا لم يحضر هو الآخر معها ولو على سبيل صحبة السفر؟**
- **يبدو أن ظروفا طارئة هي التي حالت دون سرعة حضوره فهو صحافي كبير هناك ومسئولياته كثيرة.**
- **ولكن ما فائدة حضوره الآن وقد ماتت أمه؟**

- **لم تكن هناك فرصة من الزمن لإخطاره بذلك فمسجل التليفون أخبرنا أنه قد سافر بالفعل إلى مصر.**
- **إذن فسوف نشهد فيلما تراجيديا عنيفا تبدأ لقطته الأولى بلقاء الصديقين الآن أو بعد قليل.**
- **هل تفضلين عدم مشاهدة الفيلم؟**
- **أبدا.. دعنا نتعلم بعض أسرار الحياة.**
- **أحبك يا كثيرة الكلام والأسئلة.**

***

(36)
مريم عبد الشهيد

1994

هل هو غضب الرب يحل على من جديد فيبدد فرحتي الأولى في الحياة؟!..
لماذا لم يوافيني حبيب العمر الأوحد في موعدي؟..
كلما اتصلت بتليفونه سمعت صوتا غير صوته فأضع السماعة على الفور.
لماذا لم يطلبني ولو مرة واحدة يطمئني عن سبب غيابه؟..
نهبت الطريق الصحراوي في ساعتين. قالوا في المتحف:

- **الأستاذ حليم في أجازة مفتوحة.**
- **لماذا؟**
- **لا أحد يعرف.**
- **هل هو بخير؟**
- **نعم ولكنا علمنا حين السؤال عنه أنه لا يغادر منزله.**
- **يا إلهي.. هل شئت أن تعصمني من رؤيته مرة أخرى وإلى الأبد؟!.. مرة واحدة؟!**

***

(37)
محمد حليم صادق

1994

كانت زيارة سمير زخاري لمنزلنا زيارة نحس كئيبة. فما أن غادرنا حتى اختلى أبي العظيم بغرفة مكتبه مستغرقا في الصلاة ليل ونهار. لم يعد يأكل فوق ما يقيم أوده ولو بلقمة واحدة. غارقا في قراءة كتب المتصوفة الكبار التي تركها منذ عامين، دائم الصلاة وتلاوة القرآن ولا ينام من الليل إلا قليلا.

أمي تبكي على حاله ولا تستطيع أن تفعل له شيئا. أنا أكذب ظن أمي تماما في علاقة أبي بغيرها. إنه رجل يعيش في شبع عاطفي فلا مبرر عندي لمثل هذا الظن. أبي صامت لا يتكلم. مدينة تركتنا بعد أن تعرفت على قريب لها سيتزوجها؟ حاولت قدر ما حاولت أن تدفع أبي إلى البوح بسره فلم تفلح. وعدتنا بزيارات تالية لكنها لم تعد. هي الآن تجري بعربتها في شوارع القاهرة وحواريها حبا وعشقا. تجلس على المقاهي الشعبية وتذكر في الموالد وتوزع المال على الفقراء بسخاء. هكذا قالت لي آخر مرة. فاطمة تقترح على أمي أن تحضر طبيبا نفسانيا لأبي فهي واثقة أنه يعاني من حالة اكتئاب شديدة الحدة، وتؤكد على ذلك كما لو كانت تعرف عنه شيئا لا نعرفه نحن.

جاء الطبيب وعجز عن الحوار معه. كتب له أكثر من دواء يساعده على التخلص من حالته، لكنه ألقى بالأدوية جميعا في القمامة وصاح فينا مرة واحدة.

- لست مكتئبا والله.

سألته أمي في لهفة:

- إذن فماذا بك يا حليم. أتوسل إليك أن تصارحني بما يؤلمك.
- ليس بي إلا الخير كله فلا تجزعي، وأرجوكم أن تتركوني لحالي فإني سعيد بذلك.
- كيف نتركك وقد أصابك الهزال لقلة الأكل وانكبابك على هذه الكتب الغريبة؟
- أنا أشعر بشبع شديد من لقيمات ثلاث وكوب من الشاي أما هذه الكتب فهي حياتي القادمة.
- وملابسك لماذا لا تغيرها؟
- ولماذا أغيرها؟
- وشعرك وذقنك.. وعملك؟!!
- إني مشفق عليك يا حبيبتي. اطمئني فسوف أعود إليكم قريبا بإذن الله.

صاحت أمي في لهفة.

- إلى أين تنوي الذهاب؟
- لن أغادر مكاني قبل أن أعاود الحياة.

***

(38)
مريم عبد الشهيد

1994

أهكذا يكون العمر كله خديعة يا حليم؟.. حتى أنت خديعة وأنت الصادق الوحيد الذي عرفته؟.. يا من لم أكن قبل أن أعرفك وأحبك إلا عبثا، ولن أكون من بعدك إلا العدم نفسه. هل دارت بي الأيام لأتسولك يا حبيبي؟.. كيف تركتك تذهب عني وكيف كان بإمكاني ألا أتركك إلى عالمك القديم؟.. لقد حاصرتني بحبك المستحيل وظللت أكثر من عام لا أصدقك، وعندما أحببتك تهجرني ولا همسة وداع!.. هل أقتحم حصنك الهادئ لمجرد أن أراك يا حبيبي فأدمره وأجلب لك ولمحبيك البؤس والتعاسة؟.. أنا غير قادرة على ذلك مثلما أني غير قادرة على السلوى وأنت لا تعرف الغدر، والرب أعلم بسريرتي فلن أشكوك غيره وقد راحت كلماتك الحلوة لي فصار ليلى أبديا لا يعرف الصباح. لطالما عذبتك بشكى وصمتي حتى آن الأوان فتبدل الحال.. وما عليك لو أدميت جفوني أو أحرقت قلبي بغيابك!.. إنك لا تعرف الآن ولا تتصور مدى اشتياق روحي للقياك وقد ضاقت بي الدنيا بأسرها وأصبح بمقدورك وحدك دون العالمين أن تحيي مهجتي أو أن تحرقها، وإني لراضية بما تود أن تفعله بي.. أين أنت وإلى متى أظل أنتظرك يا واحتي المفقودة وآخر آمالي الضائعة؟.. " أحلفكن يا بنات أورشليم إن وجدتن حبيبي أن تخبرنه بأني مريضة حبا".

***

(39)
حليم صادق(*)

1994

وكأنك أيها الشاعر الخبيث دخلت في سريرتي وأمسكت بقلمي وكتبت ما بضميري وقلت:

انتهت قهوتنا وانتهى الحب الذي كنت أسميه عنيفا،
عندما كنت سخيفا وضعيفا.

حذار يا شاعر فسريرتي من قدس أقداس الخالق الأعظم.. من قال لك إن الحب قد انتهى. لقد تحول يا رجل. صعد من على حجر الدكتور الأمريكي المصري عبر فضاء الأطلنطي إلى فضاء العليم القدير.

عندما كانت حياتي مسرحا للترهات،
عندما ضيعت في حبك أزهى سنواتي.
بردت قهوتنا بردت حجرتنا،
فنقل ما عندنا بوضوح.
فلنقل ما عندنا.

وليبحث محمد وفاطمة عن عمهما ليحصلا منه على حقهما الذي أضعته عليهما بغفلتي بمريم وبكبريائي ونسياني.

أنا ما عدت بتاريخك شيا،
أنت ما عدت بتاريخي شيا.
ما الذي غيرني ما الذي حررني.
بعد أن كنت أميرة.
بعد أن صورك الوهم لعيني أميره.
بعد أن كانت ملايين النجوم فوق أحداقك تغلي كالعصافير الصغيرة.
ما الذي حركني.

أهو سمير زخاري ووشايته بك؟ لا.. أهي صدمتي في طهرك وملائكيتك؟ لا..

كيف مزقت خيوط الكفن وتمردت على الشوق الأجير.

ما أنت بشاعر أيها الرجل وإنما أنت مجرم شعر.. الشوق الأجير؟!.. عليك لعنة محبتي يا رجل.. بحق التراب الذي أهيل على جسدي ما الذي أيقظني.

ما الذي أرجع أيماني إليا.
ومسافاتي وأبعادي إليا.
بعد أن كاد الصدأ يأكلني.
ما الذي صيرني لا أرى في حسنك العادي شيا.
لا أرى فيك ولا في عينيك شيا.
بعد أن كنت لديا.
قمة فوق ادعاء الزمن.
عندما كنت غبيا.

.. أنا لم أكن غبيا لأن حدسي كان دائم التعقب لسر شرودها وصمتها وشدة حرصها وتحفظها، حتى أنني أدركت مبكرا أن مريم ليست مريم وظللت كما سأظل أحبها. لقد رسم كل منا للآخر على ورقة بيضاء موقع غرفة نومه في بيته واتجاه رأسه وموقع قدميه وأطلعه على أي جنب ينام.. وما في الوجود طاعة ولا عصيان، ولا ربح ولا خسران ولا اعتدال ولا ميل ولا فرح ولا ترح ولا رقاد ولا سهاد، إلا وهو مراد لك يا مولاي فأجرني وأعدني إليك.. ولا تظن يا

(*) تداخلت بالمنولوج الداخلي للبطل بعض أشعار وأقوال كبار المتصوفة فضلا عن قصيدة لنزار قباني.

سمير بعد أن أطلعتني على الحقيقة أنني غاضب يسعى لانتقام أو حزين يبتغي سلوى فإني سأظل أذكرها كلما قال المؤذن "الله أكبر"، وأذكرها حين تدق أجراس الكنيسة القريبة من بيتي، وأذكرها حين أرى وردة أو أشم عطرا جميلا أو حين أتنفس من مقام السلام، فأنشلني من الوحل والتراب وأغثني برحمتك يا خالق الحب والجمال. ألا تغفر لي تعثري في الطريق إليك عامين لا يساويان شيئا في الدهر فسوف تظل فرحتي بهداياها البسيطة فرحة طفل يلهو مهرولا على حافة جدول في بستان مزدهر. يا مريم أنت إنسانة لن تتكرر في حياتي فليس لي من بعدك إلا حياة أخرى أنتقل فيها من موطني فيك إلى وطن جديد تستوطنين فيه. ورغم أنك تسكنين جسدي منذ آلاف الأيام فإني ذاهب لأستوطن بك في النور والعسل والحليب والماء المصفي بعد أن جرفني نهرك فغسل ما تعلق بقلبي من أدران، ولولا أني سمعت عنك ما سمعته من سمير وصدقته في كل ما قاله وأثبته لما سموت بحبك إلى السماء فلقد قال إبليس عني ليحيي بن زكريا عليهما السلام ، إن حليم صادق من أشد أصناف البشر وعورة عليه، إذ يقبل عليه حتى يفتنه ويتمكن منه فيفزع حليم إلى الاستغفار والتوبة مفسدا عليه مخططه، ثم يعود إبليس إليه فيعود حليم، فلا هو ييأس منه ولا يدرك منه حاجته.. هو مني في أشد العناء ولهذا فإني ظننت مؤخرا أنني ربما كنت جنديا من جنود الله يسلطني بمريم على إبليس لأزيد من عنائه، ولهذا فلم يعصمني جلالته من عشقها كما لم يفرط في حبه لي فيسلمني إلى عدوي وعدوه، وإنما تركني هكذا لحين يأتي الوعد الموعود. النور. النور. النور. وأثناء القداس يقوم الكاهن بعمل تحليل عام يسري على كل الراكعين في الكنيسة، وبالتالي يجوز قبول الغفران للجميع دون وساطة قس الاعتراف على أن يتم التناول بشرط الصيام في الصبح وينام طيري الأخضر الجميل في قلبي وفكري ومشاعري وأيامي فتغمرني الفرحة بجناحيه الرقيقين حين يرفرف حول روحي بنسمات الحب وأنغامه الحالمة "ومن لا يحب لا يعرف الله فالله محبة" وفي الخامس والعشرين من فبراير الموافق منتصف شهر رمضان المبارك من هذا العام وأثناء سجود المصلين في صلاة الفجر بالحرم الإبراهيمي في فلسطين المحتلة أطلق باروخ جولدشتاين الضابط الاحتياطي الإسرائيلي في ظهورهم مائة وإحدى عشرة طلقة بعد عبوره حاجز الحراسة الاسرائيلى،فقتل اثنين وأربعين مصليا مسلما داخل المسجد، والغريب من جفاه الحبيب والغريب من واصله الحبيب وتغافل عنه الرقيب فإلى متى نبتلع السموم ونحن نظن أن الشفاء فيها وقال سيدنا الحبيب محمد بن عبد الله " من آذى ذميا فقد آذاني".

وكل الذي يرجو نوالك أمطروا.. ما كان برقك خلبا إلا معي

وأنا ملك الغفران على هذه الأرض من بني آدم فمن أكون إلى جانب الغفار الحليم، ومن أنتم أيتها المخلوقات الغريبة كيف تقتحمون علىّ خلوتي وماذا تريدون مني. أنا لا أخاف أحدا ولا أعرف أحدا ولا أريد شيئا.

فالليل إن وصلت كالليل إن هجرت.

أشكو من الطول ما أشكو من القصر.

وفي طمأنينتي بالله متسع لبحور الأرض ومحيطاتها والحب والأمان لك يا عايدة والنجاح والفلاح لك يا محمد ولك يا فاطمة.

وشغلي بها وصلت بالليل أو هجرت.

فما أبالي أطال الليل أم قصرا.

أم جلست على حجر الفيتوري وأخذ يعبث بصدرها فليس الصبر والأسى إلا لفحات من الشوق تصيب القلوب ومولاي يقول: " كنت كنزا مخفيا فأردت أن أعرف فخلقت الخلق فبي عرفوني" وأنا حين أحب مخلوقته مريم وأهيم بها عشقا وولها، فمن المؤكد أنني أحبه في صورة كنز من كنوز مخلوقاته من آدميين وحيوانات ونباتات وجماد.. وقلت من قبل في خطابي إلى الدكتورة مدينة إنني رأيت الله لكني لم أوضح لها كيف رأيته في قلب مريم وروحها وفي بديع صنعه لجمال وجهها، ولقد رأيت ذلك كله بعين قلبي فصليت لله وسلمته قلبي وركعت وسجدت ودعوت وقرأت القرآن والإنجيل والتوراة وكل ما كتبه أهل التصوف الأطهار وأنا لم أحب إلا أنت يا

عايدة فكيف أحببت غيرك دون أن أدري ودون أن تدري، وإلى متى نستظل بشجرة قد تقلص عنا ظلها؟

وغريب هذا الذي يقول إن الحب الأول ما هو إلا تدريب لا ينتفع به إلا ذوو الحظ من الواصلين، وإن العشق هو حسن الختام وإن الشفاء من الحب يسقم القلب.

وإن كنت بالغيب عن عيني محتجبا.
فالقلب يرعاك في الإبعاد والنائي.

ومنذ عامين قال لي الهاتف:

- آن الأوان كي تتوقف وتفكر وتتأمل على أعتاب الراحة فربما كنت من الناجحين.

الله أكبر بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. صدق الله العظيم، ولقد جئت – بعد عامين من الوصل وعامين من الفصل – لأضع وجهي على تراب قدم حبيبتي، جئت حتى أعتذر عما قدمت يداي، جئت لأبدأ من جديد الخدمة في روضته التي أبعدني عنها بعدله.

جئت أقبس نارا أضرمها في أشواكي. جئت لأنفض الغبار عن كل ما جرى وأعتبر خيري شرا من أجل حبيبي. جئت بعين باكية حتى ترى عيناي ينابيع السلسبيل من حيث ذلك الذي سلبني. أما الشعر الكستنائي فكان مستعارا ومازلت وسوف أظل محتفظا بخصلة منه قصتها لي للذكرى.. فقم. قم أيها العشق المجرد وابدأ الحب من جديد فلقد مت وصرت خاليا من إقراري وأفكاري، ومالي بالمقتول حين يقول:

يا صاح ليس على المحب ملامة
إن لاح في أفق الوصال صباح
لا ذنب للعشاق أن غلب الهوى
كتمانهم فنما الغرام فباحوا..

دعوني يا أحبائي أبوح ولا تنشغلوا بأمري ولا تخافوا على.. أنا أعرف ما لم تبوحي به يا مريم فحبي لك جعلني إياك، فأقول بلسانك الذي هو لساني:

"ولقد صمت ظاهرا لكنك تعلم أن في داخلي أقوالا دامية في قلبي الجريح، فانظر وأمعن النظر في وجهي أثناء صمتي حتى ترى فوق وجهي مائة ألف أثر من آثارك ولقد اختزنت هذا الغزل وأبقيته في قلبي لأبوح به حين تجعلني ثملا بعينك الفاتنة، ويا من صمت عن قولك وافترقت عن إلفك كيف صرت حائرا هكذا من عقلك الذكي. يا أيها الصمت كيف أنت مع هذه الأفكار النارية وعند الوحدة تكون الأفكار صامتة ومع الخلق في حديث ولا يبوح أحد بسر القلب لبابه وجداره وربما تجد نفسك صامتا لأنك لا ترى أحدا قط جديرا بقولك"..

- وأنت؟.. هل تحبينني؟
- ....
- أريد أن أسمعها منك.
- لا أستطيع قولها.

وفي أمريكا سألتهما حبيبتي في دهشة:

- من حليم هذا؟

وسأل مليك العشق المقربين عن ذاك الذي غاب. ذلك المهدم العاشق الحاضر عديم المثال أنا أنت أنت أنا. ذلك الذي رأته كل ليلة محترقا كأنه الشمع.. ذلك الذي سمع كل صبح تنفس. ذلك الذي تأججت نيران العالم من ناره منذ أن أخذ العشق يتلو عليه رقاه وينفثها في قلبه.. ذلك الذي هو مثل النبي جرجيس في بلاء عشقنا قتل مائة مرة وصار شهيدا ثم ارتد حيا.

- مثلك لا ينسى يا حليم.

النجدة يا مسلمين من ذلك الفاتن الثمل..

- هاتي كفك.

ومن أكون أنا والهواء والتراب والماء والنار ثملة به؟.. لا تقنطي يا مدينة يا مصرية العشق ولا تقولي إن العمر قد انتهى ولم يأت الحبيب، فهو يأتي في حين وفي غير حين فليس كل شيء يتأتى في السحر، واللعنة على أمريكا ولتحل البركة على موالد العاشقين المداحين الله حي الله حي الله الله.. أنت في قلبي يا مدينة جنبا إلى جنب مع عايدة ومحمد وفاطمة ومريم وزوجها وسمير زخاري وأمه والضفادع التي تنقنق في الحديقة والحمار الذي ينهق في الحظيرة والعصفور الذي يغرد على الغصن وأم كلثوم وهي تشدو من أجل عينيك عشقت الهوى قبل زمان كنت فيه الخلي. الله أكبر. نويت أصلي مائة ركعة شكرا لله على ما منعه عني وعلى ما منحه فأنا لا أعرف ماذا أريد بي إلا في حصيلته النهائية وهو الخير.. بسم الله الرحمن الرحيم " لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم. أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه".. ولا بد أن أذهب يوما إلى الدكتور وفيق في عيادته حتى أنظر فأرى ما بنفسي وأتأكد من حب محبتي.

- هل يعجبك هذا؟
- ماذا؟
- وجودنا معا في عربة على قارعة الطريق.
- يعجبني ويدهشني ويسعدني.
- لا شك أنني أصبحت أتصرف كمجنونة بسببك.
- لكنك أجمل مجنونة رأيتها على وجه الأرض.

وقال لي: قل حتى أسمع فقلت أنا عبدك الذليل فلا يعلم قدر ذلي إلا أنت وأنا عبدك الفقير فلا يعلم قدر فقري إلا أنت وأنا عبدك الضعيف فلا يعلم قدر ضعفي إلا أنت. فعدت على ذلي بعزك فأعززتني بمعرفتك.. الله.. وعدت على فقري بغناك فأغنيتني بذكرك.. الله.. وعدت على ضعفي بقوتك فقويتني بهدايتك وأمسكتني في هدايتك بمناجاتك فأنا الذليل بي وأنا العزيز بك وأنا الفقير بي وأنا الغنى بك وأنا الضعيف بي وأنا القوى بك يا غياث المستغيثين أغثني. أجرني. أنقذني.

- صدقني يا حليم فالحلال والحرام لا يجتمعان.

"لا كان وجد به الآماق جامدة
ولا غرام به الأشواق لم تهج
عذب بما شئت غير البعد عنك تجد
أوفى محب بما يرضيك مبتهج
وخذ بقية ما أبقيت من رمق
لا خير في الحب إن أبقى على المهج.".

ها هم أحبائي يطرقون على باب خلوتي وقربي وبعدي رغم تحذيري ولكن رحمتي تسعدني بسماع طرقاتهم.

محمد يناولني رسالة مغلقة موقعة باسم مريم.. الحبيبة لا تريد أن تربك حياة أسرتي أو تخدش طوبة في بنائها الذي تعلم كم أعتز به. يالرقتها وحسن ذوقها. لكن ما فائدة فتح الرسالة وما جدوى قراءتها ما دام محتواها – أيا كان – لن يغير من حالي إلى حلال آخر يتصل بها عن قرب أو بعد، ويا عزيزي سمير.. " من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر".. و "قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم".

ما ذنب هذه المسكينة التي ابتليت بحبي فتسببت في تعاستها بين أرجاء الكون؟!..

يا ويح روحي ومن روحي فوا أسفي
علىّ مني فإني أصل بلوائي
كأنني غريق تبدو أناملـه
تغوثا وهو فى بحر من الماء

وليس يعلم ما لاقيت من أحد،
إلا الذي حل مني في سويدائي.
أيحدث لك هذا كله يا مسكينة ثم تبوحين لي بأدق تفاصيله التاريخية في رسالة.. والآن؟!
"هم يثقل على قلبي يا حبيبي ولن يحمله عني سواك".. كان يكفيك علمي بما رواه لك سمير عني في أمريكا..
"ولكني شئت أن أجعلك الكاهن الوحيد الذي أعترف له لأنك وحدك صاحب هذا الحق فأنت أصدق من عرفت".. فاعلمي يا مريم أني مسيحك وكاهنك ومخلصك ومحبك الأبدي، وليسمو بك حديث غفراني إلى الملكوت الأعلى ولتنفذ كلماتي في قلبك لتذيب كيانك وتغتسلي وتتطهري بدموعك الحارة، فلقد اخترت النصيب الصالح ولن ينزع منك أبدا.. ولتعطري يدي بالطيب ولتمسحي بهما شعرك الحقيقي وكفك الحبيب.
الآن يا مريم؟!.. الآن أو قبل الآن فأنا أعرف أنك لا تهتمين بما يقوله عنك سمير أو غير سمير.. ومن أين لأحد أيتها الحبيبة التعسة أن يعرف متى يحين أوان الأشياء؟!.. كل هذه الجثث الترابية تمرغت في أو حالها المصرية والأمريكية.. يا لصراحتك الرائعة المخيفة.. الغوث يا مغيث !!.. ولكن لا تجزعي يا حبيبتي فلقد قرأت اعترافك بكل جوارحي وبكل خلية من شعيرات أعصابي المرهفة.. وطلبت لك الغفران وغفرت لك، وحملت عنك كل أثقالك وهمومك سعيدا راضيا.. ويقولون إني لن أعود إلى المتحف ولكنى سأعود، فأنتم لم تفهموا حقيقة هذا الإنسان الذي عشتم معه ولم تعرفوا دخيلته.
- من حليم هذا؟
أني لك أنت نفسك يا من يسألون عنك أن تدرك عالم الروحانيين وأنت تتردي في حكمة اليونانيين؟! إن لم تستطع التخلي عن هذه الحكمة فكيف تستطيع أن تكون جديرا بما في الدين من حكمة وكل من يتمثلها في طريق العشق فهو في مجال الدين ليس خبيرا بالعشق.. أنا يا سادة أكرر لكم أنني قد تحولت من كرّة إلى كرّة، فمن عايدة إلى الله ومن الله إلى مريم إلى الله، ثم من كل شيء وفي كل شيء إليه.. أنا الآن أتحول من المتحف الروماني إلى العيش الروحاني ولا رجعة عنه إلا إلى القبر وقال لي أريد أن أخرجك لترى زينتي التي بها زينتك وترى ملكي وملكوتي.. فطر إلىّ فإن لم تستطع فأصرخ إلىّ يا غريق.. هأنذا أصرخ طالبا الغوث وثقتي مطلقة في نجدة المجيب. وقم في مقامك مني قبل أن أخرجك إليه. إن ما تراه وما تسمعه إذا أخرجتك كل ذلك في علمي ولم تعلمه في مقامك الدنئ وتلك هي كرتك الأولى فلا تأتني بشيء مما أخرجتك إليه بنوري الذي أقمتك به بين يدي. وإنني سأخرجك إلى ملكي وملكوتي في كرتك الثانية بما لا تعلم.. الله!
- أهلا يا آنسة مريم.
ساعة أقول ما كان أجمل صمتك وأروعه فيما مضي ولم أعلمه إلا من رسالة اعترافك، وساعة أقول ما أقساه من صمت وما أوجعه فيما كان وعلمته منك. ألا تطلبين من زوجك العزيز أن يعيرني رسائل مونتسكيو – لأني لم أعثر عليها حتى الآن – حتى أتعذب مثله فصورتي صفر، وأنا أريد أن بحث مثله عن معناي.. وإني بريء من دم دانيال نفس برائي من دماء الحرم الإبراهيمي فهذه الدنيا نفي وعليك بالبحث عن الإثبات.
- أهلا.. مدام مريم
فلا ترين في وجهه شيطانا أسود ولا أنيابا ولا أظافر، ثم تجتاحك النشوة بإزالة الوهم الذي وضعه لك.. اسمه سهل !! .. هه!.. وتضعين كفك في مواجهة وجهي!
إنها لا توفى لحبيب، بل تنفصل عنه فلا تجعل هذه المتقلبة ذات العشرة قلوب موطنا لسرك. إنها تصب الخمر وبدلا منها تبيع الخل فلا تجعل تلك الحامضة ساقيك وخمارك.. وأنا الذي كنت أكذب ما سمعته عنك أيام الجامعة فكيف استطاعت قدماك أن تحمل جسدك الطاهر وتقوده إلى مخدعه يا حبيبتي، ويا أيها القلب اهرب فإن ذوات الوجوه القمرية أسفرن

بوجوههن من حجاب الغيب وهن ثملات ويعرفن طريق الدار، فإنهن لسن ثملات من الفساد ومادام العشق يلد فهن يلدن ومادامت الذاكرة موجودة فهن متذكرات لقوائم ترشيح الحزب والمراكز الهامة في الشركات القابضة الخالية من الأقباط – فيما عدا صدقة التعيين المرفوضة من كل كريم.. وللخط الهمايوني والأثرياء الذين يتمسكون ببقاء ثروتهم في وطنهم معبد الروح هاكبتاح، فإيزيس وأوزوريس وحورس قد اختفوا بعد نكسة الخامس من يونية، وهن متذكرات أيضا للتكفير والهجرة وحرق الكنائس وتعصب الأسر الجماعية في الجامعات والكنائس للتعبير عن سخطهم وغضبهم المشروع والخامس من سبتمبر 1981 ويجب عليك أيها الابن المبارك والأخ الحبيب المؤيد بنعمة روح القدس أن تتسلم زوجتك في هذه الساعة المباركة بنية خالصة ونفس طاهرة وقلب سليم، ولا مسئولية لأحد عن تخلف العرب غير العرب يا دكتورة ومن التناقض يأتي التكامل ومن التنافر يأتي التجاذب ..آه عليك يا خيمتي وقد خيمت عليك الحسرة فلم تطئك قدما مريم وإنما راحت تستعذب الشوك في صدر حسن شحته يجرح صدرها الحبيب ويدنسه.. "تحت ظله اشتهيت أن أجلس وثمرته حلوة لحلقي. أدخلني إلى بيت الخمر وعلمه فوقي محبة".

- بماذا تسمي وضعنا الحالي؟
- زوجان متحابان بالروح مع إيقاف التنفيذ بالجسد.

لقد تزوجتها فعلا بروحي وضميري وأحاسيسي وأعلنت لها أنها صارت زوجتي الثانية.

- قمة الحرام حتى لو لم تتلامس أناملنا.

ولم أعبأ بقولك فتزوجتك وكان أطفالنا هم المشكلة فالأقباط لن يعترفوا بمن يرتد ولذلك سيلتزم الأولاد بدين الأب، وهم لن يعترفوا بارتدادك لو أسلمت وأنا أعرف أنك لا تكرهين الإسلام إذ رأيتك تدمعين بحرقة وأنا أقرأ عليك سورة مريم، والأولاد لو اختاروا دين الأم فسوف يتشتتون بين الدينين وتنفصم شخوصهم ولا يجدون بديلا عن الهرب والهجرة، ولقد قال لك عميد الكلية يوما:

- احتشمي في ملبسك يا دكتورة.
- أنا حرة في اختيار ملابسي.
- إذن فلا تأتيني شاكية من مغازلة أستاذك ومضايقاته لك.
- ولمن أشكو من يضطهدني ويحول دون ترقيتي؟

وأجبرت يا مريم على ارتداء البالطو الأبيض الجميل وكنت أحسب أنك ترتدينه من باب الاحتشام الغريزي وكنت أحدثك دون أن تسمعيني وقد رأيتك في هالتك النورانية جزيرة عشقي البكر فأقول لك: تعالي يا حبيبتي معي بعيدا عن غرور العالم فأنا مكتشف أرضك الساحرة. تعالى كما أنت " أحزينة أنا أعزيك. أمريضة أنا أشفيك. أمحتاجة أنا أعولك. أخائفة أنا أطمئنك. أباكية أمسح دموعك" ويا فرحة عمري يوم تعطفت على قائلة:

- تعال لأسلمك قلبي.

وذهبت إلى الطبيب ليضع بين فخذيك قناعا مستعارا كالذي على صلعتك قبل أن يدركها الشيب يا أحب مخلوقة عندي. يا من أفنيت عمري " أبحث عنك في محاجئ الصخر في ستر المعاقل في شقوق الصخور وفي محاجئ الصخر في ستر المعاقل في شقوق الصخور وفي مخابئ طيات الجبال. هل أنت مهمومة؟.. ألق على الرب همومك فأنا أعولك. هل أنت متعبة؟ تعالي إلى وأنا أريحك. أعليك مشقات؟ صلي.. أسمعيني صوتك" فسأظل أحبك وأصلي من أجلى ومن أجلك.

ويا مولاي إن كنت لا تريدني فأنا أريدك بالروح وإن لم تفتح لي الباب فأنا مقيم على عتبته حتى الموت. وإلى أين أمضي على رأسي ولي قلب، وأنا وقلبي وجسدي مجرد ظل لمليكي ومولاي. وحصلت على الأستاذية يا مريم. وعلى المنصب الكبير ثم على شركتك الكبرى يا مريم، فافتحي الآن قبضتك السليمانية ولسوف تعرفين أنك لم تحصلي على شيء وأن كل ما حصلت عليه باطل الأباطيل وقبض الريح. لقد عجزت عن الحصول على أكثرمما عجزت أنا عن

الحصول عليك.. ولقد فرغت من كلتا الدارين وهززت لهما كتفي مادمت جالسا إلى جوار كلام الله فلا أفكر في جاه ولا رئاسة ولا سلطنة، وتكفيني دولة العشق منصبا وجاها. إننا أعداء لأنفسنا والحبيب هو الذي يجذبنا ونحن غرقي في البحر الذي يجذبنا موجه وكل عاشق كالمتصور يقتل نفسه فدليني على غير عاشق يقتل نفسه عمدا، وإن الأجل ليطلب الناس مائة مرة في اليوم وعاشق الحق يقتل روحه دون أن يطلبها الأجل..

وقال لي أنا الظاهر والباطن والأول والآخر فلا تحسب أن الجمال والحسن والبهاء لمحبوبتك ولا تذكرني فتلك ودائع حين استردها بمشيئتي تغدو حبيبتك جلدا على عظم ثم جثة بلا روح ثم رمة مدودة، فترابا تذروه الرياح وأعلم أيها المنسوب إلى العلم بوقوع الصحو لك تتبين حيرة السكرة وتكون الإفاقة على وقت الغمرة وبصحة الذكر ينكشف لك وبال الغفلة وبالسلامة والعافية يتميز لك وقت العلة.

بعد قليل سأفتح بابي وأخرج إلى نور دنياي الجديدة المعلقة بآخرتي من يمينها وشمالها ومن فوقها وتحتها ومن أمامها وورائها.. النور. النور. النور.. وسوف أملأ حياتي بالناس ورب الناس ولن أنسى يوما أنك كنت صاحبة الفضل في ذلك. ولقد غيبت نظري في نظره.. الله أكبر الله اكبر ولا إله إلا الله. محمد رسول الله وكل أنبيائه ورسله أحبائي في النور.. وأفنيت عن كل فإني حققت ما وجدت غيره وأمسيت في الحال هاني وإن أهل البلاء لما اتصلوا بحادث الحق فيهم وجاري حكمه عليهم وتغربت أسرارهم وتاهت أرواحهم عمر الأبد فلا تأويها المواطن ولا تجنها الأماكن، تعد إلى مبتليها حنينا وتئن بفناء النائي عنها انينا، قد شجاها فقدانها وذلها وجدانها، أسوفة عليه موجعة لديه، متشوقة في الوجد إليه، أعقبها بها ظمأ ويزيد الظمأ في أحشائها نماء فهي الكلفة بمعرفتها السخية بفقدها والحمد لله فإذا جئت إلى الآن يا مريم وطرقت على بابي وفتحت لك فلسوف أسألك صادقا وكلي دهشة إذ أراك لأول مرة في عمري"

- من أنت؟

وأعلمي يا مريم أنى مسيحك وكاهنك ومخلصك ومحبك الأبدي، وليسمو بك حديث غفراني إلى الملكوت الأعلى ولتنفذ كلماتي في قلبك لتذيب كيانك وتغتسلي وتتطهري بدموعك الحارة فلقد اخترت النصيب الصالح ولن ينزع منك أبدا.. ولتعطري يدي بالطيب ولتمسحي بهما شعرك الحقيقي وكفك الحبيب.

***

(40)

مريم عبد الشهيد

1994

" يا سيد.. إن كنت حملته فقل لي أين وضعته وأنا آخذه"*

تمت

سعيد سالم

***انجيل يوحنا**

أولا: تعريف بالكاتب سعيد ســـالم *

E mail: saidsalem62@yahoo.com , saidsalem170@hotmail.com

-سعيد محمود سالم
اسم الشهرة: سعيد سالم
-من مواليد الاسكندرية 1943
-عضو اتحاد كتاب مصر.رقم العضوية 400
-عضو اتحاد الكتاب العرب.رقم العضوية 624
-عضو لجنة النصوص الدرامية بالادارة المركزية للإذاعة والتليفزيون
-عضو هيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية
-عضو أتيليه الكتاب والفنانين
-عنوان المنزل 5شارع على باشا ذو الفقار شقة 10 بمصطفى كامل.الاسكندرية
-تليفونات:المنزل 5462869 الموبايل 01224390259
-المؤهلات:1-بكالوريوس الهندسة الكيمائية 1964.كلية الهندسة.جامعة الاسكندرية
2-ماجستير الهندسة الكيمائية 1968. كلية الهندسة.جامعة الاسكندرية
-المهنة: رئيس القطـاع الفنى بشركة الورق الأهلية (سابقا) ومهندس استشارى علـى المعاش حاليا.

مجمل أعمال الكاتب حتى عام 2013

-فى مجال الرواية: 15 رواية
-فى مجال القصة القصيرة: 10مجموعات قصصية
-فـى مجـال الـدراما الإذاعيـة: عشـرات المسلسـلات والسـباعيات والسـهرات الدراميـة بإذاعتى القاهرة والاسكندرية.
-فى مجال المسرح:مسرحيتان كوميديتان كل منهما فى ثلاثة فصول
-فى مجال النقد الأدبى:مجموعة دراسات عن أعمال بعض الكتـاب المصـريين والعـرب نشرت بمجلات وجرائد مختلفة.
-فـى مجـال المقالـة: مجموعـة مقـالات ثقافيـة وسياسـية واجتماعيـة نشـرت بمجلات وجرائد مختلفة.
- كتاب بعنوان"نجيب محفوظ الإنسان"..الهيئة المصرية العامة للكتاب 2010
-كتاب نقدى بعنـوان:الاسـكندرية 2010 فيـض مـن الابـداع المتـألق يصـدر عـن مكتبـة الاسكندرية
-فى مجال الدراما التليفزيونيـة: 1-مسلسـل عاليهـا واطيهـا مـن انتـاج صـوت القـاهرة 2008 اخراج وائل فهمى عن رواية للمؤلف بنفس العنوان.
2-مسلسل المقلب.. تحت التنفيذ..عن رواية للمؤلف بنفس العنوان

أهم الجوائز التى حصل عليها الكاتب :

1-جائزة إحسان عبد القدوس الأولـى فـى الروايـة لعـام 1990 عـن روايـة "الأزمنـة" الصادرة عن روايات الهلال بالقاهرة.
2-جائزة الدولة التشجيعية فى القصة القصيرة لعام 94/95 عن مجموعة"الموظفـون" الصادرة عن مطبوعات اتحاد الكتاب العرب بدمشق.
3-جائزة اتحاد كتاب مصر فى الرواية لعام 2001 عن رواية "كف مريم".اتحاد الكتاب بمصر.
4- جائزة اتحاد كتاب مصر فى الرواية لعام 2010 عن رواية المقلـب.المجلـس الأعلـى للثقافة
5- جائزة الدولة التقديرية فى آداب لعام 2012 / 2013
6- وسام الجمهورية للعلوم والفنون من الطبقة الأولى عام 2013

مجالات نشر قصصه القصيرة :

على مدى مايقرب من ثلاثين عاما نشرت له مئات القصص القصيرة والمقالات فى الجرائد والمجلات المصرية والعربية الآتية:

الأهرام-الأخبار-أخبار اليوم-أخبار الأدب-الجمهورية-المساء-أكتوبر- حواء-مايو- الهلال-الثقافة-الكاتب-إبداع-آخر ساعه-روز اليوسف- القصة- عالم القصة-البعث-تشرين- الموقف الأدبى-الآداب-الثورة-الأسبوع الأدبى-البيان-الأنباء- العربى-الفيصل-المجلة-الحرس الوطنى-الشرق الأوسط-الدستور- الرأى-اليوم السابع-صباح الخير- الكويت-البحرين الثقافية- الرافد.

الروايات (15روايه) :

1-جلامبو جماعة أدباء الاسكندرية 1976
2-بوابة مورو جماعة أدباء الاسكندرية 1977
3-عمالقة أكتوبر الهيئة المصرية العامة للكتاب 1979
4-آلهة من طين الهيئة المصرية العامة للكتاب 1985 طبعة أولى
دار الجليـــل بدمشق 1986 طبعة ثانية
5-عاليها واطيها وزارة الثقافــة بدمشق 1985 طبعة أولى
دار المستقبل بالقاهرة 1992 طبعة ثانية
الهيئة المصرية العامة للكتاب 1995 طبعة ثالثة
6-الشــرخ دار طلاس بدمشـــق 1988
7-الأزمنـــة روايات الهلال بالقاهرة 1992
8-الفلــوس دار المستقبل بالقاهرة 1993
9-الكيلو 101 دار المستقبل بالقاهرة 1997 طبعة أولى
الهيئة المصرية العامة للكتاب 1999 طبعة ثانية
10-كف مـريم اتحاد كتاب مصر 2001
11-حالة مستعصية روايات الهلال 2002
12- الشىء الآخر دار ومطابع المستقبل بالفجالة ومكتبة المعارف ببيروت 2004
13- الحب والزمن نشرت على 13 حلقة بجريدة الدستور 2007 ثم بروايات الهلال فى يوليو 2011
14- المقلـــــــب المجلس الأعلى للثقافة 2009
15- الفصل والوصل الهيئة العامة للكتاب تحت الطبع

المجموعات القصصية (10مجموعات):

1-قبلة الملكة اتحاد الكتاب العرب بدمشق 1987
2-الموظفون اتحاد الكتاب العرب بدمشق 1991
3-الجـائزة قايتباى للطباعة والنشر 1994
4-رجل مختلف الهيئة المصرية العامة للكتاب 1995
5-الممنوع والمسموح مختارات فصول 2002
6- أقاصيص من السويد هيئة الكتاب 2005
7- قانون الحب 2006
8-هوى الخمسين نهضة مصر 2011
9-رحيق الروح المجلس الاعلى للثقافة تحت النشر
10- الكشـــــف الهيئة المصرية العامة للكتاب 2013

ثانيا:القضايا الجوهرية فى أعمال سعيد سالم

تتعرض أعمال سعيد سالم الروائية والقصصية والدرامية للعديد من القضايا والأفكار المعاصرة ذات الطابع الانسانى من خلال لغة سردية عالية تجمع بين التفلسف والسخرية، يتخللها حس صوفى ازداد ظهوره فى إبداعاته الأخيرة. وإذا كانت لغة الواقع هى اللغة السائدة فى معظم أعماله فإنه يمزج بها الخيال والفانتازيا أحيانا فى أشكال فنية متعددة دائمة التطور والتغير بما يتلاءم مع طبيعة المضامين الفكرية التى يتناولها.

وهو لايعتمد بصفة أساسية على السرد،وإنما يستخدم بتلقائية فنية وسائل متنوعة يطوع فيها سائر الفنون الأخرى لخدمة فنه الروائى،فنجده يستخدم الحوار الاذاعى والمسرحى والمونولوج الداخلى والرسائل المتبادلة وحديث الشخصيات والسيناريو السينيمائى وتيار الوعى فى مزيج يشعل من لهيب العمل ويزيد من جاذبيته.ومن ثنايا حديثه لنادى روتارى شرق الاسكندرية فى 8/1/2001 نتلمس إحساسه بأهمية الرواية كفن أدبىودورها المؤثر فى المجتمع من حيث مخاطبتها للعقل والوجدان،رافضا مذهب الفن للفن،فالفن عنده وسيلة لتحقيق التناغم والتصالح بين الانسان ونفسه من جهة،وبينه وبين الحياة والكون والخالق من جهة أخرى،وهو يرى أنه رسالة تحمل من الدلالة أكثر مما تحمل من الفكر.

والمتابع لمراحل التطور الفنى لأعمال سعيد سالم يمكنه أن يقسمها الى مراحل خمس.من هذا المنطلق نجد أعماله الأولى"جلامبو-بوابة مورو-عمالقة أكتوبر"تتناول قضية الانتماء، لابدرجاته المتصاعدة ابتداء من ثدى الأم وانتهاء بالكون العظيم والخالق الأعظم، وانما باختيار الانتماء للوطن بصفة خاصة.وفى مرحلة تالية:"آلهة من طين ومجموعات قصصية أخرى"يتناول فكرة خلاص الانسان من خلال الدين والفن،ثم يقترب من الفانتازيا فى مرحلة ثالثة:"عاليها أسفلها-الأزمنة-قبلة الملكة –الموظفون-رجل مختلف"-يتعرض فيها لقضايا أخرى كهوية الثقافة المصرية،وظاهرة الفساد الذى استشرى فى المجتمع،ومفهومه للحرية،ورؤيته للوجود الانسانى..ماذا يريد الانسان من الحياة وكيف يحقق سعادته..ويغلب على هذه المرحلة طابع التأمل والتفلسف والتساؤل.

وفى المرحلة الرابعة يتصاعد اهتمامه بالقضايا السياسية القومية والعالمية من منظور انسانى ، كما يتعرض فى هذه المرحلة لتناول فكرة المال وعلاقته المعقدة بالانسان، ويلاحظ غلبة التحليل النفسى على معظم أعمال هذه المرحلة:"الشرخ- الفلوس- الأزمنة-حالة مستعصية-الجائزة".

وفى المرحلة الخامسة يتصاعد الحس الرومانسى والصوفى فى روايتيه الأخيرتين:"الكيلو 101"و"كف مريم"، ويتسع أفق رؤيته للإنسان والكون والحياة، وتتبلور رؤيته لطبيعة التناقض بين العديد من الثنائيات الفكرية كالأصالة والمعاصرة، أوالفرد والمجتمع، أو الدين والدولة،أو الأصولية والليبرالية، من خلال تناوله لقضايا معاصرة كالاغتراب والإرهاب والعلمانية والفتنة الطائفية، وفى "كف مريم" بصفة خاصة كان أمرا مثيرا للدهشة أن يتم تناول مثل هذه الموضوعات الشائكة من خلال قصة حب رومانسية شديدة الخصوصية بين رجل وامرأة من ديانتين مختلفتين وقد تجاوزا مرحلة الشباب.

ومن الممكن أن نلقى بنظرة عاجلة على تلك المضامين التىتناولها سعيد سالم بجرأة شديدة ومكر روائى كما وصفها الدكتور صلاح فضل ،وذلك من خلال آراء النقاد والكتاب الذين أدلوا بدلوهم فيما كتب :

الانتمـــــاء:

كثيرا ما عبر سعيد سالم عن فكرة الانتماء-عند الشباب بصفة خاصة-سواء فى بدايات أعماله الروائية والقصصية، أو من خلال أحاديثه الصحافية والإذاعية،بأنها أشبه بوثيقة مواطنة موقعة من طرفين هما الوطن والمواطن-"قصة المواطن.أخبار اليوم / /2002"- وأنه إذا غاب توقيع أحد الطرفين أصبح التعاقد بينهما لاغيا.فإذا كان الطرف الغائب هو الوطن-لأسباب يتناولها- فإن هذا يؤدى بدوره إلى احتمالات عديدة:

***اغتراب الشاب خارج وطنه بحثا عن وطن آخر يوقع معه على الوثيقة.**
***اغتراب الشاب داخل وطنه بتعرضه للاكتئاب والإحباط والألم.**

***اغتراب الشاب داخل ذاته بانضوائه تحت ألوية التمرد والتطرف والانحراف.**

وقد تعرض فى رواياته الثلاث الأولى"جلامبو-بوابة مورو- عمالقة أكتوبر" لنماذج ثلاثة من الشباب اللامنتمى الذى يعتصره الضياع ويهدد مستقبله ووطنه، والشباب ذى الانتماء السلبى الذى تعوقه مسببات اجتماعية أوسياسية أو نفسية عن تحقيق انتماء يرغب فيه ويعمل جاهدا على تحقيقه، والشباب ذى الانتماء الإيجابى الذى كتب عليه أن يبذل حياته مناضلا لأعتى قوى الشر والفساد والطغيان حتى يحقق ذلك الانتماء.

ولقد فوجىء الكاتب فيما يبدو بأن نقادا وكتابا كنجيب محفوظ والدكتور على الراعى والدكتور يوسف إدريس ويوسف الشارونى والدكتور سيد حامد النساج والدكتور محمد مصطفى هداره والدكتور السعيد الورقى والدكتور محمد زكريا عنانى والدكتور عبد العزيز الدسوقى والدكتور يوسف عز الدين عيسى، قد استقبلوا هذه الأعمال باهتمام شديد مما جعل سعيد سالم يصرح بأنه أصيب بالرعب عندما قرأ هذه الآراء حيث كان شعوره بفداحة المسئولية عما يمكن أن يكتبه مستقبلا ،أقوى بكثير من شعوره بالفرحة لهذا الاهتمام غير المنتظر.

<u>الديـــن والفـــن</u>:

لعله من الملفت للنظر ألا تكاد رواية من روايات سعيد سالم تخلو من إشارات فنية إلى مقدسات دينية إسلامية أو مسيحية أو يهودية، إن لم تتناول أعمال بكاملها:"آلهة من طين-الكيلو 101-كف مريم" التعرض لفعل الدين عند الانسان،إذ يرى سعيد سالم أن "خلاص الانسان فى الأرض لايتحقق إلا بالحب،وأن خلاصه فى السماء لايتحقق إلا بالدين، وأن الفن هو الجسر البرزخى الذى يصل بين الخلاصين". وهو ككاتب مسلم يعترف بالأديان الثلاثة ، يؤمن-كما يتبين من كتاباته- بأن النصوص الدينية الثلاثة أشبه بطبعات ثلاث متتالية لكتاب واحد آخذة فى التطوير والتنقيح حتى انتهت إلى طبعتها المثالية الإسلامية.فإذاكانت الديانة اليهودية تمثل عالم الملك والقوة والمادة والإله الجبار ،فإن الديانة المسيحية تمثل عالم الملكوت والتسامح والروح المتسامية والإله الرحيم، بينما تمثل الديانة الاسلامية وسطا متوازنا رائعا بين عالمى الملك والملكوت،وبين القوة والتسامح،وبين المادة والروح،ولا عجب فهى ديانة الإله العـــادل".(حوار بندوة روتارى شرق الاسكندرية).

وعلى ذلك فإن العبرة عنده بجوهر الأديان الواحد بما تدعو إليه جميعا من حق وخير وجمال، الأمر الذى تؤكده دعواه الفنية المتكررة بنبذ التعصب والتطرف من جهة، وعدم الخلط بين المطلق والنسبى من جهة أخرى"مقالة المطلق والنسبى-نشرة اتحاد الكتاب.فبراير 2001"-ورواية"حالة مستعصية". ومن خلال روايته"كف مريم"الحاصلة على جائزة اتحاد كتاب مصر لعام 2001 يصف الدكتور السعيد الورقى-"الأهرام 11/11/2001"-سعيد سالم بأنه"حكواتى مثقف يملك تلقائية الحاكى الذى يظل مسيطرا على ذهنك حتى نهاية الحكاية، وهكذا كان يوسف إدريس العظيم.وقد استطاع سعيد سالم أن يصنع نسيجا سرديا مثقفا، فيه شاعرية الأداء والتصوير،وديناميكية الحركة المتدافعة،وسحر اللغة الصورة، وعمق الفكر، فى جدل الحوار الذهنى.وقد تناول الكاتب قضية الإرهاب –وهذه براعة منه-دون تحديد قاطع لهويته ،مع أن القتلة ملتحون والقتيل مسيحى،إلا أن الكاتب مسها وكأنها قضية صراع طبقى وثورة الاحساس بقهر الحاجة وتمرد المتخبط بين ايديولوجيات الفكـــر. وقد استغل الكاتب قصة الحب الشائكة بين حليم ومريم بما فيها من رومانسية شاعرية رقيقة ليطل على عدد من القضايا الواقعية والفكرية كتلاقى الأديان وذوبانها فى دين واحد،وهل يمكن لمريم المسيحية وحليم المسلم أن يذوبا فى كيان واحد ووجدان مشترك، وهل يستطيع الحب والتسامح أن يحققا هذا؟..كما تناول قضية الاغتراب خارج الوطن وداخله. ولاتقف براعة سعيد سالم-فى روايته كف مريم-المانع المانح على قدرته فى وضع تصميم بنائى محكم لعمله،ولا على دقته فى رسم شخصياته،وفى تكوين علاقات هذه الأشخاص ببعضها وبنفسها وبالحدث، ولا على منظومة القضايا والأفكار التى كانت حاضرة فى ذهنه وحركها من خلال شخصياته،ولا على التوازن الحسابى الدقيق لاستحضار أصوات شخصياته وتناسب حجمها مع حضورها، وإنما يقف

على قمة براعته الأدائية لغــة السرد لديه بما فيها من شاعرية مثقفة وما فيها من قدرة حركية تمتلك خصوصيات السرد".

ويلاحظ أن نفس الناقد قد سبق له أن تناول أولى روايات الكـاتب بالنقد منـذ خمسـة وعشرين عاما على وجه التحديد.

وعـن نفـس الروايــة وصــفه الكــاتب عبــدالعال الحمامصــى"مجلــة أكتــوبر 23/11/2001"بقوله:"منذ بزوغه مبدعا موهوبا فى السبعينات من القرن الآفل،أعطانا الكاتب السكندرى الكبير سعيد سالم مجموعة كبيرة من الأعمال الإبداعية روائيا وقاصا.وقد حملت هذه الأعمال من القيمة الأدبية ماجعله واحدا من أعلام الحركة الإبداعية بين أدباء الجيل".

وتصفه الناقدة فوزية مهران"جريدة الأسبوع العدد 235/2001"بتألق أسلوب السرد المبدع وارتفاعه الى شـاعرية نـادرة بمقامـات الحـب والعشـق والقـدرة علـى تصـوير المشـهد بالحوار الذكى الموحى ليحيط بما يجرى على أرض الواقع وداخل النفوس".

وقد عبر الناقد السورىشوقى بغدادى فى مقدمته للطبعة الثانية من رواية"آلهة مـن طين" عن رأيه فى هذه الروايةبقوله:"إن سعيد سالم شخص لايمكن نسيانه بعد الآن.لقد صـار لكلماته معناها الحى الحاضر فى الذهن وكأننى أعرفه شخصيا منذ سنين عديدة،ذلك أن الروايـة لم تكن مجرد متعة فنية،بل كانت أيضا وثيقة شخصية فى اعتقادى على صاحبها ، فالاسـكندرية كبيئة والتخصص العلمى كخلفية والخصوصية المتفردة كأداء ، كلها كانت حاضرة فـى الروايـة بشكل أو بآخر كى تزيدك معرفة لابالفنان وحده ،بل بالانسان الذى يحمل إسم سعيد سـالم ، ذلـك الكاتب الذى يتميز بالاندفاع الشديد المتدفق بوتيرة متسارعة يلهث فيها القارىء والكاتب معا ، وكـأن المخـزون العـاطفى والفكـرى عنـده يخضـع لعمليـة انفجـار أكـثر منهـا عمليـة تأمـل ،ولا تستطيع مناقشة الكاتب فى هذه المسألة ، ذلك لأنهـا تعـود بالدرجـة الأولـى إلـى طبيعـة تكـوينه كإنسان ذى توتر داخلى بالغ الشدة."

ولأن الشكل الفنـى التقليـدى قد لايتلاءم أحيانـا مـع طبيعـة مضـمون شـديد الأهميـة والحساسية كالدين ، فإن سعيد سـالم-كمـا يقـول الـدكتور محمـد مصـطفىهداره فىكتـابه:النـثر العربى الحـديث 1994-"لايعتمـد علـى سـرد الحكايـة فقـط وإنمـا يسـتخدم المونولـوج الـداخلى استخداما جيدا بلغة شاعرية شديدة التكـثيف سـريعة الإيقـاع، ويوظـف الرمـز بصـورة إيحائيـة تستثير الفكر وتجعله دائم اليقظة،وهو يجنح قليلا الى السيريالية فى بعـض الأحيـان ولكـن دون إغراق فى الغموض . ولاشك أن عينه الناقدة التى تعى جيدا ظروف مجتمعها كانت موجودة فـى أقاصيص قصيرة تناول فيها بعض قضايا المجتمع المصـرى ولكنهـا لـم تكـن مرتبطـة بفـرد بـل بمجتمع وأمة على المستوى الإنسانى العام".

وســعيد ســالم يعشــق التجديــد فــى الشــكل:" الظــاهر والبــاطن.ملحــق الأهــرام 29/9/2000"وقصة"رحيق الروح.ملحق الأهرام 28/12/2001"(وهما تنتميان إلى مجموعة رحيق الروح)حيث نجد القصة مكونـة من مجموعة مختلفة من الأقاصيص،كل أقصوصـة قائمـة بذاتها، لكن مجموعة الأقاصيص فى مجملها تشكل محورا فكريا ووجدانيا مشـتركا.كمـا نجـد أن رواية"آلهـة مـن طيـن"-الـتى سبق أن تقـررت دراسـتها فـى منتصـف الثمانينـات علـى شـعبة السـيناريو بمعهـد السـينيما تحـت إشـراف الـدكتور محمـد كامـل القليـوبى-تجمـع بيـن السـرد والمونولوج الداخلى والرسائل المتبادلـة والحـوار الإذاعـى والمسـرحى.وقـد كتـب عنهـا النـاقد السينيمائى الدكتور رفيق الصبان فى مجلـة روز اليوسـف 27/3/1989 قـائلا إنهـا"لـو وجـدت طريقها الى الشاشة فسوف تترك فى النفوس أثرا يماثل إن لـم يفـق الأثـر الـذى تركـه قنـديل أم هاشم يحيى حقى أو شحات نجيب محفوظ."

وفى رواية"الأزمنـــة"نجده يدخل-لأول مرة-السيناريو السينيمائى فى نسـيج العمـل الروائى بتلقائية شديدة ودونما افتعال،بينما نجده يترك شخصياته تكشف عن خبايا نفسها وعن علاقتها بالآخرين بضمير المتكلم فى روايته"كف مريم".ورغم أن هذا التكنيك ليس من ابتكاره

إذ سبقه إليه البعض ،إلا أننا نجد جمل الحوار عنده مختلفة حين يرويها طرفا الحوار كل من وجهة نظره .

الثنائيات المتناقضة:

مثلما اعترض سعيد سالم على مايمكن أن يشكل تناقضا بين الدين والفن، فالفن جمال والله جميل،نجده يرفض وجود جبهتين فكريتين متصارعتين تكاد تكفر كل منهما الأخرى باعتبارها صاحبة الحقيقة الواحدة والمطلقة، ذلك انه يؤمن بالحل الذى يقوم على التكامل لاعلى التفاضل ،فهو يرى مثلا انه كلما تعمقت الأصالة تألقت المعاصرة"فى حديثه لمجلة الشراع اللبنانية 12/27/"1981- حيث يتوقف الأمر على حسن انتقاء مايلزم ورفض مالا يلزم،بما لايتعارض مع القيم الانسانية النبيلة من جهة أو مع قيم الحداثة والتقدم من جهة أخرى،بذلك تكون الحصيلة تكاملية لاتلفيقية.أما التشبث بالماضى بحذافيره دون اعتبار لمرور الزمن و تجدد متغيراته ،أو الأخذ بأسباب المعاصرة من الغرب المتقدم كما هى بخيرها وشرها فذلك كله مرفوض.وهو يرى أن تبنى هذا الفكر التكاملى يؤدى الى ازالة الكثير من التناقض بين اتجاهات فكرية عديدة مازالت فى جدل عقيم حتى الآن كالأصولية واللبرالية،التراث والحداثة،الفرد والمجتمع،الدين والدولة، وغيرها من التيارات المتقاتلة فى ضراوة والتى تكرس حالة من الانفصام الفكرى على مستوى المجتمع والفرد وتؤدى فى النهاية إلىالتردد والعجز عن اتخاذ قرارات مصيرية أصيلة قائمة على المبادرة بالفعل وليس على رده فقط:"رواية حالة مستعصية".ولعل حيوية الدراما فى مجمل أعمال سعيد سالم ترجع بالدرجة الأولى إلى احتدام الصراع الفنىوالفكرى بين العديد من المتناقضات التى نراها ممثلة فى شخوصه وأحداثه.

المـــــال:

بقيت فكرة المال وعلاقته بسعادة الإنسان مستترة فى بعض أعمال سعيد سالم التى تسخر مما آلت إليه حياتناالمعاصرة من تعليب للوعى و تسعير للشعور وتسويق للوجدان حتى بدأ العالم يتحول إلى غابة لايستطيع الحياة فيها سوى أقوى الوحوش، إلى أن اقتحم معاقلها بجرأة فنية تجريبية فى روايته"الفلوس"ومسلسله الدرامى"رحلة الصعود والهبوط.إبريل 1994". إنه يؤكد لنا من خلال حكيه الفنى المحكم-والذى اشترك فيه الحيوان مع الانسان-على بديهيات قد نعلمها جميعا ولكننا ننساها فى خضم الحياة،وهى أن المال وسيلة لاغاية،وهو زائل لامحالة إما لأسباب دنيوية وإما بالموت،وأن هناك قواعد سماوية تريح الانسان وتدفع عنه الجهد والعناء لو اتبعها فى التعامل مع هذا المال الذى هو بمثابة عهدة مؤقتة استخلف فى الأرض لإنفاقها..وكأن سعيد سالم يقتفى أثر سيدنا على بن ابى طالب حين يقول"إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق فيها فإنها لاتفنى،وإذا أدبرت عنك الدنيا فأنفق فيها فإنها لاتبقى"وذلك من منطلق اعتقاده-حسبما تؤكد كتاباته-بأن رزق الانسان هو ما ينفقه فى دنياه،أما مايكنزه فهو رزق غيره.وفى مسلسل"مفتاح السر"الذى أذيع فى يوليو 2000يقوم العمل بأكمله على الجدل حول فكرة الإمام الشافعى التى يطرحها قائلا:

رب قسمتها حظوظا علينا/فنعما لذا وتعسا لذاكا

لاعلم ولاذكاء ولكن / لك سر يحير الإدراكا

إذ يتعرض لها فى حوار أذيع على مدى شهر كامل وكانت الغلبة فيه للأخذ بالأسباب واحترام قيمة العمل دون تكالب أو لهاث أو صرع على المال، بما يحقق للإنسان سعادته المرجوة دون التخلى عن إنسانيته. وفى مسلسله الكوميدى: "الدكتور مخالف".الإذاعة.إبريل 1977نجده يحث على أنه لابد لكل إنسان-خلال مسيرة حياته-من وقفة مكاشفة مع النفس ومواجهة مع الضمير، يسترجع فيها مواقفه من الحياة بخيرها وشرها،ويلتقط فيها أنفاسه استعدادا لمواصلة الرحلة فى ظروف أفضل وفى مناخ أجمل ،متخلصا من سلبيات الماضى وأخطائه، مستشرفا مستقبله الجديد بروح عامرة بالحب والصفاء.وكما تتحتم هذه الوقفة على

الفرد فإنها بنفس الكيفية تتحتم على المجتمع، خاصا بالذكر مجتمعنا المصرى سليل المجد القديم.

ولأن سعيد سالم مولع بالثنائيات والمتناقضات الجدلية -ولعل ذلك راجعا بالدرجة الأولى إلى طبيعة تفكيره كمهندس كيمائى مارس بيديه تفاعل العنصر مع عنصر آخر لينتج مركبا ثالثا يمكنه التفاعل مع مركب رابع لينتج خامسا وهكذا، فمن التناقض يتم التخليق-فإننا نجده يعقد مقابلات صارخة بين فكر الشرق وفكر الغرب بوجه عام فىمجموعاته القصصية: "أقاصيص من السويد"و"هوى الخمسين" و"رجل مختلف" وبوجه خاص حول التعامل مع المال والقانون والوقت والعمل فى مسلسله الدرامى:"زارع الأمل".سبتمبر 1987 .

<u>إسرائيل وحلم الوحدة العربية:</u>

من الهموم الملحة التى تؤرق فكر سعيد سالم هم الوحدة العربية المؤجلة إلى أجل غير مسمى:"الجائزة"، إذ يزعجه إلى درجة الجنون اتحاد دول أوروبا رغم تناقضاتها اللغوية والجغرافية والدينية والاجتماعية،فى الوقت الذى يعجز فيه العرب، المتجاورون جغرافيا وأصحاب اللغة الواحدة والدين الواحد والمصلحة القومية الواحدة أمام تحديات الاستعمار والصهيونية، عن اتحاد مماثل يواجهون به عصر العولمة والتكتلات الاقتصادية الكبرى و سيطرةالإعلام العنصرى الأمريكى والغربى والصهيونى،مهيئين بذلك الموقف المتخاذل فرصة لاتعوض أمام إسرائيل لتحقيق حلمها الأسطورى الخرافى باحتلال العالم العربى من النيل إلى الفرات استنادا إلى أكاذيب لاهوتية يعلمون أنها مختلقة، مطبقين بروتوكولات حكماء صهيون تطبيقا حرفيا بنجاح لاحدود له:"قصة آلام يعرب، وقصة بروتوكولات حكماء الشركة العربية المتحدة للصوتيات والمرئيات"..حيث تتردد عبارات وحدوية مثل:الولايات المتحدة العربية،و"المعجزة الإسلامسيحية"و"التجمع الإنسانى"و"وحدة الأديان" فى سياق العمل بما يؤكد توقه الحارق إلى تحقيق الوحدة العربية كحل لابديل له عن فناء الأمة العربية.

<u>هوية مصر الثقافيـــة:</u>

لايتفق سعيد سالم مع من يحصرون هوية مصر فى انتماء تاريخى أو جغرافى معين كالفرعونية أو القبطية أو الإسلامية أو البحرأوسطية ،إذ أنه يرى فى هذه الهوية مصهورا إنسانيا مركبا شديد الخصوصية، نجح فى استيعاب الحضارات الانسانية كافة.وفى حديثه لأخبار الأدب 13/12/2002 يقول"إن الثقافة المصرية تمثل بخلاف وجهها الوطنى ثقافة قومية بحكم انتمائها العربى كما تمثل ثقافة عصرية تستوعب التيارات الانسانية المتجددة،وهى أيضا ثقافة عالمية بحكم تفاعلها عبر القرون مع الثقافات الأخرى ودون الوقوع فى أسرها.

غير أن المرحلة الفرعونية تمثل هوى خاصا لدى الكاتب نلحظه فى رواية:"عاليها أسفلها" وهى الرواية الوحيدة التى كتبها سعيد سالم بلغة الفانتازيا الخالصة، حيث نما إلى علم الفراعنة أن أهراماتهم قد انقلبت فصار عاليها سافلها وأن أحفادهم المعاصرين عاجزون عن إعادتها إلى وضعها الطبيعى،فقرروا إيفاد ممثلين عنهم ليلتقوا بالمعاصرين من رجال الفكر والعلم والدين والفن والسياسة والاقتصاد والاجتماع لدراسة أسباب الانقلاب والبحث عن حلول جذرية ناجعة لإعادتها إلى وضعها الطبيعى.كما نلمح هذا الهوى فى روايته القديمة:"عمالقة أكتوبر"،ورغم أنها رواية واقعية إلا أنه لم يعدم سببا فنيا لبعث روح أجداده الفراعنة كى تلقى بظلالها التاريخية على الأحداث،ولا غرابة إذن حين يعاود سعيد سالم الإشارة إلى فرعونيته فى مقدمة رواية"الأزمنة"إذ يعرفنا الراوى بنفسه قائلا:"أنا مواطن مصرى الجنسية وإن كان لابد أن أذكر ديانتى فأنا مسلم لكن أبى مسيحى وأبوه فرعونى أما جدى الأكبر فكان يدين بالكون العظيم."

<u>الإنســان والحيـــاة:</u>

تساؤل الإنسان الأزلى عن لغز الحياة، وعن حيرته الأبدية فى الإجابة عنه ، نجده مطروحا على الدوام فى الكثير من أعمال سعيد سالم القصصية والروائية، وقد بلغ ذروته فى مجموعته القصصية:"قبلة الملكة". يقول الناقد محمد السيد عيد فى مجلة إبداع.أكتوبر 1988

: "يردد الكاتب بإلحاح عبارات بعينها مثل:"لست أدرى"و"لست أفهم"و"الأمر شديد الغموض"و"هل تستحق الحياة كل مايبذل فيها؟"و"ما هو قانون الحياة؟" ، ثم نجده يقول:"إن مولدى ومماتى لايعنيان أكثر مما تحمل الكلمتان من معنى، أما المسافة بينهما فلم تكن غير حلم سخيف."ليذكرنا بما قاله أحد الفلاسفة اليونانيين:"إذا كان الوجود موجودا فأنا لا أستطيع أن أدركه لقصر العمر وغموض المسألة" ، ونخرج من الحديث عن رؤية الكاتب فى قصصه الفلسفية بأنه كاتب جاد يحاول أن يمشى طريقا خاصا به لايشاركه فيه معظم أبناء جيله،مما يؤكد طموحه وجرأته".. ويجمل محمد السيد عيد رؤيته فى إبداعات سعيد سالم القصصية بقوله:"إنه كاتب طموح يحاول أن يعرف سر الحياة الإنسانية وأن يثبت قدمه فى أرض التفلسف ويتأثر فى رؤيته كثيرا بالعبث كما يتأثر به فى شخصياته وأحداثه،أما اللغة فتبتعد عن التجريب لكنها فى مجملها جيدة"..وتلح فكرة السعادة على الكثير من قصص سعيد سالم التأملية وهو يستشهد فى روايته"حالة مستعصية"بالمقولة الصوفية"ماذا يصنع أعدائى بى وجنتى وبستانى فى صدرى؟إن حبسونى فحبسى خلوة ، وإن أخرجونى فخروجى سياحة، وإن قتلونى فقتلى شهادة" مستدلا بذلك على مفهومه الراسخ عن السعادة بأنها شعور ينبع كالنور من الداخل ليضفى تأثيره على ما بالخارج وليس العكس كما يعتقد الكثيرون.. وحول موضوع الإنسان والحياة يقول أحمد زكى عبد الحليم فى مجلة حواء 19/3/1988 "يظل سعيد سالم صاحب أسلوب متميز ليس بطلاوة الكلمة فحسب ولكن بمقدرة هذه الكلمة على اختراق الحجب والوصول إلى جوهر الأشياء، بحيث نرى حياتنا ونقف على أقدارنا ونبتسم فى سخرية أو فى حزن من أجل أيام ماضية وأيام مقبلة."

<u>المـــــرأة:</u>

فى شهادته بعنوان"رحلتى مع الرواية والقصة" المنشورة بمجلة فصول.عدد الأدب والحرية.مايو 1992ص 142-153والتى أعاد طرحها فى ندوة له بعنوان"تجربتى مع الكتابة" فى قصر ثقافة مصطفى كامل.أغسطس 2000 يقول سعيد سالم:"بدأت تجاربى الجوهرية الأولى فى عالم المرأة مع أمى التى كانت بمثابة المستودع الكونى لعاطفتى إذ توفى أبى قبل أن أتجاوز الثانية من عمرى.هكذا نشأت مع سيدة تقوم بدور الأم والأب معا.شديدة الذكاء.حاضرة البديهة.قوية الشكيمة.نافذة البصيرة.قمة فى التضحية.أيوبية فى الصبر والصمود أمام متاعب الرزق وتنكر الأقارب، ورغم هذا كله فقد كانت تتمتع بروح السخرية والمرح.كان اختيارها النهائى ألا تتزوج بعد وفاة زوجها وهى الشابة المرغوبة ذات الخمسةوالعشرين ربيعا ،وألا تعرف لنفسها رسالة فى الحياة سوى تربية أبنائها وتعليمهم وحراستهم من نوائب الدنيا،ولقد نجحت فى ذلك.ومثلما كان حضنها دافئا كانت صفعاتها على الوجه قاسية وكأنها -بالفطرة-تدرك فن الإدارة من خلال الثواب والعقاب.

أما التجربة الثانية فى هذا العالم الخصب الجميل-عالم المرأة-فكانت مع فتاتى التى أحببتها منذ صباى ثم تزوجتها فى النهاية وأصبحت أم أولادى ورفيقتى فى الحياة.وهى الأخرى تتمتع بقوة الشخصية وحدة الذكاء وبصفات أخرى عديدة تشابهت مع صفات أمى، غير أنها كانت تتمتع بجمال فريد مازالت بقاياه تشع من عينيها الخضراوتين حتى اليوم.ولعل أكبر إنجاز قامت به فى حياتى هو مساندتى فى رحلتى الأدبية الشاقة".ويضيف سعيد سالم فى حديثه لمجلة حواء 22/7/1995-التى ينشر فيها معظم قصصه القصيرة-"إن بطلاتى فيهن شهامة الرجال".

يفهم مما قيل أن كاتبنا يتمتع بشبع عاطفى إلى حد كبير،ولكن الشبع لايولد فنا مشحونا بعواطف ساخنة متجددة-على عكس ما نلحظ فى أعماله التى تتفجر بالعاطفة!!-وعلى وجه العموم فربما كانت نشأته كيتيم ذات أثر خاص فى رؤيته للمرأة،فاليتيم بطبعه شخصية تأملية،لذا نجده يقول فى نفس الندوة:"لقد كنت فى صباى أجلس الساعات الطوال إلى شاطىء البحر متأملا فى الأفق البعيد ، متسائلا فى حيرة فائقة عن معانى الحب والسعادة والمرأة والجنس والموت والظلم والعدل والجريمة والسلطة والثروة ، فلا أجد الإجابة ، ولذلك لجأت

إلى الكتب فى سن مبكرة بحثا عن هذه الإجابات، وكان من الطبيعى أن أتناول بعد ذلك كل هذه الموضوعات فى كتاباتى باهتمام شديد جدا فاق اهتماماتى بأمور كثيرة فى الحياة."

يتناول سعيد سالم فى أعماله نماذج متنوعة من المرأة، ففى مجموعته القصصية:"رجل مختلف"يصطدم البطل بنموذج عصرى عجيب للمرأة الغربية ص 109 فيقول"كشفت لى عن وقاحة تفوق الوصف ثم طلبت منى أن أضربها بعنف وكانت تبكى وتضحك فى آن واحد، بينما استنفدت جل طاقتى فى إشباعها ضربا حتى منتصف الليل ، حين نامت حضارتان مجهدتان على فراش الحضارة المنتصرة. وفى الصباح عاملتنى كما لو كنت إنسانا تراه لأول مرة.ضاعفت قبلتها الباردة من احتقارىلها.انصرفت بعدأن دعتنى لتناول الغداء بمنزلها فى اليوم التالى ولكنها لن ترانى الى الأبد."..وفى المقابل يعرض علينا الكاتب صورة مناقضة معبرة عن رقة المرأة الشرقية وحنانها فى قصته"رحيق الروح".ملحق الأهرام 28/12/2001 على لسان البطل الذى يصف محبوبته قائلا:"حين يتوسد رأسى صدرها الحنون ويحيط ذراعى بخصرها الهش ، أغادر الأرض بقهرها وقسوتها وملالتها ، لا إلى السماء حيث العدل والرحمة ، وإنما إلى كون آخر يفصل بينهما مثلما يصل..كون برزخى يستقطر فيه عسل الحب والرضا إلى رحيق العشق المتفانى وهى تربت بكفها الرقيق الدقيق على رأسى لأذوب فى عبير عطائها المسكر ، وكأنها تغسلنى فى ينبوع الخلد المتدفق من هذا الصدر العبقرى لتزيل عن روحى أدران المادة وأثقال الشقاء وتمتص ذبذباتى وعذاباتى وحيرتى وقلقى.يا إلهى..كم أحببتها".

وفى رواية الشرخ نلتقى بنماذج لاحصر لها من المرأة يعرضها تجمع للمدرسات المعارات من دول مختلفة إلى دولة عربية أخرى، فى سكنهن الجماعى حيث يتحررن فى المساء من كل قيد وينطلقن فى أحاديثهن عن الرجال بلا ضابط أو رابط فى كلمات يعبرن بها عن خواطرهن وغرائزهن وهواجسهن دون تحفظ ، فى خليط يجمع بين الجريئة والخجولة والمتدينة والماجنة والصامتة والمرحة والمنطوية على نفسها.

ونستطيع أن نخلص من النماذج التى قدمها الكاتب عن المرأة والتى تجمع بين تناقضات هائلة إلى رؤيته بأن المرأة الشرقية-بوجه عام-تعيش فى عالم ذكورى يعتقد فى تميز الرجل على المرأة وحقه فى السيطرة على مصيرها بقدر كبير ، ولا يمنع هذا من وجود نماذج أخرى من المرأة المتمردة على هذاالوضع-مثل نرجس فى رواية الشرخ-سواء انتهى هذا التمرد إلى تحقيق ذاتها لقاء ماتدفع من ثمن ، أو هزيمتها واستسلامها للواقع المشار إليه. وهذا ما تؤكده رواية"حالة مستعصية"حين تكتب الصحافية الشابة" أمنيه" إلى معشوقها قائلة:"الواقع من حولى يابهاء-يا أستاذى وصديقى وحبيبى-أبعد من أحلامى بعد السماء عن الأرض.واقعى كتل هلامية تدعى بشرا. عقول من العصر الحجرى. حرام على المطلقة أن تضحك حتى فى مجلس أبيها ، أو أن تكشف عن شعرها أمام ابن عمتها.عيب عليها المعرفة.عليها فقط أن تبقى فى انتظار السيد الجديد لتتزوج منه وتنجب له وتخدمه ولاترى من العالم الخارجى إلا الطرقات التى تؤدى إلى بيت أهله وأهلها."

المرأة إذن مظلومة عند سعيد سالم ، ولكن عيناه لاتغفلان عن رصد المرأة المتسلطة قاسية القلب فى قصة"التعاقب"-مجموعة الموظفون الحائزة على جائزة الدولة التشجيعية- والتى تدفع بالرجل إلى قتل أبيه.كما ذرى المرأة اللعوب فى رواية الكيلو 101كعاشقة تبذل المستحيل حتى لايملها العشيق ويتركها كما ترك غيرها ، فتتلون على كل الألوان لنجدها يوما تعيش معه بشخصية الخادمة ويوما بشخصية العالمة ويوما بشخصية الطبيبة ، حيث تؤدى ادوارها بإتقان شديد لمجرد أن تجدد من نفسها وتشعره فى كل يوم أنها امرأة أخرى مختلفة عن تلك التى ضاجعها فىاليوم الفائت ، ورغم ذلك فلم يكن مصير تلك العلاقة إلا الفشل والنسيان.

وفى رواية الفلوس تبيع مديحه عهدها لحبيبها عبد الخالق لقاء الارتباط بمن هو أقدر منه ماليا واجتماعيا فتكون سببا فى انقلاب جذرى بحياته ليصبح من أثرى أثرياء

المدينة ، وحين تعود إليه مثقلة بالإحباط والندم لايستطيع أن يعرفها فقد أصبح كائنا آخر غير الذى عرفته من قبل.

مما سبق من نماذج متنوعة للمرأة طرحها سعيد سالم فى أعماله يمكن القول بأنه يرى فى المرأة كائنا رقيقا متفجرا بينابيع الحب والرحمة ولكنها تحت ضغط المجتمع الذكورى الظالم الذى لايكف عن قهر إرادتها تجد نفسها مضطرة إلى إشهارأسلحتها الغريزية الفتاكة كالمراوغة والنفاق والتدلل والدموع والحيلة حتى تجد لنفسها طريقا فى الحياة.

الحـــريـــة:

يقول الدكتور سيد حامد النساج فى معرض حديثه عن مجموعة قبلة الملكة فى البرنامج الثانى من القاهرة 12/12/1990 "إن الفكرة المسيطرة على سعيد سالم فى كثير من قصصه هى فكرة الحرية.وقد اختار فى الأغلب الأعم شخصيات مكبوتة وشخصيات فردية تعيش أزمات فردية أيضا ، وربما وصف بعض النقاد القصة القصيرة انها فن الفرد المأزوم التى تعبر عن آرائه الفردية..إن ماورائيات قصص سعيد سالم مكتوبة بوعى شديد على عكس مانصادف كثيرا من الكتابات التى لاتكشف عن وعى كاتبها سواء بواقعه أو بفنه أو حتى بما يريد أن يقوله فى بعض الأحيان".ويشير الناقد السورى نذير حعفر فى جريدة تشرين السورية 6/2/1988 إلى أن "قصص سعيد سالم تشكل فى مجملها صرخة احتجاج على الظلم والاستبداد والعلاقات اللاإنسانية ، ولعل ذلك ماجعله يلجأ إلى الترميز ومزج الواقع بالخيال فى غلالة من الغموض الفانتازى الذى يصل أحيانا إلى حد الإيهام خشية التعرض للقمع المباشر من السلطات التى يعريها ويدين ممارساتها".

وفى مجموعته القصصية الممنوع والمسموح تتأكد المفاهيم السابقة من خلال معالجاته لقصص"ملفات المواطن عبد الصبور"و"التائه"و"الجحر"و"نشرة الأخبار".ونرى البطل يتساءل فى روايته الأخيرة حالة مستعصية "ماذا أفعل وحاملة الطائرات الأمريكية العملاقة تقف بعيدا فى عرض البحر عند حافة الأفق معترضة حلمى القديم بالجنة.لقد كنت أنوى الاستحمام عاريا قرب الشاطىء لكنى تراجعت.يبدو أننى جبان.استولت على فكرة مفاجئة:ماهو تعريف العدو؟..تخيلت نفسى داخل زنزانة عربية تجمع بين الأصالة والمعاصرة فى نسق تركيبى منسجم لايعرف التناقض .تتدلى الورود والأغصان من بين فتحات أسلاكها الشائكة وأسوار قضبانها الجميلة، والتهمة هى السب فى ذات الزعيم.أى زعيم. أنت وحظك يابطل.ياإخوانى نحن الكتاب العرب ضمير الأمة.هه.دعونا حتى نتكلم فقط."وهو يعبر بحرقة فى مجموعته أقاصيص من السويد عن تلك العوامل التى تعترض حريته وتقيده بالفولاذ:"ذلك التراث الطويل العريض العميق من القهر الفردى والجمعى والفكر الموروث الذى تكاتف الزمن والموقع والدين والحكام والتاريخ فى تكبيلى به.يقتلنى التردد.يعذبنى.يكوينى بلهيب الخوف من المحظور وسوء الظن وخشية سوء الفهم وشىء من الإحساس بالدونية،رغم المخزون الهائل الذى لقنته منذ طفولتى عن حضارة آلاف السنين."إن الإحساس بالقهر فى الحاضر والخوف من المستقبل فى مجموعته:الممنوع والمسموح يدفعان بالبطل الباحث عن الخلاص فى الحرية لأن يقول:"فكرت بإخلاص شديد أن أقفز من أعلى البرج لا منتحرا ، وإنما راقصا مصفقا فى ليلة أنس أستقطر فيها متع الدنيا بنسائها الخمريات والبيض والسمر وقناطيرها المقنطرة من الذهب والفضة . بدأت حدة شعورى بالخوف من المستقبل تخف تدريجيا.ولما ازدادت ثقتى بنفسى بدأت أخلع ملابسى قطعة وراء الأخرى وألقى بها إلى الشارع دون أن اتوقف لحظة عن الرقص..بينما تعالت أصوات التهليل والتكبير من أسفل إلى أعلى."

ظاهرة الفســـاد:

يقول الدكتور مصطفى عبد الغنى الناقد الأدبى بجريدة الأهرام فى كتابه"قضايا الرواية العربية".الدار المصرية اللبنانية 1999 عن تناول سعيد سالم لظاهرة الفساد فى أعماله"ويكون الراوى من الفطنة بحيث يربط بين الفساد الداخلى وعلاقة القوى الغربية به ، فكل أولئك الذين ينهشون جسد مصر كل يوم إنما يعيشون تحت تبعية القوى الامبريالية ، فهذه

القوى تسعى إلى حماية النظام السياسى الفاسد لكى يحقق طموحها المستمر فى الهيمنة خلال خلق مجموعة من الفاسدين المستفيدين من ذلك، وبهذا تستطيع أن تحقق أهدافها.إن الكاتب كان دائم العود إلى العدو الخارجى وربطه بما يحدث فى العالم مستخدما كثيرا من اساليبه الفنية من التقطيع السينمائى والاسترجاع والتسجيل وما إلى ذلك."

وتكاد تكون قضية معالجة الفساد الذى يستشرى فى المجتمع المصرى والعربى أن تكون هواية سعيد سالم المفضلة والتى لايكاد يتركها فى عمل حتى يعود إليها فى عمل آخر.فرغم نجاح المصريين فى عبور خط بارليف الرهيب باقتحامه ثم تدميره ، إلا أنهم لم يحققوا نفس النجاح فى تصديهم لخط بارليف الفساد الداخلى الذى ظل ينخر فى جسد القطاع العام حتى أتى عليه..ذلك الفساد الذى يحول دون تقدم الأمة وانطلاقها إلى آفاق العصر الحديث ، والذى يتعرض له من جوانب مختلفة فى رواياته:"عمالقة أكتوبر" و"الأزمنة" و"الكيلو 101"وهو حين يتعرض لفساد أصحاب الثروة والسلطة من المتاجرين فى قوت الشعب وأراضى الدولة حينا وفى السموم والمخدرات حينا آخر ، فإنه لايكتفى بإلقاء الضوء على وقائع الفساد وإنما يتغلغل فى أعماقه وجذوره ودوافعه ، ليكشف لنا عن ضعف الرقابة على المال العام وعدم مراعاة العدالة فى توقيع العقاب على المفسدين.وهو يعرى لنا تكنيك هؤلاء المفسدين فى توريطهم لمسئولين من السلطة لضمان السكوت وتوزيع المسئولية عند السقوط ، كما يفضح قدرتهم على التمويه باستخدام الإعلانات والتمسح بالدين وبناء المساجد وتوزيع ممتلكاتهم المسروقة بأسماء أقاربهم ، ويسخر من وقاحتهم حين يبررون الفساد بادعائهم أن العمولة أمر معترف به عالميا وأن لكل إنسان ثمن مهما ارتفع ، وأنه مادام الكبار ينهبون فلا مانع من مشاركة الصغار ، وأنه بدون سلطة أو ثروة تستحيل الحياة الكريمة..ولقد أفاض سعيد سالم-بحكم عمله فى الصناعة-فى شرح هذه الأمور خلال لقاءاته المختلفة فى المنتديات الأدبية.

وفى مسرحيته الكوميدية"الدكتور مخالف"المأخوذة عن روايته عاليها أسفلها يطرح لنا تبريرا كوميديا للرشوة كمذهب يعتنقه بعض الموظفين وهو ما أسماه بمذهب "التكافل الاجتماعى الإجبارى". ذلك أن الأغنياء لايساهمون فى التكافل الاجتماعى السماوى ممثلا فى الزكاة والصدقات ولا فى التكافل الاجتماعى الأرضى ممثلا فى الضرائب ، ولذلك وجب على الموظفين أن يجبروهم على المساهمة رغم أنوفهم بدفع الرشوة.

ونعود إلى شهادة سعيد سالم بمجلة فصول.خريف 1992 لنجده يتحدث بجرأة بالغة عن ظاهرتى الكذب والنفاق من حيث ارتباطهما بالفساد فيقول:"إن الكذب فى حياتنا قد بلغ ذروته حتى اصبح وجه مجتمعنا قبيحا كأمعائه..وحين اطالع الجرائد والمجلات أصاب بحالة من القرف والاشمئزاز لشدة النفاق الذى يحول الشىء إلى نقيضه بجرة قلم،ويكفى أن أدلل على ذلك بالتصريحات الكاذبة لبعض الوزراء والمسئولين الذين يتعاملون مع الواقع كأنه وهم ومع الوهم كأنه واقع كما لو كانوا يخاطبون شعبا قد فقد عقله وذاكرته وإحساسه،ففى اليوم الذى يصرح فيه أحدهم بثبات سعر سلعة ما ، نجدها قد ارتفع سعرها فى اليوم التالى مباشرة ، وكأنما امتزج الكذب بالصدق امتزاجا"جنسوكيمائيا"يصعب معه إعادة فصلهما مرة ثانية،مثلما يصعب فصل المزيج الكيمائى المكون من مادتين،وإنما تسفر هذه العلاقة غير المشروعة-حيث الكذب هو العنصر الفاعل والصدق هو المفعول به- عن وليد مشوه هو واقعنا الهلامى العجيب الذى تحولت فيه القمة إلى قاع و القاع إلى قمة ."

ثالثا:نماذج من آراء الكتاب والنقاد حول أعمال سعيد سالم(باراجرافات مجتزئة)

أعد هذا الملف الدكتور محمد زكريا عنانى بالتعاون مع الكاتب

****

- **نجيب محفوظ 1**

من حسن الحظ أنني تمكنت من قراءة بوابة مورو، وأشهد بأنها جذبتني إلى قراءتها بسحر فيها لاشك فيه وهى عمل جيد فى تصويره للبيئة ، وبما قدمته من شخوص حية ممثلة في الراوي والأب والفتاتين ، وأسلوبها ينبض بالحياة والتلقائية ، وإني أهنئك عليها وأعتبر عملك من آيات البشرى ببعث الحياة الثقافية التي لم يعد لها من عماد إلا حماس بعض الشبان أمثالك من أدباء مصر العزيزة- مجلة أكتوبر 7/3/1978

نجيب محفوظ 2

أخى سعيد سالم.. تحية طيبة وبعد

فقد تلقيت هديتك بمكتبى بالأهرام ، وقرأتها ، بل هى التى جذبتنى فى قراءتها طوال الوقت برشاقة أسلوبها وجميل فكاهتها وعمق سخريتها. وتابعت ذلك التحقيق الذى قام به أخناتون ورمسيس وحتشبسوت ليعيدوا الى الأهرامات مقامها السوى. انه عمل شائق ممتع ساخر ناقد ، كلما أذكر انك وجدت مشقة فى نشره أسفت وحزنت ، ولكن العبرة على أى حال بالخواتيم.

أصدق التهانى وأجمل التحيات لك وللإخوان جميعا. ودمت للمخلص
نجيب محفوظ
27/11/986

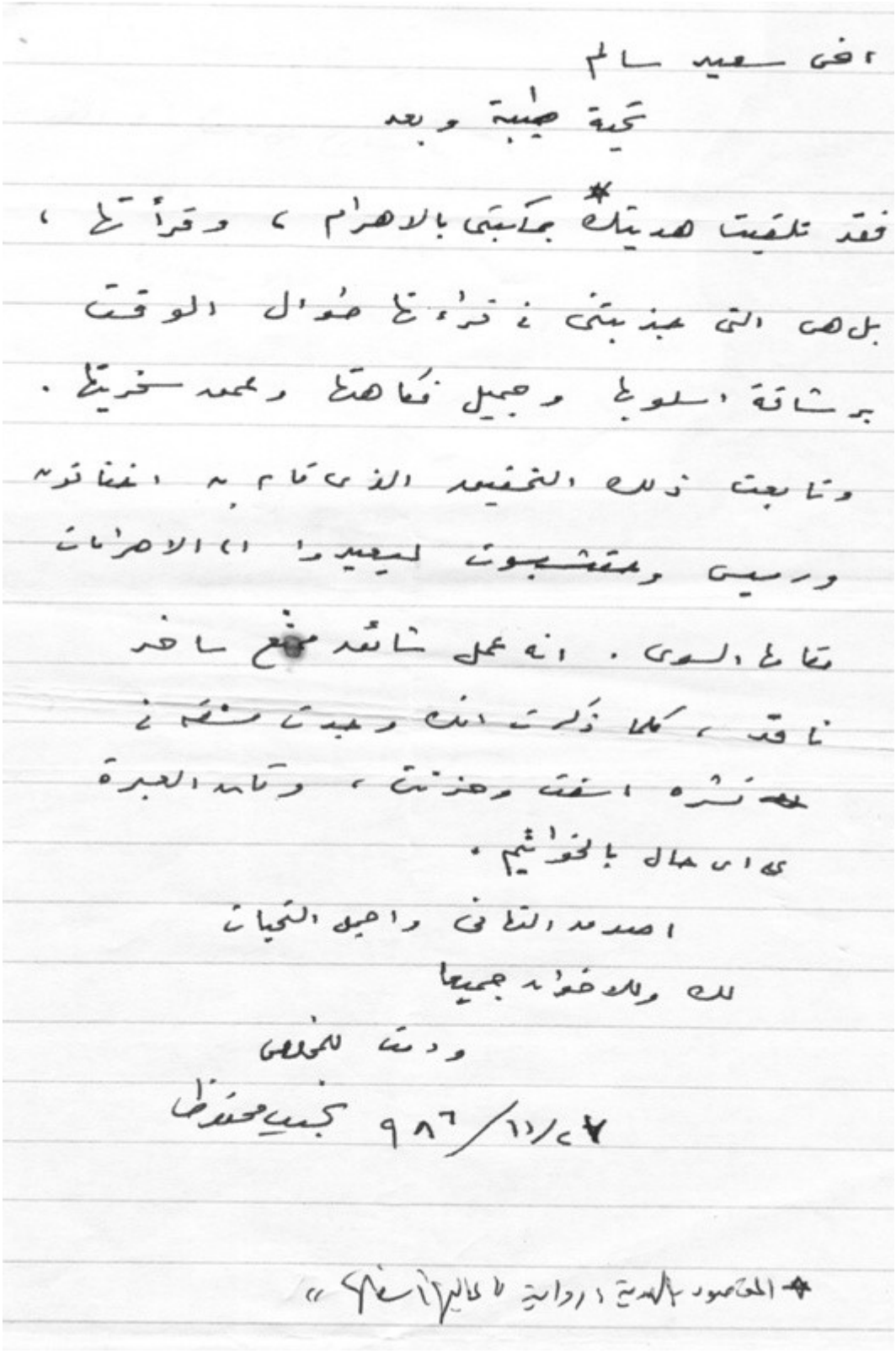

أخي سعيد سالم

تحية طيبة وبعد

فقد تلقيت هديتك* جاءتني بالأهرام ، وقرأتها ، بل هي التي جذبتني ، قرأتها طوال الوقت برشاقة أسلوبك وجميل فكاهتك وعمق سخريتك .

وتابعت ذلك التحقيق الذي قام به ، فناقوه وريس ومتشبوت لسعيد وا ، الاحراءات تقاطع السوى . انه عمل شائق مقنع ساخر ناقد ، كلما ذكرت اسم وعبث شفتاي بشره اسفت وحزنت ، وتأكد العبرة كما ان حال بالخواطيم .

اصدق التلفي واجمل التحيات

لك ولأفراد جميعا

ودمت للخلق

كتبه محمد ٧/١١/٩٨٦

* المقصود بالهدية رواية "الليالي الأسكندرية"

- **يوسف إدريس**

سعيد سالم هو ابن الإسكندرية الذي دخل المسرح الأدبى دخول العاصفة ، والذي أتوقع أنه سيظل يثير من حوله تلك العواصف الخلاقة، وأنا قرأت أعماله الروائية الثلاثة"جلامبو" وبوابة مورو" و"عمالقة أكتوبر" وكنت سعيدا بها جدا ، وسعيد سالم أقل الكتاب تأثرا بي،

فله استقلاله الفني وله طريقته الخاصة وله مدرسته في الكتابة أن قصص سعيد سالم أحسن من قصص يوسف عجنون مليون مرة-مجلة البيان الكويتية – يوليه 1982

الدكتور على الراعي•

مما لاشك فيه أن سعيد سالم قد قدم في بوابة مورو عملا جادا يستأهل النقد الجاد، ومن ثم احتفيت به بالطريقة الوحيدة التى يستأهلها العمل الجاد ، وهى حمله على محمل الجد فعلا ، ومعاملته معاملة الفن القادر على أن يثبت للتحليل ، بما يعنيه هذا من استخدام لأسلحة النقد الثقيلة في عرضه وتفسيره وتبيان نواحي ضعفه ومواطن قوته . مجلة المصـور – 26 نوفمبر 1982

الدكتور سيد حامد النساج•

إن الفكرة المسيطرة على سعيد سالم في كثير من قصصه هي فكرة الحرية ، واختياراته في الأغلب الأعم هي شخصيات مكبوتة تعيش أزمات فردية والواقع موجود في ذهن الكاتب وهو يكتب ، لكنه يستخدم الفنتازيا أحيانا ليعبر من هذا الواقع برسائل الرمز والإيعاز والتضمين ، وأنا اتفق مع الكاتب فى ما ورائيات قصصه فهي مكتوبة بوعي شديد.
إذاعة البرنامج الثاني.. برنامج مع النقـــاد
أنيس منصور : (هوى الخمسين)

في خمسينيات القرن الماضي انتشرت في أوروبا مدارس في القصة القصيرة.. اختلاط بين القصص الواقعية واللا واقعية. وكلهما تهرب من ان يكون لها لون او اسم او مدرسة. وقد بالغ الادباء في الاختلاف. حتي وجد الادباء انه ليس من الضروري ان يدخل اي مدرسة. وظهرت في القصص العربية نماذج منها. وهذا يحدث كثيرا ولكن القليل منها جيد. حتي استاذنا توفيق الحكيم أشار إلي ذلك في روايته وهي التي ظهرت في الادب اليوناني. وظهرت اسماء كثيرة من الادباء الجدد. ومن بين الادب المصري قصة هوي الخمسين للاديب سعيد سالم. وهذه القصة قد ظهرت سنة 1982, وهي مفاجأة, فلم اتصور ان أديبا مصريا يلاحق الادب الحديث جدا في فرنسا. وانت في هذه القصة - لا أنت في قصة ولا أنت علي وعد بقصة, وخيالها لمحات جميلة. بعض هذه اللمحات مضيئة.. ولمحات من الوجود والزمن ولدي المؤلف إحساس عميق بمعاني الزمان والزمن والوجود والحياة والموت. وهي تعد خليطا من مدرسة دريرا بالفرنسية واللمحات الوجودية. ولكنه لايبقي طويلا في اي اتجاء. وانما بعض الزمن وفجأة ساعده الشعور بالموت, فهذا الشعور بالموت سار بلا واقعية.. وفي نفس الوقت يستوقفه الشعور بالفناء. واذا طلب منك احد ان تلخص هذه القصة فإنك لاتستطيع لانها ليست قصة.. وإنما هي وعد بقصة فكرة الوجود والعدم, فكأنك قد دخلت في الطرق الدقيقة في المدرسة الوجودية.. ولا يبقي الا بعض الوقت, حتي لا تكون قصة وانما ان تكون علي عجل.. كأنه مفروض عليك ان تكون مسرعا. لعلك ان تكون علي موعد في قصة اخري. صحيح انها ليست قصة وانما هي حالة من(السبنسي) فليس من أهداف القصة ان تريحك وانما تقول وتجري وتظل تجري!
جريدة الأهرام

14/5/2011

•يوسف الشار ونى

أحب أن أعلن أن رواية "جلامبو" – كعمل أدبي أول على مستوى فني ناضج وملفت فيه دفقه الشباب ونظرته المحتجة على كثير من الأوضاع التي لا يرضى عنها في مجتمعه وفى نفس الوقت فان حبه لمصر لم يلهه عن فنه فلم ينس أنه يقدم عملا روائيا ، فلم يقع في براثن التقريرية ولا الأسلوب المباشر ولا حتى الأساليب التقليدية ، ونحن نستنشق في كل سطر من سطور الرواية عبق الإسكندرية ونكاد نتذوق طعم ملوحة بحرها ونستمع إلى أغانيها ونجوس وسط فلايكها وقد هبت علينا عواصفها وهطلت أمطارها. كتاب نماذج من الرواية المصرية هيئة الكتاب 1977

الدكتور عبد العزيز الدسوقي•

سعيد سالم روائي وقاص موهوب ، وقد احتفيت به وقدمت قصصه باعتزاز في مجلة الثقافة وسأظل أعتز بنشر إبداعه في المجلة لأنه-في رأيي- من أعظم كتاب القصة والرواية في جيل السبعينات - مجلة الثقافة ديسمبر 1977

•دكتور صلاح فضل

1-عمالقة أكتوبر:

إن القصاص سعيد سالم يستحق عناية نقدية خاصة لأنه لايكتفى بموهبة الحكى بل يحاول استثمارها بذكاء ومهارة وهو يتميز بقدرة تصويرية ذات أبعاد تشكيلية تفيد من الإنجازات السينمائية وتقترب من التسجيل التشكيلي المجسد ، وهو لا يستقر على منظور واحد يرصد منه المشهد وتيار الوعي هو السمة الغالبة على الأداء القصصي عنده . جريـــدة الأهــرام 22 ينايـــر 1980

2-كف مريم:

استطاع سعيد سالم بدأبه ومثابرته أن يستثمر ذكاءه الابداعى وتوقه الطليعى معا وأن يزحف بثقة الى الصفوف الأولى من كتاب السرد العربى فى مصر.وكنت قد تنبأت له منذمطلع الثمانينات بمستقبل واعد فى فن القص لموهبته ودهائه وقدراته التشكيلية البارزة وهاهو اليوم يقدم مايعتبره ذروة ابداعه ودرته الفريدة وهى رواية"كف مريم"...ونلاحظ أن جسارة الكاتب وتجريبه لعوالم جديدة فى كلا الجانبين التقنى والدلالى قد أضفى على الرواية قدرا من العمق والأصالة التى توقظ فى القارىء حس التوتر الدرامى والشفافية الروحية مما يعد شاهدا على نجاح المبدع فى تحريك السواكن الراكدة... وقد استطاع سعيد سالم أن يقيم البناء الدلالى لنموذجه الواعر على تحويل صورة "مريم" من مجرد امرأة مصرية تدفع ثمن فتنتها الأنثوية انتقاما من الزوج الذى اغتصبها الى رمز أعلى للعذراء التى تجمع بين التقديس الظاهر والتدنيس الباطن وقد احتشدت فى مسيرتها ملامح التمييز فى الجنس والدين والهجرة والعمل والحقد الدفين المتنامى لجرائم التعصب الأعمى.

الأهرام 16/6/2003

محمد السيد عيد•

لقد أسعدني تماما أن أجد في مجموعة " قبلة الملكة" خروجا على القضايا المألوفة في ساحتنا الأدبية ومحاولة جادة للتفلسف يقوم بها الكاتب السكندري سعيد سالم ، والمحور الذي يدور حوله كاتبنا هو "الحياة" وما يؤرقه في هذه الحياة هو غموضها لذلك نراه يردد بإلحاح عبارات مثل: "لست أدرى" ، "لست أفهم" ، الأمر شديد الغموض" انه كاتب طموح يحاول أن يعرف سر الحياة وأن يثبت قدمه في أرض التفلسف ، ويتأثر فى رؤيته كثيرا بالعبث ، كما يتاثربه في أحداثه وشخصياته أما اللغة فتبتعد عن التجريب لكنها في مجملها جيدة ومعبرة - مجلـــــة إبداع أكتوبر 1988

•دكتور يوسف عز الدين عيسى

عندما قرأت روايتي"جلامبو" و"بوابة مورو" للأديب المهندس سعيد سالم شعرت بأنني أقرأ لشاب موهوب مطبوع لا مصنوع ، وربما يكون ذلك راجعا إلى خبرته في كتابة البحث العلمي فهو حاصل على الماجستير في الهندسة الكيمائية من جامعة الإسكندرية، وهو يكتب بتلقائية تشبه تلقائية الكاتبة الإنجليزية"جين أوستن" والتي وصفها أحد النقاد بأنها تكتب كما يزقزق العصفور ويبدو تركيب روايتيه في نظام هندسي مترابط ، وتتحرك أحداثهما فى قفزات تشبه القفزات المرسومة بدقة في بعض أنواع الرقص الإيقاعي أو رقصات البـاليه - جريدة الأخبـــار يوليــو 1979

دكتور محمد مصطفى هداره•

تأتى معظم قصص سعيد سالم كصرخة احتجاج لحرية الانسان وقيمته الذاتية وكتأكيد لأهمية الفكر فى زمن المادة والبطل فى هذه القصص هو الفكرة وليس الشخصية أو الحدث والكاتب يتقن الوسائل الحديثة فى فن القصة القصيرة ،فهو لايعتمد على السرد والحكاية فقط وانما يستخدم المونولوج الداخلى استخداما جيدا بتعبير فيه تكثيف وشاعرية ، وهو يجنح قليلا الى السيريالية دون اغراق فى الغموض، كما يستخدم الشكل الأسطورى فى بعض الأقاصيص، أما لغتــه فهى متميزة فى مستواها الفنى والفكرى برنامج مع النقاد – اذاعة البرنامج الثانى 12 فبراير 1990

دكتور السعيد الورقى•

<u>جلامبو 1976 -1</u>

من القراءة الأولى لرواية "جلامبو" نكتشف أننا أمام كاتب سكندرى حقيقى ، فى كتاباته طعم
الماء المالح ورائحة اليود وأعشاب البحر ، وفى شخصياته صدى لاضطرابات البحر وصراع الانسان وقصة كفاح كل يوم ، والى جانب شخصية البطل قدم سعيد سالم فى عمله القصصى حشدا من الشخصيات الرائعة التى تستطيع كل منها على حدة أن تكون نواة قصصية لعمل قصصى رائع- مجلـــة الكاتب مايو 1976

<u>2- كف مريم 2001</u>

لاتقف براعة سعيد سالم فى روايته"كف مريم" المانع المانح على قدرته فى وضع تصميم بنائى محكم لعمله،ولا على دقته فى رسم شخصياته وفى تكوين علاقات هذه الأشخاص ببعضها وبنفسها وبالحدث،ولا على منظومة القضايا والأفكار التى كانت حاضرة فى ذهنه وحركها من خلال شخصياته،ولا على التوازن الحسابى الدقيق لاستحضار أصوات شخصياته وتناسب حجمها مع حضورها،وإنما يقف على قمة براعته الأدائية لغة السرد لديه بما فيها من شاعرية مثقفة وما فيها من قدرة حركية تمتلك خصوصيات السرد..

سعيد سالم حكواتى مثقف،يمتلك تلقائيـة الحـاكى الـذى يظـل مسيطرا علـى اذنـك حـتى نهاية الحكاية وهكذا كان يوسف إدريس العظيم. (الأهرام 11/11/2001)

<u>3-المقلب 2009</u>

سعيد سالم أديب فنان يخوض تجربة الابداع بعشق فاهم ومدرب. عشق لفن القصة فـى أشكالها، وعشق للانسان فى سعيه وكفـاحه ضـد كـل المعوقـات الـتى تحـول بينـه وبيـن عـالمه المثالى الذى ينشده.

الانسان فى أعمال سعيد سالم هو ابن الأرض الذى شكلته الظروف المحيطة ، فجعلت منه الشرير المتسلق ، والانتهازى المتسلط ، كما جعلت منـه النبيـل المثـالى الطمـوح. ومـن الطبيعى أن ينشأ الفعل الدرامى هنا فى الصراع بين النموذجين.

ولأن كلا النموذجين مثالى فى أفعاله التى لايحيد عنها، فمن الطبيعى أيضـا أن يكـون الصراع هنا صراعا حادا وعميقا ومتضمنا لكل الأطر الثقافية المحيطة، وهو ما تضمنه الخطاب النصّى فى الأعمال القصصية للكاتب منذ روايته"جلامبو" فى أوائـل السـبعينيات وحـتى روايـة "المقلب" التى صدرت مؤخرا فى 2009 عن مطبوعات المجلس الأعلى للثقافة.

وكما قام النص على ثنائية المقابلة فى تقسيم الفصول وفى توزيع الأدوار، كذلك ظهرت هذه الثنائية بشكل واضح فى تشكيل السرد الذى قام على المزاوجة بين سرد التسجيل الخارجى وسرد الرصد الداخلى،كما قام على ثنائية سرد الحكى وسرد الترجمة والاعتراف، كما زاوج بين السرد وتيار الوعى، وبين السرد فى بنيته التقليدية وسرد المونتاج والكولاج وسيناريو المشاهد والمسامع، والمزاوجة بين عربية السرد وعامية الحوار والسرد أحيانا.

وتقدم هذه المهارة الحرفية بالتالى بناء سرديا متماسكا تقوم الدراما فيه على مفارقة الثنائيات المتضادة فى الظاهر، والمتماسكة فى البنية الفنية على نحو يكشف عن عمق الرؤية والتشكيل.

هكذا يتمكن السرد من المعاونة فى كشف الانساق المضمرة فى ثنائياتها المتصارعة مابين الخير والشر والمكان والأنا والآخر والذكر والأنثى، وما بين الحكى والتداعى والرصد الخارجى والداخلى والتقليدى والتحديث ، وكلها ثنائيات تتصارع فى البنية السردية للنص لمزيد من الإضاءة والكشف ، والمتعة الفنية، متعة الحكى.

أخبار الأدب 21/4/2013

شوقى بغدادى•

ان هذا الشاب المختص بالكيمياء مسكون بهاجس الكتابة القصصية الى حد الهوس ، وكأن شيطانا داخليا لايقاوم يدفع به الى انجاز عمله فى جلسة واحدة وهو عارف بأصول اللعبة القصصية بتقنياتها المعروفة قديمها وحديثها ، وكتابته أشبه ماتكون بنهر غزير سريع التدفق ، وجمال عمله كامن فى وحشيته . تقديم رواية آلهة من طين – دار الجليل دمشق 1986

مصطفى عبد اللطيف السحرتى•

يمثل هذا الكاتب الجيل الغاضب ، بل الجيل المتمرد المعربد وهو يسير على تقنية جديدة هى الكتابة بجمع اللقطات فى حركة جد سريعة أشبه باللقطات السينمائية وقد مثل لنا سعيد سالم المنتمى السلبى الفوضوى الذى أراد أن يغير المجتمع فخاب ، وبقى أبناء الحى – بوابة مورو – كما هم فى رضا وتواكل وقناعة ، وبقى هو فى حيرته وقلقه . مجلة الثقافة يونية 1977

جلال العشرى•

تختلف "آلهة من طين" عن روايات سعيد سالم السابقة سواء من ناحية المضمون وزاوية الرؤية أو من ناحية الشكل وأداة التعبير ، وأخيرا من ناحية الأسلوب وطريقة الصياغة، مما يجعلها رواية غير تقليدية تتمرد على كل ماهو مألوف فى الفكر والصياغة والتعبيروالرواية فى الحقيقة تتجاوز حدود الواقع لكى تقترب من مملكة الرمز وتصبح الشخصيات دلالات على معان ميتافيزيقية وفلسفية، وتصير القضية المحورية التى يرتكز عليها الصراع الروائى هى قضية العلاقة بين الفن والدين ومن هنا اتسم شكل الرواية بالنزعة اللاواقعية التى تبتعد عن الأساليب التقايدية فى السرد والحوار ، ففيها يمتزج المونولوج الداخلى بالمذكرات الشخصية أو أسلوب الاعتراف ، ويلتقى الحوار المتداخل بالاسترجاع ، ويجتمع الطابع التسجيلى للاحداث والتواريخ بالشطح الفلسفى الذى يقود الى التأمل فى جوهر الخلق وماهية الابداع - مجلة الاذاعة والتليفزيون 14/12/1985

أحمد زكى عبد الحليم•

فى " قبلة الملكة" يبدو سعيد سالم حريصا على أن يمسك بتلك الخيوط الرئيسية فى حياة الانسان وخاصة أولئك الذين يعيشون حياتهم على نور العقل والمعرفة فينسج من هذه الخيوط أوتارا يعزف عليها مفارقات الحياة من خلال ألحان حزينة وشجية ويظل سعيد سالم

صاحب أسلوب متميز ليس بطلاوة الكلمة ولكن بمقدرتها على اختراق الحجب والوصول الى جوهر الأشياء بحيث نرى حياتنا دمعة على أقدارنا ونبتسم فى سخرية أو فى حزن من أجل أيام ماضية وأيضا من أجل أيام مقبلة -مجلـــــة حواء 19/3/1988

دكتور محمد زكريا عناني•

ونحن نقرأ رواية " الأزمنـــــة" نشعر أن الواقع كيان راسخ يتمثل فى كل جملة فيها ، ونعيد قراءتها فنهتز بفيض رومانسيتها وشجنها ، ولهذا الحب الموؤد بين بطلها ونجلاء، ولموت الأب وعذاب الغربة ثم نسترجع أصداءها فأذابها دنيا من الرموز التي تنساب طبيعية طيعة لا يفرضها منطق جامد ولا تخطيط نظري فإذا بنا أمام بناء فني يستفيد من كل الإمكانيات الفنية التي يسمح بها جنس الرواية- جريدة الأخبـــار 2/9/1992

المقلـــــــــب:

والحديث عن(المقلب) لايصلح معه مثل هذا التنويه الموجزعلى قدر المساحة المتاحة هنا، فالرواية بنت هذه الأيام من حيث الموضوع ومن حيث الشكل أيضا، ولذا فإن علينا أن نبحث عن تفسيرات لهذه التكوينات اللغوية المبتكرة فيها..."يسكننى جن طيب مسلم لايؤذى الإنس.يحب الزبالين ، ويحكى لى عما يفعلونه بعيدا عنى. كنا نتسامر ذات ليلة فحكى لى عن رحلة أورمه بحثا عن أبيه الذى لم يره منذ طفولته".. كما أن علينا أن نتقبل طبيعة البنية الحوارية التى تأخذ هيكلية السيناريو السينيمائى أحيانا... إلى غير هذا من الوثبات الفكرية والفنية المثيرة.."آه يابلدى لماذا أحبك بهذا الجنون وكيف أستطيع التثبت والتشبث بأرضك حتى لاأموت بسيف أبى، ومن أين لى بطمأنينة راسخة وأنا أفرح بالموجود وأحزن على المفقود..ولم الطمأنينة يارجل وكأنما ليست لرحلتك نهاية؟!.."

كذلك فإن الحديث عن (المقلب) لابد وأن يتسع ولو لكلمة موجزة - من خارج النص- عن هذا الكاتب الرائع سعيد سالم الذى يقترب من السبعين الآن ، ومع ذلك فهو مازال يتوهج فى صدره ذلك الشغب الطازج الذى كتب به رواياته وقصصه اعتبارا من جلامبو-1976- ومرورا ببوابة مورو وآلهة من طين وعاليها واطيها والشرخ والأزمنة وكف مريم وحالة مستعصية والشىء الآخر وأقاصيص من السويد...الخ..أكثر من عشرين كتابا ما بين روايات ومجموعات قصصية ، والى جوارها العديد من الكتابات النقدية والدرامية للإذاعة والتلفزيون، وآخرها قيد الطبع الآن عمل عجيب التكوين عن ذكرياته مع نجيب محفوظ فى الاسكندرية ، بعنوان:"نجيب محفوظ الإنسان".. يحتاج وحده الى حديث خاص.

جريدة الاهرام 23/9/2010

المقلـــب: د. احمد فؤاد

يمكن القول في ختام هذه الدراسة إن رواية (المقلب) حازت الكثير من فنيات الخطاب السردي على مستوى موقع السارد وعلى مستوى بناء الحدث بزمانيته ومكانيته وعلى مستوى تصوير الشخصيات وعلى مستوى اللغة السردية وغيرها من المستويات الجمالية للبنية السردية، ولا غرابة في ذلك، فهي من الروايات الأخيرة للكاتب الكبير سعيد سالم – أحد المواهب الإبداعية الحقيقية في الربع الأخير من القرن العشرين.

وكشفت الدراسة كذلك عن البراعة الفنية في تصوير الشخصيات والقدرة على إدارة الصراع بينها بإحكام، وقد أتيح للمؤلف الفرصة في تقديم تعليقاته الشخصية ورؤيته الخاصة لما يحدث في المجتمع، دون أن يؤثر هذا على الصدق الفني والتبرير الموضوعي، وكان الفضل في ذلك للشخصيات التي كانت فاعلة وساردة في آن واحد، وهو ما يمكن معه تأكيد أن النص السردي في هذه الرواية وصل إلى قمة التماهي بين المؤلف والسارد والشخصية، وهو

ما يقنع القارئ فنيًّا، ويساعد على تكامل أركان منظومة العمل السردي، ولا يُستثنى من ذلك سوى اعتماد المؤلف على بعض الهوامش لتفسير الكلمات الغريبة على القارئ.
دكتور أحمد فؤاد. كلية التربية.جامعة عين شمس

•الدكتور مصطفى عبد الغنى:

1-منذ البداية نكتشف أن سعيد سالم كان مهتما بفكرة الانتماء التى قد تعوقها أشياء كثيرة كى لاتغدو انتماء ايجابيا. وقد كان يعوق الانتماء-فيما يرى- الكثير من مظاهر الفساد الاقتصادىبوجه خاص، ونستطيع أن نربط هنا بسهولة بين هاجسه المضمر(الانتماء)وخوفه المعلن من الفساد.لقد تبلورت قناعته التى لخصت رواياته الأربع الأولى من مفهوم(الانتماء)وهو موقف شعورى ايجابى لايمكن أن يتحقق مالم يكن متبادلا بين الوطن والمواطن ، الى تأكيد هذا المفهوم بازالة معوقات الفساد من أمامه فى أعماله الأخيرة.ان الكاتب كان دائم العود الى العدو الخارجى وربطه بما يحدث فى العالم، مستخدما كثيرا من أساليبه الفنية من التقطيع السينمائى والاسترجاع والتسجيل وما الى ذلك. ان مايريد تأكيده سعيد سالم هو أن الواقع السياسى بدأ فى التغير تحت عنف معاول الاقتصاد الغربى والأمريكى بوجه خاص، بمؤسساته وأحلامه الجديدة فى السيطرة على العالم، ومع ذلك فانه لم يصل به الأمر الى اليأس والقنوط قط..

كتاب قضايا الرواية العربية. الدار المصرية اللبنانية 1999

2-إنه لم يبق أمام الإنسان العربى غير أحلام اليقظة ليمضى اليها هربا من اثنين:إما الجنون وإما الفرار من الوطن كله،"ولابأس من الجلوس في البيت ومشاهدة برامج التلفزيون الاسلامية التى تتحدث عن خوارق أولياء الله الصالحين وتسخير الجان لتحقيق المنافع،وعن الدجاجة التى تضع بيضا مكتوب عليه لفظ الجلالة والشهادتين،وعن الشجرة التى تنمو فروعها على هيئة لاإله الا الله،والجاموسة التى يشفى لبنها مرضى السكر".

جريدة الأهرام 7/6/2004(حول رواية الشىء الآخر)

•<u>صافيناز كاظم:</u>(حالة مستعصية)

رواية لأديب لاذع يمتلك سطوة المزاح بأدوات فن صعب لا أتحمله إلا من الذين يعرفون دروبه ومسالكه،فيتحركون بشقاوة وحكمة،ورشاقة وثقة.حواة بلا احتيال،يوقظون الشغف ويكتبون المرفوض لدى فأسامحهم لبلوغهم براعة التوظيف.هذه"الحالة المستعصية"قدمها سعيد سالم بسلسلة روايات الهلال أغسطس 2002.حققت حضورها في إحساسى،وكلما عبرت بخاطرى ترسم على وجهى الابتسامة المخضلة بالحزن والمحن.بطلها المتكلم بالتداعيات،يطارده آخر بمكالمات هاتفية يسبه ويشتمه ويكيل له الاتهامات.ونظل معه نتساءل من يكون هذا المطارد-بكسر الراء-العنيد حتى يكتشف المفاجأة ونعرف منه أنه هو في حالة مونولوج منقلب على نفسه هو المطارد-بفتح الراء-وهو المطارد-بكسر الراء-قلت لكى أريح نفسى،هو"ذات" تحاسبها نفسه اللوامة،بعد أن سجلت عليه الخطايا والكذبات وادعاء التقوى والاستقامة المزيفة..لاخوف إذن. مادامت هناك نفس لوامة فهناك طوق نجاة،ومن ثم فالحالة ليست مستعصية.أبدا ليست مستعصية.

مجلة المصور عدد 22/7/2005

•<u>الدكتور هشام صادق:</u> (دوائر الهوان في رواية الشىء الآخر)

لم يكن غريبا أن يعترف منصور عبد الرازق بطل رواية الشىء الآخر بسلبيته ووقوفه موقف المتفرج على ما يدور حوله من تراجع قومى واحتلال أجنبى جديد لوطنه الذى سيطرت عليه الإدارة الأمريكية من الخارج وقوى الفساد والتخلف من الداخل،حتى نجحت في الإمساك بمقدراته الاقتصادية الى حد بات يهدد وجود الطبقة الوسطى والتى أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الانضمام الى الغالبية التى تعيش تحت خط الفقر.وإذا كانت رائحة الفساد قد أزكمت الأنوف في قضايانواب القروض وغيرهم فإن المؤسسات العلمية والجامعات قد شاركت في زفة

النفاق،حتى أن رئيس جامعة عريقة قد بدأ مهام وظيفته بترشيح رئيس الوزراء للحصول على أكبر جائزة تقديرية في البلاد،وذلك "بعد أن ترسخ في ضمير سيادته النقى أن هذا الرجل هو أبدع المبدعين في مصر".. جريدة العربى الناصرى 6/6/2004

•الدكتور حامد أبو أحمد:

1 (الشىء الآخر)

رواية فريدة في هذا الجنس الأدبى كلها تبحث في سؤال كيف يكون الإنسان مهزوما وعاجزا لدرجة أن يبلغ به الأمر التوحد مع العجز،أو أن يتحول العجز الى حالة وجودية:"أنت مجرد صدفة أكثر من كونك فكرة حقيقية شئت ذلك أو لم تشأ،فوجودك كان قهرا في جميع الأحوال لأنك لم تمتلك حق العدم"..يحدثنا البطل العاجز المهزوم أن"ارتخاءه لصيق الصلة بالارتخاء الذى أصاب الدولة على يد المتحكمين في مقاليد أمورها،والذين لايزيد عددهم في أعلى تقدير عن أربعين شخصا يهيمنون على مقاعد السياسة والاقتصاد،والذين لم يتغيروا منذ عشرات السنين ولم يغيروا في واقعى المتردى شيئا بالإيجاب،وكأن المقاعد التى يجلسون عليها عاشقة للغباء والفشل والعفن"..لقد حاول سعيد سالم في روايته الجميلة أن يمزج بين الواقعى والسحرى ليقدم لنا صورة عما يدور في بلادنا خلال هذه الأيام.وإضافة الى استخدام بعض عناصر الواقع السحرى،وهى ذات تقنيات خاصة،نجده قد لجأ الى استخدام تقنيات حداثية أخرى جعلت روايته تنطوى على نوع من الخصوصية التى تميزه بين أقرانه من كتاب الرواية.ان هذه الرواية تجمع بين التوصيف والتحذير والبحث عن حلول في زمن استنام فيه الكتاب للراحة وتعايشوا مع الأوضاع السائدة،ومن هنا يصبح صوت مثل صوت سعيد سالم ضروريا ولازما لمواجهة الأوضاع المتردية.

جريدة القاهرة 31/8/2004

2-(المقلـــــــــب):

صدرت هذه الرواية لمؤلفها سعيد سالم عن "إبداعات التفرغ" بالمجلس الأعلى للثقافة عام 2009م. وهذا العمل بالإضافة إلى كونه رواية فإنه يقدم للقارئ معلومات فى غاية الأهمية عن عالم يعيش معنا ونعيش معه كل يوم ولكننا لا تعرف ما يدور فيه. والرواية مليئة بالشخصيات ولكنها لا تربك العمل ولا تؤثر عليه سلبا من الناحية البنائية. كما أن الرواية تنطوى على جانب أخلاقى، وهذا شئ طبيعى لكثرة الفساد وانتشاره على نحو لم يحدث فى تاريخ مصر. ولهذا نقرأ فى صفحة 59 على لسان مقلب الزبالة:"حكايات الزبالين فى الملاحة وأبيس تستهوينى، لا لأنى أستمتع بها، فالواقع أننى أتألم بشدة للاستماع إليها وأنا الجماد الأصم، ولكن لأننى أرى فيها عبرة لا يراها أولئك المنهومون إلى الدنيا المتصارعون عليها كتصارع الكلاب على جيفة. لو كنت قادرا على النطق لقلت لهم أن ينتبهوا بين الحين والآخر إلى أنهم صائرون إلى زوال فى يوم من الأيام".

ويستخدم المؤلف عددا من التقنيات الحداثية مثل تيار الوعى، والعودة إلى الوراء، والمونتاج السينمائى، وتكبير المنظر، والحلم، والتقسيم المحكم للفصول، وأنسنة الجماد، وغير ذلك.

لكن الميزة الأكبر لهذه الرواية أنها تفضح الفساد والانحطاط والانهيار: انهيار المجتمع وانهيار القيم والأخلاق.

•الدكتور محمود اسماعيل: (الشىء الآخر)

مؤلف الرواية أديب متمرس،ومبدع متميز في أجناس أدبية متنوعة،فقد أنجز اثنتى عشرة رواية وتسع مجموعات قصصية ومسرحيتين فضلا عن عشرات المسلسلات الدرامية الاذاعية،كما أسهم في حقل النقد الأدبى..حيث نشر الكثير من المقالات والمتابعات النقدية في العديد من الصحف والمجلات المصرية والعربية..وتتمحور هذه الرواية حول موضوع

محدد:هو أزمة المثقف الملتزم في مجتمع فاسد،ويرجع هذا الفساد الى طبيعة النظام الأوتوقراطى العسكرى المتسلط،ولاغرو،فالعداء بين المثقف والسلطة عداء تاريخى،فالسيف والقلم لايجتمعان.السلطة تنشد تكريس الوضع القائم والمثقف الملتزم ينشد التغيير.وبديهى أن تفضى تلك المعادلة الى الصدام بين الخصمين اللدودين ومن ثم يكون المثقف أكثر من غيره مستهدفا من قبل السلطة الغاشمة،فتصادر على فكره وتطارده وتحاصره حتى يصبح أسير الدفاع عن وجوده..ذاك هو مصير منصور عبد الرازق كما صوره سعيد سالم ببراعة،إذ تتمحور أحداث الرواية حول "عجزه" وهو عجز تمثل في "إخصائه"سياسيا وعضويا،ففقد توازنه واختل عقله ودمرت كينونته،والأخطر مايفضى اليه ذلك العجز من تداعيات على المستوى الفردى والأسرى،وعلى الصعيد العام..

جريدة القاهرة 13/9/2005

الشيء الآخر للمبدع سعيد سالم: عين زرقاء اليمامة في عيون الأدب العربي الجزء الأول مقدمة

من Kaouther Mellakh في 19 سبتمبر، 2011، الساعة 12:34 مساءً

دراسة تحليلية لرواية الشيء الآخر لسعيد سالم

كتبتها كوثر ملاخ..تونس

إذا شئت أن تشرّح الواقع و بالمجهر تنظر في جوانبه الخفية ..إذا رمت أن تشق الجسد و تلج غمار النفس البشرية ، إذا أردت أن تغنيك قصة عن مجلدات فلسفية و قراءات تاريخية و رغبت في فهم ردود الفعل العربية و تحليل ما كنت تراه غير مبرر بسبب في ممارساتك العفوية ، إذا فررت زمنا من عجزنا العربي و استهوتك إعادة النظر في ما تجد له من مبررات سخيفة واهية أو متينة قوية ، إذا حلمت يوما بأن تجعل من الذات العربية شريطا مصورا يقرّب منك الواقع و يقرّبك إلى النفس و يجعل من القلم وسيلة سمعية بصرية في عرض يحدد باسهاب تجربة العربي الوجودية دون مغالطة أو تورية ، بلا تجميل او حدّ ، إذا لبيت دعوة لحضور مسرحيتنا التي نعيش باستهانة و وعي و جد ، إذا أعياك العثور على جواب تلمحه في عيون قلبك و فكرك و عيون ابنك حيرة و تساؤلا : كيف تحوّل تاريخنا نكسة و حاضرنا "وكسة" و كانوا درسونا في التاريخ أن ماضي العربي الأمجاد و المفاخر.. افتح رواية الأستاذ المبدع سعيد سالم " الشيء الآخر

حتى لا أتهم بالمبالغة و الدعاية فلم تكونا يوما لقلمي مطمحا و لا لكلماتي غاية أقدم بين أيديكم ما لفتني بل استهواني حد الأسر متعة و إن كان رمى قلبي بأسهم الفجيعة و الوجع ألف رماية ، وجع من يفتح كتابا يفضح ما ستره قرفا من نفسه و تجاهلا لسلبيته و رغبة في أن يكذب على "لاوعيه" ليوهمه بأنه واع بما ينجز دون أن يطرح السؤال هل هو ينجز فعلا أم يحلم بالانجاز أم أن الحلم هو الآخر بات حلما ؟

الشيء الآخر نوع من الأدب الحر و إن كان يحدث عن عبودية العربي و استعباده . رواية هي كشف عن العجز و أسبابه و إن كانت في ذاتها قوة و قدرة على تخطبه ..هي اثبات للذات العربية و إن أبرزت انطفاء ذواتنا ، هي العلة تُشخص و هي في الآن ذاته الحكيمة و الطبيبة أليس الوعي بالذنب غفرانا ؟ ألا يُعد العلم بالشر احسانا ؟

رافقتني الرواية قبل الثورة و أثناءها و بعدها سواء الثورة التونسية أو المصرية أو غيرهما و مازالت ترافقني و مازلت أجد فيها شريطا كل ذواتنا تعرض على الشاشة.. و مازال قلمي يقف عاجزا عن خط حرف لا عجز المفلس بل عجز من غنم من الرواية ثروة و بات حائرا كيف ينفق ماله و أين يوجهه ...رصيدي في بنوك المدارس النقدية لم يخول لي- رغم أنه مقبول- استثمار ما جاء في الرواية فكانت مشاريع قراءتي لها تشعرني بصعوبة النجاح في نقل ما حوته القصة ..اعتدت في قراءاتي أن أزوّج بعض بنات أفكاري و يكون طالبو يدها مضامين ما أقرأ و ما يحيل عليه الأثر من أبعاد ..مع الشيء الآخر وجدت الخطبة جماعية بل كلية كل ما في رحم فكري من عذارى يستهويهن الخاطبون لهن ..فرسان من القضايا و الرؤى يصعب انتقاء بعضهم و يعسر ضمهم جميعا

بطل الرواية منصور عبد الرازق تجده المخذول عبد القابض يخوض رحلة الشيء نحو الشيء الآخر أو على الأرجح هو اللاشيء الحالم بأن يكون الشيء في عالم الشيء الآخر ..تتعدد الشخوص و تتباين هنا لتتكامل مكونة نواة منسجمة شاملة لقضايا الواقع و النفس الفكر و السياسة و التعليم و الاقتصاد و الثقافة ، المجتمع كبناء نظري و كمراس يومي ..هي الحاضر و الماضي و المستقبل ..هي ثورة على التعريف الخلدوني الإنسان مدني بالطبع تشعر أن منصورا مدني يختلط بغيره و يتفاعل معه سلبا و ايجابا لكن هذا الطبع ظاهري ففي باطنه الإنسان يعيش حياة أخرى يرفض فيها الكائن المدني في مجتمع لامدني ان صحت العبارة فيشترط المبدع ضمنا على ابن خلدون أن يكون المجتمع أصلا مدني لتصح نظريته

منصور عبد الرازق أستاذ في الفلسفة شهادته الجامعية يستعملها في عالمه الخاص و اختصاصه في الفلسفة هو الحائل بينه و بين الطبع المدني في الانسان لأن المجتمع الذي يعيش به جسدا لا كيانا مجتمع يرفض السؤال و هو شريان الفكر الفلسفي ..مجتمع شعاره :عش ما تجد لا ما ترغب فيه...هو المثقف الذي مكنته ثقافته من الفهم و سلبت منه القدرة على تغيير ما فهم و جعلته المغترب الذي يعيش مفارقة بين فكره و سلوكه لدرجة أنه بدا في القصة منصورين كلاهما مخذول..الأول جماع ما يعتمل في داخله و تخذله نفسه ...و الثاني منصور الكائن الذي خذله زمن الرداءة و منطق العبثية

حياة منصور عادية شأنها شأن حياة كل مصري بل كل عربي يعيش مع أسرته بل دعني أقول يحاول أن يعيش يحاول أن يكسب القوت يحاول أن يكون زوجا صالحا و إن لم يكن مخلصا أحيانا يحاول أن يبرر خيانته و يحاول ألا يفكر في تبريرها و لا يشغل باله باهماله لابنه يحاول مقاومة شعوره بالذنب .. يحاول أن يقول لا في عمله البعيد عن اختصاصه كلما لمس شيئا يراه معارضا لمبادئه يحاول أن يطالب بحقه و يحاول أن يكون مواطنا صالحا و يحاول أن يحاول ... فعل يحاول طبعا لا يدل في معناه اللغوي على الفعل بل على التفكير في الفعل و حتى هذه نجده يحاول أن يتملص منها ليرتاح فلا يكون الانسان المختلف الذي يعيش بالضرورة معاناة

هذا "البطل" ترد عليه رسائل من "جماعة مكافحة العجز و الدنس " رسائل لست أراها تقلب حياته بل تحرك الأسئلة التي يحاول أن يئدها في ذاته رسائل هي في ذاتها رواية أخرى مستقلة و معانقة للرواية الأصلية

لئن كان منصور مصريا فلا يعني هذا أنه يجسد ساكن هذا الاقليم فقط و لئن كان نجح على فشله في الواقع في أن يعكس المصري في حياته الباطنة و الظاهرة فأراه نجح بتفوق في تجميع الذوات العربية في شخصه منصور هو العربي في انهزامه و ارادته في فضيلته و

رذيلته في كل متناقضاته و متناقضات الفكر و الممارسة العربيين و تعامل كل عربي مع الراهن و التراث و القضية

الشيء الآخر" لحن يُعدّ كل حرف فيه نوتة موسيقية لجملة من الألحان المحيلة على انفعال مرة هو انفعال الثوري و أخرى انفعال الجبان ، تارة الخيّر و طورا الشرير. لحن الجمال و القبح ..الشيء الآخر ثبات على المبدأ و تحول عنه رفض للواقع و تسليم رقابنا اليه

لقد جمع المبدع سعيد سالم في مجلد ليس بالمذهل كمّا مادة تتجاوز حدود الذهول إذ أنه لم يترك شاردة و لا واردة إلا و أشار إليها بالتلميح و التصريح مستغلا الحدث و المكان و الزمان و الشخصيات ليجعلها لغة لا تنتمي إلى المنظومة اللغوية العادية توصل رسالته إلى قارئه .... و لو تحدثت هنا بوصفي كاتبة رامت تقديم قراءة لرواية" الشيء الآخر" لتجرأت على ان أعتبر الثراء عيبا لأنه يكشف عيبي في عدم القدرة على الايجاز و استحالته مع هذا النوع من الادب فلو كتبت أضعاف هذا المجلد حجما لما استطعت الالمام بما في الرواية.. أخرج بعد أن انهي كتابة القراءة بشعور ينعدم فيه الارتياح إلى انني أعطيت المضامين حقها هو باختصار شعور بالذنب نحو الشيء الآخر و التقصير تجاه كاتب الرواية ...لكن لو تحدثت بصوت القارئ العادي الذي يقرأ للاطلاع فإنني أقول أن الرواية بما فيها تنفذ للجميع و لكن يختلف مدى النفاذ و عمقه من شخص إلى آحر...في كل الحالات تجد الإضافة حاصلة على المستوى الانساني و اللغوي و المعرفي و الوجداني و هذا مبرر أول من مبررات هيامي بها فالأدب الذي لا يضيف لك النزر أدب لا طائل من ورائه فمابالك حينما تكون الرواية للبعض رذاذا و للآخر مطرا و للكثيرين طوفانا تغرقك معانيه و تمتعك السباحة في أمواهه

و الثابت ان هذا الثراء يتجلى على مستوى المضمون و لكنه أيضا يبرز على مستوى فنيات القص و لغته .. المبدع اعتمد أسلوب توليد المضامين و لنا تحليل مفصل في خاصياته كما اعتمد التناص و الاستشهاد بالتراثين العربي و الغربي و الرواية كانت بوابة تنفتح على التاريخ الانساني عموما وكانت مرآة كبرى للواقع تعكسه بجزئياته و كانت غواصة تلج بك إلى الفكر الإنساني و النفس البشرية أساسا العربية فيكون الشيء الآخر عرضا للشيء و للاشيء و للمأمول من الشيء و يكون انتقالك عبر هذه المحطات متدرجا من المصري إلى العربي إلى الانسان بالألف و اللام الاستغراقيتين

قبل أن أختم هذا المقال الأول من سلسلة أرجو ان أوفق فيها أعلن عن بقية عناوين السلسلة

_ 1 1الشيء الآخر شكل فني جديد

2 الشيء الآخر و الجوهر الانساني الخالص

3 الشيء الآخر لغة ماوراء اللغات

4 الشيء الآخر و أنا

5 خلاصة القراءة و كيفيات الاستفادة من الرواية بعد الثورة

هذا و اشير إلـى أننـي لـن أسـتعمل منـهجـا نقـديا بعينـه و لـن تكـون قراءتـي انطباعيـة باطلاق بل سأحاول - و قد عرّفت الفعل آنفا - أن أعتمد المخزون النقـدي و العلمـي و الانسـاني فيّ عساني أستطيع أن أنفذ لرواية اتخذتها دليلي في حيرتي و رفيقي في ثـورتي ..روايـة مـن السهل الجزم بروعتها لكن من الممتنع - على شخصي على الأقل- نقل ما أثارت فيّ و ما تثير

****

ثمة علاقة وثيقة بين التجربتين الصوفية والأدبية تكمن فى سعى كل منهما نحو الأسمى والأرقى، وتقديم صورة للعالم البديل الذى يرتقى الصوفى من أجله معراج الروح ويبغيه الأديب ويتوق إليه مرتكزاً على الثنائيات الضدية إظهاراً لعوار مجتمعه ومفاسده أو محلقاً فى عوالم خيالية مثالية يقدم من خلالها صورة ضمنية تجسد حلمه الأسمى بالمجتمع المثالى الذى يصبو للعيش فيه ،وقد برزت هذه العلاقة بوضوح فى كتابات سعيد سالم بوجه عام وفى مجموعته القصصية (الكشف) بوجه خاص، حيث نجد خطاً واحداً يلعب دوماً دور البطولة فى كتاباته يكمن فى سعيه لاستبطان سر الوجود والكشف عن العوالم المتجاورة بين الخيال والواقع والارتحال عبر أزمنة متعددة، والحرص على إبراز الصراع بين الثنائيات الضدية كالوجود والفناء والحياة والموت والخير والشر وغيرها من الضديات.

هذه المجموعة القصصية للكاتب الكبير سعيد سالم جديرة بالقراءة الواعية المتأنية لما تحمله من قمة فنية وأدبية كبيرة تضعها فى طليعة الأعمال الإبداعية المتميزة، وهذا ليس غريباً على مؤلفها الذى يعد واحداً من أبرز الكتاب الذين أثروا الإبداع السردى وأضافوا إليه إضافات مؤثرة أسهمت إسهاماً حقيقياً فى تقدم هذا الفن ورقيه.

سيد الوكيل(مجلة الرواية) عن الحب والزمن:

إن اللغة، والوصف، على مافيهما من طاقة رمزية وبصرية، يحققان إنتاجا فنيا للدلالة في تراث الرواية السياسية، ولطالما كانت الرواية السياسية في مصر، وعبر تاريخها الحديث، قادرة على إرسال خطابها الفكري والأيديولوجي، ومعبرة عن وجهة نظر كاتبها عبر هكذا تقنيات أعتمد عليها المبدع في خطاب التغيير. لكنها، أمام وضعية مركبة من أشكال التداعي السياسي، وانسداد الأفق، والجمود، الذي عاشه الواقع السياسي إبان السنوات العشر الأخيرة من حكم مبارك، لم تكن كافية، كما لم يكن التغيير نفسه كافيا، بقدر ما كان الاستهداف التعبوي للثورة هو المنشود، ومن ثم ، لامناص من الإفادة من الحيل والتقنيات الأكثر مباشرة ووضوحا من قبيل: التقارير والمقالات والإحصائيات والوثائق، وهو الاتجاه الذي سارت إليه الرواية في الأغلب والأعم من مفاصلها، ربما يقلل هذا من رصيدها الفني والجمالي، ولكنه، بالتأكيد، يحقق الهدف التحريضي، الذي نظن أن الرواية كتبت له. ولا مناص ـ أيضا ـ من رصد واستقصاء دقيق لكل خطايا النظام، فلا يكاد الكاتب يفلت واقعة دون الإشارة إلهيا، كواقعتي الاعتداء على القضاة، او تصدير الغاز لإسرائيل، أوغير ذلك من خطايا النظام، ربما يبدو أن كثيرا منها يقتحم السرد ويهبط عليه من خارجه، ولكنه في سياق التحريض والاستشراف الثوري، يجد ما يبرره

●الرواية وأقنعتها
في رواية(الحب والزمن) لسعيد سالم

د.شعيب حليفي(المغرب)

I ـ القراءة الأولى: أقنعة الذات والايدولوجيا

قرأتُ رواية سعيد سالم **الحب والزمن**[1] أول مرة في منتصف شهر فبراير 2014 في يوم واحد من سبع ساعات ونصف الساعة، وفي اليوم الموالي قمتُ باكرا فسجلتُ خمس ملاحظات حولها، معتمدا على ما عَلقَ بذاكرتي من انطباعات أولية، فكتبتُ ما يلي:

1ـ لا يمكن لأي خطاب، مهما كان قريبا أو بعيدا من عالم الأدب، أن ينفلتَ من أسر وأثر الذات والتاريخ والإيديولوجيا، وتأخذ الرواية شرعيتها من قدرتها على صهر كل ذلك في رؤية ثقافية بِصوْغ جمالي: شكلا باختيار الصيغة المناسبة للحكي والعرض؛ أما المستوى الدلالي فإن الرواية تبوح بقضايا تتجاوز المباشر إلى التخييل.

---

[1] سعيد سالم، **الحب والزمن**، القاهرة، روايات الهلال، مصر، عدد يوليو، 2011.

من ثم، فإن علاقة الرواية بالذات هي تحصيل حاصل يجعل من صوتها نواسا يتأرجح غارفا من الذات المتكلمة، مع تحويلات فنية ضرورية، ومن ذوات الآخرين، فتصبح الكتابة مِرآةً للمشاعر ونبضا للأحاسيس، ولا يمكن للتخييل أن يكون خاليا من هذا التذويت مهما رمنا التحييد، فهو الذي يُثري القول السردي وينفخ فيه الإحساس.

أما علاقة الرواية بالتاريخ والمجتمع، فإن الأمر لا يمكن رؤيته إلا من زاوية الانتقال من الخاص إلى العام، من الذات الفردية إلى الذات الجمعية. فالتاريخ هو الزمن في لحظاته الثلاث الكبرى التي يصنعها أو تصنع الإنسان.. فتتشذر إلى أيام وليال لا حصر لها، لا تتشابه.

كل كتابة عن الراهن أو المستقبل تتحول، بعد الانتهاء منها، إلى تاريخ بالمعنى الثقافي، كما الكتابة عن الذات الجمعية في المجتمع هي أيضا تعبيرٌ عن وعي جمعي، الايدولوجيا بداخله ملمح ومكون يأتي ظاهرا أو محجوبا في صورة الرؤية أو الرموز أو الأقنعة الفنية.

2- هذا أول نص أقرأه للروائي المصري الإسكندراني سعيد سالم، رغم أني قرأتُ روايات مصرية كثيرة، وكنتُ أعتقدُ كلما سمعتُ اسم سعيد سالم، أنه شخصية خيالية من روايات نجيب محفوظ والتي قرأتها كاملة دون أن يزول اعتقادي. الآن، صححتُ معلومتي التي ظلت راقدة طويلا في خاطري.

3- كُتبت الرواية على سكة بطريقين؛ في الظاهر، طريق يمشي فيه نص تخيلي رائق ومنسجم مع أفق انتظاري كقارئ. وطريق توثيقي مُربك يشوش على النص الأول، رغم أن المؤلف أو السارد قد أوجدهما معا ليضيء الواحد الآخر.

4- خاضت الرواية مغامرة شكلية صعبة، بحيث تحول الصراع الذي رسمه السارد ليكون بين زمنين إلى صراع بين بنيتين، الأولى فنية والثانية توثيقية.

5- رواية **الحب والزمن**: محكي يتضمن رؤية فنية وقضايا ترتبط بالمصير، والحياة، وأسئلة وجودية قضّت مضجع القول الإبداعي الإنساني بصياغات مختلفة دائما.

II- القراءة الثانية : متى تصحو الأحلام من رقادها؟

بعد ستة أيام على القراءة الأولى والملاحظات الانطباعية، عدتُ إلى قراءة الرواية في ثلاث جلسات خلال يومين؛ وكنتُ أسجل ملاحظاتي في **دفتر** جانبي بالإضافة إلى ما أسجلّه على **هامش صفحات الرواية**.

1- تقييد الدفتر

- اختارت الرواية أن تكون تشخيصا لواقع مريض لا وجود لليوتوبيا فيه، وإنما هو غارق في الخيبات المتكررة، والفساد الذي صنعته عقول شخوص تستفيد من هذا الوضع لتصبح الكتابة سواء عن طريق المذكرات أو الحكي اليومي لمسار الشخصيات هي الحل والمرآة ضد كل الزيف.

- رواية (الحب والزمن) وفيّة لموضوعتين أساسيتين: الحب في تجلياته كما سيعيشها الراوي مراد عامر، حب الحياة والوطن والمرأة، سواء أكانت سميرة أم غصون أمْ أمّ فؤاد.

أمّا موضوعة الزمن فترسمُ ما أصبح ثقيلا ومؤلما بجراحاته الكثير ونكساته المتكررة؛ كل شخصية من شخصيات الرواية تعيش زمنها الخاص والعام، وهما معا متداخلان ومتصارعان.

- إن الحب في الرواية هو منقذ وبديل موضوعي للخروج من المأزق، بينما الزمن هو نفق طويل لا بداية ولا نهاية له. الحب شخصي، بمشاعره أمّا الزمن فهو عام بقساوته التي لا ترحم.

- يستمتع الراوي بحكي كل التفاصيل انطلاقا من راهنه ومذكراته عن النكسة في 1967 إلى حين بلوغه سن الستين، حيث سيعتبر أنّ ما قبل الستين تاريخ، وما بعده تاريخ جديد ستتفتح

فيه شهيته على الحياة من خلال المقهى وحبيبته الجديدة غصون. إن تاريخ مراد عامر هو تاريخ كل فرد، فلا أحد يمكن أن يعيش زمنا واحدا، بل أزمنة من أحلام وخيبات .. فقد بدأ مع سميرة التي يقول في علاقته بها : "ربما كان حبى لسميرة هو حافزى الجوهري إلى اقتحام أسوار الحياة والغوص فى أعماقها طولا وعرضا، محاولا كشف غموضها والنفاذ إلى مجاهيل أسرارها الساحرة رغم ما يخالجنى دائما من شعور بأنها عبث فى عبث".

ثم يقول عن غصون - التي ستصبح زوجته الثانية – الشيء نفسه في عمره الثاني بعد الستين: " أنا وجدت معجزتى فى غصون. معجزة تحدى الزمن..لو نجح الجزء نجح الكل، وليس بالضرورة أن تكون خاتمة تحدى الزمن خاتمة تراجيدية".

أما الشخصيات الأخرى فهي تتمم الصورة الروائية؛ أم فؤاد ذات الصدر الكبير والحنون والتي كانت سببا مباشرا في تحوله من المهندس مراد الموظف البسيط والمتذمر إلى المعلم عامر صاحب مقهى الشعب. أما نرجس التي سعت إلى جره للخيانة فهي نموذج النفس المضطربة التي حاولت الانتحار ولما لم تنجح تحولت إلى حياة أخرى، على عكس شخصيات أخرى يستدعيها الراوي مثل فادية السبع؛ الفنانة المسرحية التي تخوض في الأدب والسياسة، أو تحية بسيوني الثورية والمثقفة والتي تعبر "عن رؤية قطاع كبير من أفراد الشعب العاديين الذين لايدلون بأحاديث للصحافة ولا تظهر صورهم بالجرائد".

هذه الشخصيات الأخرى، فهي تمثيل دقيق لتنوع المجتمع: المستشهد (الشهيد إبراهيم النحراوي)، وعبد الحليم هاشم المنتحر بالمعتقل للتخلص من ألم التعذيب، أو الفنان أحمد قمر الذي مات غما على موت زوجته بيوم واحد، مقابل محي الدين عبد الحميد المهندس بالقوات المسلحة، صديق الراوي وشريكه في أحلام الشباب وشخصيات الانتهازيين واللصوص الذين صادفهم المهندس مراد واكتوى بنارهم أو سمع عنهم.

إن ما يحكم مصائر شخصيات الرواية أنها فاعلة أو منفعلة، تهاجم أو تدافع مقابل شلة المثقفين الذين يحملون نبوءات غامضة، سواء أكانوا في البار أم المسجد أم في الركن المخصص لهم بالمقهى، فهم متحولون ومتوترون يبحثون عن الحلم الذي هو قناع للأشياء التي لم تتحقق، أو الانتصار الضائع أو الحقيقة المغيبة.

- مساران يلتقيان في النتيجة، شخصيات عاشت مع مراد عامر الراوي؛ وأخرى خلف الستار تترك ظلالها وآثارها فيما يظهر في الرواية.

- إدراك الراوي أن الحياة حينما تخلو من المغامرة تصبح قبيحة، لذلك عمد إلى جمع المتناقضات كوسيلة مُثلى للعبور الآمن في هذه الحياة المليئة بالمفاجآت القاسية، أساس الصفرية والمسخ. اختار التحول من وضع المهندس إلى وضع المعلم صاحب مقهى الشعب، وهي جرأة محسوبة: "هأنا أتجرأ على حياتى الرخوة لأول مرة فأرتكب مغامرة مثيرة لأصبح المعلم مراد، منذ لحظة جلوسى الى منصة المقهى. لاهندسة اليوم ولا مشروعات سبق أن عاشت فى أحلامى عمرا طويلا، فقد وضعت لنفسى حدا نهائيا فاصلا بين حياتين، بدأت الثانية بانتهاء الأولى".

جرأة حررت روحه من الملل والتكرار؛ عنوان الهزائم التي ترسخت في النفس. حرية سيحياها في التنقل بين المقهى والبيت والبار والشاطئ والمسجد.

لقد وجد الراوي الحل في التحول والتحرر والكتابة التي هي بمثابة علاج طبيعي لمريض عصابي دائم القلق والتوتر؛ عرف في حياته قبل التقاعد الكثير من الفشل والمؤامرات والنكبات. لذلك قرّر أن يغير من مجرى مصيره الشخصي، ولعل رمزية التعري في الشاطئ أو في البيت هي صورة لرؤية حقيقة النفس.

- إن الراوي الذي هيمن على كل الأصوات بصوته، وقد غطى مرحلة زمنية طويلة من خلال المذكرات والراهن وإفرازاته، مؤمن بأن ما يحياه المصريون ومصر هو "تجربة متكررة منذ الأزل، معلومة البداية والنهاية، مجهول كل ما بينهما من مسرات وأحزان ومفاجآت ونوائب يشيب لهولها الشبان". لذلك قرر إعلان مذكراته وتغيير حياته، فالبوح والإعتراف تطهير للنفس وسبيل لاختيارات أخرى . فحينما سأل نفسه، ماذا لو سألته غصون حبيبته الجديدة التي تصغره

بحوالي ثلاثين سنة، وقالت لـه لمـاذا يحبهـا ؟ فـإنه سيقول لهـا: "لأنـك أضـفت الـى حيـاتى حيـاة جديدة.كنت أحسب أن سنواتى قد انتهت فإذا بها تبدأ بك، فهى من خلقك وإبـداعك وابتكـارك.أنـت صانعتها الحقيقية. الله بعث بك الىّ لتمنحينى إياها بروحك وقلبك وعقلك وجسدك.أى عطـاء إلهـى اكرم من ذلـك وأى حـب عظيـم يكنـه الله لـى!.. الله خلاصـى فـى السـماء وأنـت خلاصـى علـى الأرض".

لكنه في لحظة أخرى، حيث ينجلي الصراع بين الوجدان والعقل يقـول: "حيـن أفكـر فـي حياد وتعقل أدرك أن حبي لغصون هو لذة لا بد أن يعقبها ألم، وشهوة لا بد أن تورِّثَ الندم".

ـ إن حياة الشخصيات في الرواية، سواء كما تأتي عبر صوت الـراوي، أم حينمـا يعطيهـا الكلمة في نهاية الرواية لتؤكد على أقواله السابقة؛ هـي نمـاذج لتنـوع وصـدامية الأفكـار الـتي لا تختار المغامرة لكل مرحلة، أو لا تضع أقنعة للمواجهة تمـوت أو تنتحـر، فـالوهم – كمـا تُشـرِّحُه الرواية – وهو يحيا في النفوس سواء فيما يتعلق بتحرير فلسطين أو تحريـر الـذات، حيـث تقتلـه النكسة والخيبة والإحساس بالعبث، لذلك لجأ الـراوي إلـى زرع الحلـم فـي مواقـع عـدة بالروايـة وبصيغ مختلفة؛ كأنما كان يجرب عدة أدوية لمرض واحد دون جدوى:

** ـ هأنا أتجرأ على حيـاتى الرخـوة لأول مـرة فـأرتكب مغـامرة مـثيرة لأصـبح المعلـم مراد، منذ لحظة جلوسى الى منصة المقهى. لاهندسة اليـوم ولا مشـروعات سـبق أن عاشـت فـى أحلامى عمرا طويلا، فقد وضعت لنفسى حـدا نهائيـا فاصـلا بيـن حيـاتين ، بـدأت الثانيـة بانتهـاء الأولى.

** ـ أما الذى قضى على البقية الباقية من حلمى بالمساهمة فى فعـل أى شـىء فـى اتجـاه التغيير، فهو انفضاض ندوة الأدباء بمقهاى. اختفى نوفـل حسـنى بعـد العلقـة الـتى أكلهـا مـن عبـد القادر. من قبله اختفت تحية بعد زواجها.

** ـ كلما جاء محيى عبد الحميد لزيارتى بالمقهى فإنه لا يستطيع أن يكف عن الضحك ، لأنه غير قادر على أن يصدق مايراه ويلمسه أمامه من واقع حقيقى بدد آماله فى حلمنا القديم.

** ـ وهذه الغصون التى أشغفها حبا عمرها من عمر ابنـى عـادل.كـثيرات مـن معـارفى وأقاربى ممن هن فى مثل عمرها ينادوننى بلقب"العم مراد"، فهل يعقل أن يعشق رجل امرأة فـى عمر ابنة أخيه، وأن يحلم بها فى الليل ولايتوانى عن ذكرها فى النهار؟.

** ـ فى لحظات الاسترخاء كان صوت أنفاسنا المرهقة يبدد صمت الغرفة. فوجئت بهـا تقبل قدمى، ثم تصعد بشفتيها الى كل جزء من جسدى فتقبله بحنان وامتنان. قالت لى كما لو كانت تحلم: ـهذه هى المرة الأولى فى حياتى التى أذوق فيها لذة الجسد الحقيقية.

** ـ الولد مأخوذ بسحر البنت،وسحر الحـب لعنـة محببـة- أعرفهـا- تشـل الإرادة وتلغـى المقاومة..وعينا نرجس ناريتان رماديتان ثاقبتان نفاذتان، يحلم بهما مدحت ليلا ونهارا.

** ـ يشعرني حلم اليقظة بيأس مريح مخدر، كما يمكننى بشىء مـن المبالغـة فـى التخيـل أن أتصور أن لى معدتين وأربعة أرجل وذيل وثلاثة أجنحة، وأننى حيـن أمـوت سـوف أدفـن فـي قبرين.

** ـ وضعت رأسـي المكدود علـى وسـادتنا الحزينـة عسـى أن أنـام.لـم أكـن أحلـم بـأني سأستغرق فى النوم الى هذه الدرجة من العمق. انفصلت عن الكون لمدة ساعتين ثم أفقت فجـأة بلا كابوس مزعج أو حلم سخيف. لكنها كانت لحظات من الرعب لم أعرفها في حياتي.إحسـاس يهـدد كياني بالتدمير والفناء.

2- تقييدات الهامش

وتتضمن ما سطرت تحته بخط، اختيارا وتعليقا عليه.

2. 1- فقرات من الرواية والتعليق عليها:

**- العجيب أننى انقطعت عن الصـلاة تمامـا بعـد انقطـاع محـدود بـدأ منـذ ليلـة المـذيع الأمريكي. تتابع الانقطاع بعد احتسـاب الرائـد إبراهيـم النحـراوى فـى عـداد الشـهداء دون إزالـة

إسرائيل من الوجود أو حتى احتلال تل أبيب.. ثم لفترة أخرى بعد فشلي مع محي وتشاؤمي منه.. ثم لفترة أخيرة بعد أن كشف لي محمد النجار عن نواياه الخسيسة. العلاقة بين الفشل والانقطاع عن الصلاة تؤكد أنني بحاجة ماسة إلى جرعة دسمة تنقصنى من الإيمان، حتى لا أحتسب ضمن ذلك الصنف من الناس الذين يعبدون الله على حرف.

- تعليقي في الهامش:

بداية تشكل وعي الراوي بشكل عنيف. ذاكرة مفتوحة على جراح يستدعيها حتى يبلور موقفا جذريا.

كيف تؤثر مشاغل الدنيا في علاقة الإنسان بخالقه؟

**- لماذا لا نهرب معا يا حبيبتى من هذا البلد ونعيش معا في قارة أخرى لا يعرفنا فيها أحد ولا نعرفه؟..نرتشف من رحيق الحب حتى الثمالة ونقول على الدنيا السلام.

- تعليقي في الهامش:

الهروب هو الاختيار الأول أمام صعوبة المواجهة.

هل الزمن عدو للحب أم صديقه اللدود؟

اللذة نقيض الألم ، لكنها صنوه.

**- سميرة تجلس أمامى فى صمت جميل وقد تدلت على جبهتها خصلة بيضاء. انتهى الكلام ولم يبق إلا الصمت. تزوج من الأولاد من تزوج وسافر من سافر وبقينا وحدنا نجتر الذكريات. دورة عبثية. نحب ونتزوج وننجب ويكبر الأطفال ويتزوجوا وينجبوا ونرى أحفادنا أو لا نراهم ثم نموت. إنني مندهش، فما جدوى ذلك كله؟..

لو تركت نفسى لتأملات المهندس مراد سيضيع منى المعلم مراد ، خلاصى وملاذى ومنقذي.انه مازال جنينا بحاجة الى الحضن والرعاية والحنان حتى ينمو ويكبر.عليك بالاختيار بين ما تجلبه لك الكتب والسياسة من هم وغم، وبين ما يفسح لك به صدر أم فؤاد من فضاء تنطلق فى سمائه محلقا فوق أمواج البحر والحياة.

- تعليقي في الهامش:

إنها لحظة العبور من الوعي بالعبث إلى الوعي بالحياة، من الوعي الشقي إلى وعي ليبرالي.

لغة الرواية وهي تتحدث عن المرأة: سميرة، غصون، أم فؤاد .. تتحول إلى نشيد روحاني.

- لست أدرى لماذا قلت لها هذا كله، ولا لماذا حددت لها الأسبوع الأخير من نوفمبر كموعد لعقد القران. قررت أن أحسم الأمر وأتوكل بأن أحتاط من غدر الزمان وتقلبه بحد أدنى من الفعل. أخفينا عن أبيها أنني مستدعى بعد أسبوع من توقيع العقد، **وليكن العالم ملكا لنا فى ظل الهزيمة أو النصر، فإبراهيم النحراوى لن يعود، ونساء بنى صهيون تستحم عاريات فى قناة السويس أمام جنودنا الممنوعين من إطلاق النار على الضفة الشرقية، وفاروق النجار محبوس فى زنزانة بمكان مجهول لأنه ألقى بين أصدقائه-المخلصين-بنكتة سياسية عابرة، والله أعلم ماذا يفعلون به الآن، وأي نوع من التعذيب يمارسونه معه.

- **ليكن العالم ملكا لنا فى ظل الهزيمة أو النصر، وليسعد القطط بخدعته الدنيئة التى حاول بها تدمير مستقبلى بلا مبرر، وليشرب محمد النجار طلاءه الأسود قبل أن يعرف منى سر تبييضه.

- تعليقي في الهامش:

في موقعين مختلفين، ترد عبارة (ليكن العالم ملكا لنا فى ظل الهزيمة أو النصر) بالصياغة والدلالة نفسها، رغبة من الراوي إعلان التحدي والأخذ بالقرار الذي سينتشله من الغرق.

**- عندما اقترب وقت إحالتى إلى المعاش تجلت لي الدنيا في صورة غائمة مضببة يغشاها ظلام. حتى فى أحلامى كنت أهان وأضرب وأصرخ وأسجن وأظلم وأجوع وأتعرى،

وأقع فى مهاو سحيقة ولا معين.يطاردنى مجهولون فأظل أجرى بين جبال ووديان وبيوت قديمة وعمائر منهارة فى طرقات ضيقة موحلة انفجرت فيها مواسير صرف المخلفات الآدمية وفاحت برائحة العفن. أدوس فيها وأنا حافى القدمين وتلقى على أم رأسى من أماكن غير مرئية أكياس من القمامة ممزقة، ثم أجرى يمينا ويسارا فى فزع، وأنبطح أرضا حتى أتفادى طلقات رصاص طائشة تحيط بى من كل مكان.وعندما كنت أعثر على ملجأ ألوذ به حتى أستريح قليلا، كانت الحشرات الحقيرة تهاجم جسدى ولا أستطيع إزاحتها عنه.أصبحت حياتى مزيجا كئيبا من الخوف والحزن والقرف، وكأنها صورة كربونية من **أحلامى** التعسة، أو كأن **أحلامى** صورة كربونية من حياتى التعسة على مشارف الستين.

- تعليقي في الهامش:

ربما هذه الفقرة بؤرية و متجذرة في الشبكة الخفية للرواية، فهي تختزل تلك اللحظة المفصلية التي يلتقي فيها تياران جارفان في النص: تيار التخييل وتيار التوثيق.

**- تمنيت أن أكون ربانيا خالصا أخترق حجاب الحس وأدخل من باب القدس وتسكن نفسى إلى راح المحبة وتسطع في قلبي أنوار ملكوتية شعشاعية فأصير من أهل المحبة. أمضيت أسابيع قليلة فارقت فيها لذة الطعام والشراب والجنس والقراءة والسهر والرقص والغناء والطرب والأصدقاء والأعداء. لم أشأ أن تكون المفارقة قاطعة مفاجئة، وإنما أخذت نفسي برفق فصرت أتدرج فى الفراق عسى أن يصير ذلك اعتيادا. باءت المحاولة بفشل ذريع إذ وجدت نفسي مشدودا إلى الأمل والتمني والطموح، وكأنني سوف أعيش مائة عام على الأقل. في البداية ظللت مذبذبا بين هذا وذاك فلم أحظ بغير صفريتى المعتادة، وظللت قابعا فى برزخي بين دنياي وآخرتي كتمثال أصم، وبدأت أفكر كثيرا في الموت حتى أصبحت حياتي غما وكدرا. فى النهاية لم أجد أمامي مفرا من العودة إلى الدنيا ولو ظللت بها صفريا لا أقدم ولا أحجم، دائما بين بين.

- تعليقي في الهامش:

كلما ضاقت أبواب الحياة وتحولت إلى أنفاق تقود نحو المجاهيل، فتح الراوي أبواب السماء الواسعة وعلى صفحتها كتب سروده.

**- سأعمل وأحب وأسهر وأكسب صداقات جديدة، وربما بدأت فى مشروع تجارى طويل الأجل لا أعرف شيئا عن ملامحه حتى الآن، فيما عدا أنه لن يمت إلى الهندسة بصلة فقد كرهتها. سأغنى وأرقص وأبتهج لسماع الموسيقى وقصائد الشعر، وأهيم حبا في جمال البحر حين يهدأ وحين يثور. لن يوقفني شيء عن الانصهار في الحياة والتعامل بفن وحذق مع ألاعيبها الخسيسة، والصبر على شدائدها ومكائدها، والضحك منها حتى البكاء..ولكن كيف ومتى يحدث هذا كله؟.. لست أدرى.

لو كنت وثنيا لعبدت البحر. أراه أعظم وأجمل وأقوى من الشمس والقمر والنجوم والجبال والرياح والأنهار. أيام طويلة مرت على نفس المنوال. خشيت على انتفاضتي من الذبول. أذهب إلى الشاطئ.أجلس على كافتريا أم فؤاد مستأنسا بصدرها الواسع الكبير.أستغرق فى التفكير فيما ينبغي أن يكون المخاض.قلت لها إننى أكاد أجن من القلق. هى تجيد الاستماع. تلمع عيناها العسليتان ببريق التفكير في إبداء رأى أو اتخاذ موقف أو تقديم عون، كما لو كانت عدة رجال مجتمعين. قالت لي بثقة:

- ربك كريم..كلنا ننتظر.. انزل البحر وبكره تفرج.

- تعليقي في الهامش:

لغة راقية وعنيفة، تثأر لنفسها من واقع رث فقد شاعريته.

2. 2- دون تعليق:

وهذه أربعة عشر فقرة اخترتها من الرواية، تتضمن حديث الراوي عن الشرخ في سياقات متعددة، ولكن قراءتها بهذا الشكل تعطي للرواية تأويلا جديدا.

ـ الكتاب الذى أقرأه الآن عليكم أيها الأخوات والإخوة، هو مذكرات شرعت فى كتابتها منذ حوالي أربعين عاما بدأت بنكسة 1967 وانتهت بحادث المنصة عام 1981 وعنونتها آنذاك **بالشرخ.**

ـ فِعْلٌ جَعَل من التئام **الشرخ** ومن يقيني الصفرى نقيضان لا يتفقان. لكنى مازلت أرى أهل الزراعة لا يزرعون وأهل الصناعة لا يصنعون. أهل الكلام فقط مازالوا يتكلمون. ليتكم تعلمون يا إخوتى الأعزاء أن الصفرية التي أعيشها ليست داء، وإنما هي دواء يسكن ألمي من مرض مزمن أصابني منذ ثلاثين عاما هو مرض الشعور بالظلم. أنا أعرف ما الذي سيحدث.. بعد زمن قليل يبدأ الفتور والنسيان..ويبحث الناس عن الخبز والزيت والسكر والوظيفة والمسكن، بينما السفينة تبحر بهم إلى شاطئ الموت.

ـ اندمل جرحك والتأم **شرخك** بثأرك لإبراهيم النحراوي وسالم عطية ومختار مرسى. عملية التجميل أعادت الى وجهك معالمه الأصلية.لماذا جاءت الإصابة فى فمك بالذات؟..

ـ أدركت الآن موقع **الشرخ** فى إرادتي ولن أستطيع علاجه ما لم أتعلم كيف أقتل. حتى لو قتلت، فالموت ليس أصيلا فى الكون لأنه عابر، أما الحياة فهي الأصيلة لأنها مستمرة وخالدة.

ـ لكنه كان يجهل أن هناك **شرخا** غائرا قد حدث في صلب إرادتي منذ سمعت الخبر الأول بصوت المذيع الأمريكي، ومن بعده الخبر الثاني باستشهاد زوج شقيقتي نبيلة. ومن سوء الأمر أنني لم أكن أتصور في ذلك الوقت أن هذا الشرخ سوف يتسع بمرور السنوات اتساعا ينذر بالخطر.

ـ فى الساعات الأولى من الفجر أنام كالقتيل.. شيء رائع، لو دام وأثمر لالتأم **شرخي** فالفراغ يقتل الرجل والإنجاز يطيل عمره.

ـ لكنى تعايشت مع ما لم أحبه حتى اللحظة الأخيرة بنجاح نسبى وأنا **مشروخ**.. أفلا يحق لى- وقد التأم **شرخي** أو كاد- أن أتعايش بعد ذلك مع ما أحب بنجاح مطلق؟!..

ـ رأيتُ **شرخها** بعيني..يبدو أنه عصى على الالتئام..

ـ أمشى بلا سروال ولا أسمح للنجار أبدا أن يستغفلني. أتجاهل **شرخي** وأفكر في بديل للاستفادة من نجاحي. أبحث تحت"طقاطيق" الأرض عن تلك المادة التي حولت الأسود إلى أبيض. اشتريها وأبيعها وآخذ الربح لنفسى وأهرب من حقد النجار الذي فاق سواده سواد طلائه الكريه.

ـ ازداد اتساع **شرخي** وحاولت العودة الى الصلاة.كنت أستجيب لنداء الشيخ صقر حين يحضر إلى مخيماتنا وعنابرنا قبيل الفجر يوقظنا للصلاة. يتلقى من الجنود الغارقين في نومهم سيلا من أقذع الشتائم. قال أحدهم يوما وقد أبرز رأسه من تحت غطائه دون أن يتحرك أو ينفعل.

ـ التأم **شرخ** الوطن وكنت أحسب أن **شرخي** قد التأم هو الآخر. السبب إذن من داخلي وليس من الخارج، لكنى لست أعرفه.

ـ يزداد اتساع **شرخي** ويزداد معه تحوصلي حول ذاتي في غباء عتيد، أعيش في إفرازاتها ولو أدت بي إلى الاختناق.. وقال نابليون: "لا أحد سواي مسئول عن هزيمتي، فقد كنت أنا أعظم عدو لنفسي".

ـ استفحل عمق **شرخي** ، وبات مخرجي من هذا العبث الكريه مسألة حياة أو موت.

ـ سأترك الحديث لغيري يتكلم عنى وعنكم وعن وطننا الجريح، سواء بنفسه أو حسب تصوري لما يمكن أن يكون حديثه..إما أن أعود بلا **شرخ** وإما لا أعود. ولو قدرت لي العودة فسوف يكون لكل حادث حديث.

ـ هاأنا قد عدت لأتكلم عن نفسي وعن غيري بحرية. أتكلم من أرض الواقع دون تصور أو تخيل أو تخمين.."وفى السماء رزقكم وما توعدون".. فيم الطمع يا بنى آدم؟..زوجة طيبة وطفلين جميلين وشقة فاخرة جديدة لم تدفع فيها قرشا، وعمل شريف ترتزق منه، وصحة ثور، و**شرخ** لم يعد له وجود، وسؤال لم تعد ترتجف فزعا لسماعه بين الناس في زمن الانفتاح.

سعيد سالم، **الحب والزمن**، القاهرة، روايات الهلال، مصر، عدد يوليو، 2011.

● مجلة المجلة:

من الصفرية إلى التحقق ومن الجمود إلى الحياة

قراءة فى رواية الحب والزمن لسعيد سالم

د أحمد محمود المصري

لا تنفصل الكتابة عن أهدافها، لذا يجب أن تكون القراءة وعياً بأزمة خلق النص وإحالة إلى جملة العوامل المنتجة والفاعلة فى ولادته وتوجيهه وهى محاولة النفاذ إلى الدوافع المتشابكة والمعقدة التى أنجبت النص فى لحظة تاريخية معينة فجعلته مختلفاً عن كل نص آخر اختلافاً بيناً فى خصوصية إبداعية تجعله مفارقاً من حيث البناء، أو من حيث القضايا التى يثيرها ومفارقاً كذلك بخصائصه النفسية فى صلته بمبدعه وبخصائصه الفنية، فى صلته بذوق يسعى إلى التفرد رغم تأثره المحتوم بنصوص سابقة ينبثق منها ويتجاوزها جمالياً فى آن.

ومن هذا المنطلق يفرض النص حضوره بقدر التقائه بزمنه إذ إن الكتابة هى أزمة الذات فى صلتها بالواقع، وهو ما يتحقق تمام التحقق فى رواية الحب والزمن للكاتب الكبير سعيد سالم التى نجحت فى فضح المسكوت عنه فى واقعنا من زاويتين نقديتين الأولى: زاوية التسلط السياسى المتمثل فى السلطة بأدوات فسادها وقمعها ورموزها، إضافة إلى الإحالة على اختلالات طبقية وتنموية والثانية زاوية مجتمع خامل مستكين لا يثور على الظلم والظالمين فجاءت الرواية تحريضاً له واستفزازاً لعجزه وإيقاظاً لغفوته وهو ما تم بالفعل فى 25 يناير 2011 زمن نشر هذه الرواية المتأخر عن زمن كتابتها بخمس سنوات لأسباب يسهل إدراكها أبرزها خوف الناشرين وهروبهم من نشرها باستثناء ابراهيم عيسى الذى نشرها على حلقات فى جريدة الدستور 2007م.

هذه الرواية ليست رواية متأثرة بأحداث الخامس والعشرين من يناير أو مؤرخة لها أو مجارية لأعمال سطحية كتبت على عجالة من أجل مجاراة الأحداث والمشاركة فيها، وإنما هى رواية محرضة كتبت قبلها بخمس سنوات إبان استشراء الفساد ووصوله إلى الذروة، كتبت بشجاعة حقيقية وإيمان بدور الكلمة الصادقة الواعية فى تشكيل وعى الأمة وتغيير مصير الشعوب، مركزة على نقطة بالغة الأهمية تكمن فى أن من لديه الإرادة لتغيير واقعه ستكون لديه القدرة على تغيير مجتمعه.

وإذا كانت قيمة الكلام تقاس بمضمونه وتأثيره فإنها تقاس كذلك بزمن قوله ،وكم من كلام فقد معناه بسبب توقيت قوله ومن هنا تأتي قيمة هذه الرواية التي قيلت فى وقتها وقد تخير صاحبها رصد الواقع الفاسد فى مصر رصداً حيا وجارحاً ولم يتورع عن محاكمته بقسوة اختار فيها أن يقبض على الجمر وهو مشتعل ولم يتردد أمام اندفاعه الشخصى نحو أحزان بلاده غامر بكل شئ بحريته الشخصية، بالكتابة، بأسرته كى يرسم مستقبلا أفضل لوطن يستحق أن نضحي من أجله.

رابعا: بعض الآراء الخاصة للكاتب

من واقع اهتمام الكاتب بالتواصل مع منجزات الاتصال الحديثة وتواجده على العديد من مواقع الانترنت يمكننا الاطلاع على مفاهيمه حول ماهية الفن ولماذا يكتب ولمن يكتب وكيف وفيم يكتب، كما يمكننا الاطلاع على رأيه الخاص فى قضية الشكل والمضمون وقضية الفصحى والعامية وذلك فى الفقرات الآتية المقتبسة من المواقع المشار إليها:

رؤيتى لماهية الفن:

من خلال حصيلة انجازى الأدبى حتى الآن : خمس عشرة رواية وعشرة مجموعات قصصية ، وكتابين احدهما عن نجيب محفوظ الانسان والآخر عن كتاب الاسكندرية، أستطيع أن أصرح باعتقادى فى صحة المقولة المعروفة أن" الفن امتاع وتنوير " ، وأنه ان لم يحقق الهدفين معا هبطت قيمته. انى أرى فى الفن سبيلا راقيا لتحقيق التصالح والتناغم بين الانسان ونفسه من جهة ، وبينه وبين الحياة والكون وخالقه من جهة أخرى. انى أرى فى الفن خلاصا شجيا يصل الانسان بالأرض والسماء فى حب لاحدود له ولقد وجدت فى فن الابداع الروائى والقصصى ضالتى التى تحقق لى كل تلك الغايات مجتمعة .

لمـــاذا أكتب ؟؟؟ ...

أكتب لأننى مدفوع الى ذلك الفعل الذى يكاد يكون غريزيا ، والذى أسميه أحيانا بشهوة الابداع ، ولأننى لو لم أمارس هذا الفعل الفطرى التلقائى فاننى أختنل من داخلى وتتعاكس ملكاتى وتضطرب نفسى ويدهمنى اكتئاب لاتنقطع موجاته المتعاقبة لكنى فى الوقت ذاته أشعر بثقة شديدة أننى أؤدى رسالة لامبرر لوجودى على قيد الحياة ما لم أجتهد فى توصيلها لعشيرتى فى الانسانية وأنا لست أجهل أن توصيل الرسالة من الكاتب للآخرين مرتبط بأسباب أخرى خارجة عن ارادته ، كالنشر والنقد والجمهور القارىء ... تلك الأسباب التى تبدو – فى حالتى على الأقل – متعثرة الى حد كبير ، حتى أن بعض أعمالى تنشر بعد مرور عشرة سنوات على كتابتها أو يزيد مثل رواية الفلوس الا أننى حين أكتب لا أعبأ بسبب واحد من هذه الأسباب ، وانى لأشكر الله كثيرا على أن هدانى لذلك بعد أن حبانى بالموهبة

لمـــن أكتب ؟؟؟ ...

من المؤكد حسبما تشير الاحصائيات أننا شعب غير قارىء ، وبالتالى فأنا أكتب الى فئة محدودة جدا من مجتمعنا العربى الكبير –على عكس الحال حين أكتب التمثيليات الدرامية بالعامية المصرية - لكنى أعتقد أن تأثير الفن فى دائرة محدودة من البشر يمكن أن يتسع فى دوائر أخرى أكثر امتدادا مع الزمن غير المرتبط بعمر الفنان ، بحيث يأتى تأثيره تراكميا

لاوقتيا. ليست تلك ذريعة للاستمرار فى الكتابة بلا أمل ، وانما هى نظرة واقعية قائمة على تأمل عميق فى فلسفة أن يمضى انسان عمره فى تأدية عمل لايستطيع ولا يأمل أن يقطف ثمرته على الفور وليس المقصود بالثمرة نفع شخصى بقدر ما هو مقصود توصيل الرسالة المشار اليها ، فهذا هو النفع الأكبر والمتعة المشتهاه

كيف ، وفيم أكتب ؟؟؟ ...

ان ميلاد العمل الأدبى عندى يقوم بالدرجة الأولى على انشغالى المؤرق بقضية انسانية ما ، تسيطر على مشاعرى وأحاسيسى وتدفعنى الى البدء فى الكتابة دفعا لاسبيل الى مقاومته ولا يعنى ذلك أن الدافع الأولى عندى هو الفكرة المجردة "كالسعادة والحرية والعدالة"، بل هو الاحساس المصاحب لهذه الفكرة والمتوحد معها وأضرب على ذلك مثالين : الأول هو الذى حركنى لكتابة روايتى الرابعة التى تتعرض للعلاقة بين الفن والدين (آلهة من طين) كمرحلة أولى ، ثم روايتى العاشرة (حالة مستعصية) كمرحلة تالية كان الدافع هو احساسى بأننا كمصريين وعرب ، سواء على مستوى الأفراد أو المجتمعات نعانى من انفصام فكرى مقيت بين ثنائيات يعتقد الكثيرون أنها متناقضة، اذ يختلط فيها المطلق بالنسبى سواء عن غير قصد أو لقصد مشبوه ، مثل الأصولية واللبرالية ، أو الأصالة والمعاصرة أو التراث والحداثة ، أو الدين والدولة ... وغيرها من ثنائيات تشتعل بينها المعارك على جبهتين تعتقد كل منهما أنها صاحبة الحل الأفضل أو الأوحد، بينما يتغافل الجميع عن فكرة ايجاد حلول تكاملية لاتفاضلية ولا تلفيقية ، تشفى الأفراد والجماعات من ذلك الانفصام الذى يؤدى بقراراتنا ومواقفنا الحياتية الى أن تكون مجرد ردود أفعال لما يحدث فى الدنيا دون مبادرات ايجابية أصيلة من جانبنا، بل نظل متخبطين فى قياسنا للمطلق بالنسبى وللنسبى بالمطلق ، حتى اذا سألت سائق عربة حكومية : تقوم يوميا من القاهرة الى الاسكندرية وتستغرق المسافة المعروفة فى فترة زمنية محددة

ـ متى تصل العربة الى القاهرة ؟

فيجيبك دون أن يجيبك

ـ الله أعلم أدع لنا بسلامة الطريق حتى نصل .

عاش هذا الحوار الذى شهدته بنفسى وتطور فى مخيلتى على مدى سنوات عديدة بدأت بآلهة من طين وانتهت بحالة مستعصية كعمليين روائيين خالصين ذاب فيهما الفكر فى الفن وامتزجا فى مصهور خاص يمثل ذاتى الفنية أما المثال الثانى فهو الدافع الذى قادنى الى كتابة رواياتى الثلاث الأولى – جلامبو ،بوابة مورو، عمالقة أكتوبر- كان الدافع هو احساسى القوى بفكرة الانتماء بمعناها الشمولى أولا ثم الوطنى ثانيا. اننى أعتقد أن الانتماء هو عقد مواطنة مكتوب بين الوطن والمواطن وموقع من كليهما ، فاذا غاب توقيع أحد الطرفين أصبح العقد باطلا وهذا يفسر ما يحدث لشبابنا الذين يكتشفون أن عقودهم الانتمائية موقعة من طرفهم فقط، فاما يلجأون الى الاغتراب خارج الوطن للبحث عن الحلم الأمريكى وخلافه،أو الاغتراب داخل الوطن سواء بالانحراف أو التطرف ، كما أن البعض منهم وهوالأكثر حساسية وانطوائية قد يلجأ الى الاغتراب الداخلى فتدهسه الأمراض النفسية والعصبية ، بينما هو باق بجسده داخل وطنه من هنا كان بطل" جلامبو" لامنتميا وبطل"بوابة مورو" ذا انتماء سلبى ، أما بطل "عمالقة أكتوبر" فكان ذا انتماء ايجابى ، لكن الكثير من السلبيات والمعوقات حالت دون تحقيق انتمائه وفى النهاية فاننى أستطيع استخلاص آراء النقاد حول معظم كتاباتى فى أنها كتابات أشبه ما تكون بالكوميديا السوداء التى تميل الى التفلسف الساخر وتتخذ من الطابع غير التقليدى أسلوبا لها ، اذ يمتزج فيها السرد بالمونولوج الداخلى بالحوار المسرحى والسيناريو السينيمائى والخطابات وتيار اللاوعى ، دون التخلى عن فكرة" الحدوتة" سواء باللجوء الى الواقعية أو الفانتازيا أو الى المزج بينهما ، ويشير بعض النقاد الى تصاعد الحس الصوفى فى لغة أعمالى الأخيرة مثل الكيلو 101 الوجه والقناع وكف مريم.

رؤيتى لقضية الشكل والمضمون

يرى البعض أن الشكل هو الوعاء الفنى الذى يصب المضمون بداخله. أما أنا فأنضم الى هؤلاء الذين لاينظرون بصورة منفصلة للشكل عن المضمون، اذ أننى أرى فيهما مصهورا متجانسا أذابه الصدق الفنى. ويمكننى ايضاح ذلك بطريقة اجتماعية مرة وبطريقة كيمائية -بحكم مهنتى- مرة أخرى. فأما التفسير الاجتماعى فهو يشبه زواج

-رجل بامرأة على أن يكون الصدق الفنى هو المأذون الذى يعقد عليهما. وأما التفسير الكيمائى فهو أن المصهور .أو المزيج يصعب فصله الى مكوناته ، على عكس الخليط الذى يمكن فصله الى العنصرين المكونين له

قضية الفصحى والعاميــة:

معنى القصة العربية أنها نوع من فنون الأدب المكتوبة باللغة العربية، واللغة فى ذاتها هى إحدى مكونات الجمال الفنى فى القصة، وهى أحد العناصر الأساسية فى إنشاء القانون الفنىالمختص بذات القصة والنابع من جوهرها وشكلها.فإذا ماخلطنا العامية بالفصحى فى عمل قصصى فإننا نكون كمن أصدر قانونا ثم قام بالخروج عليه،هذا من حيث المبدأ، أما من حيث النتيجة فإن الخروج على القانون-مثلما يشكل جريمة فى عرف المجتمع-يشكل فى عرف الفن جريمة أيضا،وأقصد بذلك جريمة القبح والتشويه وعدم التجانس والنزول بالفن إلى درجة سفلى.

وإنى أتفق مع توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وغيرهما من الكتاب المعاصرين الذين انتهوا من هذه المشكلة بنجاح فيما يسمى باللغة الثالثة التى تستخدم فى الحوار فقط،وهى لغة ذات جرس أو رنين أو إحساس عامى لكنها فصحى فى الأصل،أما السرد فيظل على عرشه الجدير به،إذ أن الحوار وحده هو الذى يتعرض للتعبير عن متحاورين تتفاوت مستوياتهم الثقافية والمعرفية والتعبيرية.

خامسا: مساهماته الإبداعية فى الأنشطة الثقافية والفكرية المختلفة

سعيد سالم كاتب دؤوب يتمتع بقدرة غير عادية على الصبر والانتظار مع مداومة الإصرار على الفعل دون أن يستسلم لليأس،فمعظم رواياته لم تنشر إلا بعد كتابتها بسنوات عديدة بلغت أحيانا عشرة سنوات(رواية الفلوس) وزادت عن ذلك أحيانا أخرى(رواية حالة مستعصية) ورغم ذلك فهو يقتحم مجالات عديدة يعبر فيها عن فكره ويطرحه بصور متنوعة كالمقالات والمسلسلات الدرامية والندوات والأحاديث الصحافية والإذاعية ، متحديا بذلك كل الظروف التى كان من الممكن أن تدفع به إلى اليأس والتوقف عن الإبداع.لذلك نجده يصرح فى شهادته المشار إليها فى مجلة فصول قائلا:"إن عملية قتل الإبداع لاتحدث إلا من داخل المبدع نفسه،فالعوامل الخارجية مهما كانت قوتها يستعصى عليها أن تقضى على الابداع،بل إنها ربما تستثيره فى حدود معينة،وهى قد تعوق المسيرة الابداعية حينا أو آخر طبقا لنوعها وأثرها لكن المبدع لايقتله أحد إلا نفسه.

إن سيكولوجية الابداع مسألة معقدة للغاية ولا يمكن أن تخضع لقواعد معروفة أو ثابتة إذأنها تختلف من كاتب إلى آخر، بل إنها تختلف عند الكاتب الواحد نفسه من حين إلى آخر...إن حالتى المزاجية المتقلبة بشدة ترتبط بالابداع إلى حد كبير،ولاشك أن هذه الحالة تأخذ طابعا خاصا حين يغزو العراق الكويت وحين تدمر أمريكا الشعب العراقى على مسمع ومرأى من العرب تحت راية الأمم المتحدة وحين أقع فى حب جديد وحين يتضاعف سعر رغيف الخبز فى بلادى وحين يقتل الشعب اللبنانى نفسه وحين يتصدى أطفال فلسطين للمجنزرات الصهيونية بالحجارة وحين تحاصرنى مكبرات الصوت المحيطة بمنزلى تنادى بعضها على بضاعة للبيع وتذيع بعضها القرآن عزاء لفقيد وتذيع الأخرى حفل زفاف همجيا".

ونخلص مما ذكره سعيد سالم إلى أن هدفه الأساسى الملح من رحلته الابداعية هو توصيل فكره الى الناس بأية صورة، فإن واجه صعوبات كالنشر ومتطلبات الحياة اليومية وضغوطها والبعد عن العاصمة وقيود العمل والسكن ، فإنه لاينصرف إلى الشكوى والتذمر وإنما ينطلق إلى تنويع أدوات توصيل فكره ورسالته قدر المستطاع. ويمكن الاستدلال على ذلك من خلال مساهماته الآتية:

1-إلقاء المحاضرات حول قضايا الفكر والفن والمجتمع فى العديد من المنتديات الأدبية مثل قصور الثقافة والروتارى وبعض المراكز الثقافية الأجنبية وأتيليه الكتاب والفنانين وبعض البرامج الاذاعية مثل برنامج مجلة الاسكندرية ويوميات سكندرية.

2-المشاركة فى التجمعات الأدبية ومعارض الكتاب خارج مصر والتصدى لمناقشة القضايا الثقافية الوطنية والقومية من خلال الحوار مع المثقفين فى سوريه والعراق والأردن وأمريكا والسويد.

3-إعداد برنامج درامى أسبوعى بإذاعة الاسكندرية بعنوان"عالم القصة" يتم فيه تناول الأعمال القصصية للأدباء الجدد للتعريف بإنتاجهم ودفعهم إلى دائرة الضوء الجماهيرية.

4-مخاطبة الجماهير فنيا من خلال تقديم عشرات المسلسلات الدرامية الشهرية والسهرات والتمثيليات القصيرة بإذاعتى القاهرة والاسكندرية.

5-المشاركة فى بعض البرامج الثقافية التلفزيونية كالأمسية الثقافية بالقناة الأولى وكاميرا 9 بالقناة الثانية ومساء الخير والصالون الأدبى وحياتنا وفى سهرتنا نجم بالقناة الخامسة.

6-عقد ندوات دورية بنادى سموحة الاجتماعى الرياضى لمناقشة الأعمال الأدبية والفنية المختلفة وتشجيع البراعم الجديدة بدفع إنتاجهم للنشر.

7-المشاركة فى عضوية لجنة النصوص الدرامية بالادارة المركزية لاذاعة وتلفزيون الاسكندرية لاختيار الأعمال الدرامية الصالحة التى تقدم فنا راقيا دون المساس بالقيم والمقدسات والأعراف.

8-المساهمة فى رفع الكفاية الانتاجية للعمال وتقليل عوادم الانتاج والمحافظة على جودته وعلى نظافة البيئة من خلال تقديم أعمال درامية قصيرة لبرنامج مع العمال وذلك بحكم خبرته المهنية الطويلة فى هذا المجال.

9-عقد صالون أدبى غير دورى بالمنزل للالتقاء بالكتاب والشعراء والأدباء والفنانين.

10-المساهمة فى الندوات الأدبية التى تعقد بالمراكز الثقافية المختلفة خارج الاسكندرية مثل الفيوم والوادى الجديد والبحيرة والاسماعيلية والسويس.

11-طرح ومناقشة القضايا الثقافية العامة من خلال كتابة المقال الساخر فى بعض الجرائد والمجلات مثل أخبار الأدب وروزاليوسف والاسكندرية والدستور و القاهرة و هنا الاسكندرية.

*****

*